– أصابع بلا يد
– كانت تجرى وراء طفولتها
– أيام فى الحلال
– أرجوك أعطنى هذا الدواء

أصَابع بلا يَـد..

١

كانت نجوى تجلس على مقعد الطائرة وقد ألقت رأسها على المسند بعد أن أمالته إلى الوراء .. وعيناها مفتوحتان تنظران إلى لا شيء .. وبين شفتيها ابتسامة حزينة كأنها ترثى بها نفسها .. وكلها ضائعة فى بعيد .. سارحة لا تحس بشىء حولها ولا بابنتيها اللتين تصحبانها .. إن نوال الابنة الصغرى .. جالسة بجانبها تقرأ فى كتاب .. هذه هى عادتها حتى بعد أن نضجت وأصبحت فى الخامسة عشرة من عمرها .. تهرب داخل كتاب من كل ما فى الحياة مما يغرى البنات .. وابنتها الكبرى نيفين صادقت أحد الركاب وأخذته أو أخذها إلى مقعد بعيد .. ولا يهم ماذا تقول له أو ماذا يقول لها .. أو ماذا تفعل به وماذا يفعل بها .. فهذه هى عادة نيفين منذ كانت صغيرة .. لا تهدأ ولا تستريح إلا وبجانبها فتى .. وجرأتها بين الشباب تشتد حتى أصبحت فى السادسة عشرة من عمرها وأصبحت تفرض أصدقاءها على البيت كله .. لا يهم .. إن نجوى واثقة أنها تستطيع أن تتدخل دائما للحد من جرأة ابنتها نيفين .. وواثقة أنها استطاعت أن تضع فى عقل ابنتها وفى إحساسها خريطة مفصلة ترسم الخطوط التى تقف فيها البنت بنفسها مهما بلغت جرأتها ..

وانكمشت الابتسامة الحزينة حتى أصبحت كدمعة كبيرة على شفتى نجوى ..

إنها لم تستطع أن تسيطر على نفسها كما يخيل إليها أنها تسيطر على

ابنتيها .. وكانت النتيجة أنها أصبحت تعيش هذه الحياة .. وربما كان سر احتمالها هو قدرتها على الاستسلام .. ومن صغرها وقد تعـودت أن تستسلم . أن تستسلم للواقع .. كان استسلامها لواقعها يتغلب على خيالها .. وعلى طموحها .. وعلى صورة الحياة كما تريدها .. وكان هذا الواقع تفرضه أمها .. لقد كانت مجنونة وكانت تقاوم كثيرا .. ولكن كانت مقاومتها تنتهى دائما بالاستسلام .. ووصل بها الاستسلام إلى أن تزوجت محمود ..

واتسعت الابتسامة الحزينة بين شفتيها .. إنها حتى بعد ثمانية عشر عاما من زواجها بمحمود وهى لا تزال تستعيد كلما خلت إلى نفسها قصة زواجها به ..

لم تكن تريد محمود .. بل لم تكن أيامها تريد الزواج أصلا .. وكان الخطاب قد بدأوا يترددون على البيت وهى لا تزال فى السادسة عشرة من عمرها طالبة فى مدرسة الساكركير .. ولم يكن تزاحم الخطاب عليها لمجرد اسم عائلتها المعروف .. ولا لمجرد أنها حلوة وغنية تملك من إرث أبيها عمارة كاملة فى مصر الجديدة .. ولكن أمها كانت تسعى من خلال صديقاتها الكثيرات إلى جذب هؤلاء الخطاب .. كانت أمها مصممة على أن تزوجها حالا وفى هذه السن المبكـرة .. ربما لتستـريح مـن مسئوليتها .. أو ربما لأن هذا كان اقتناعها وإيمانها .. أن تتزوج البنت قبل أن تكبر وتستكمل شخصيتها فتتفتح أحاسيسها على مغريات الحياة وتتسع مطالبها لما يمكن أن تعطيه الحياة .. زواج كأنه عقد شرعى بالسجن المؤبد داخل قوقعة ضيقـة ملقاة على شاطىء .. شاطـىء الخيال .. شاطىء الطموح .. شاطىء بحر الأحاسيس والأفكـار ..

شاطىء الضحكات والدموع .. سجن فى قوقعة الاستسلام لليأس .. وكانت تقاوم أمها ..

وانطلقت ضحكة صغيرة فى صدرها وهى تتذكر كيف قابلت أول من تقدم لخطبتها .. لقد قضت الأم اليوم كله فى إعداد البيت .. وقضت ساعات وهى تحدد لها ما هو مطلوب منها .. ستذهب إلى الكوافير بعد أن تخرج من المدرسة .. ثم تعود وترتدى الثوب الذى اختارته لها .. وستدخل إلى غرفة الصالون بعد فترة ولكن قبل تقديم الشاى .. ولا يهم أن تتحدث كثيرا مع أم الخطيب ولكن ستكون أخته معه .. وهى أخت شابة متزوجة .. عليها أن تجلس بجانبها وتحاول أن تكسب إعجابها ..

وتلقت نجوى كل هذه التعليمات فى صمت .. وخيالها يرسم لها خطة أخرى غير كل ما تسمعه .. وقد ذهبت إلى الكوافير فعلا بعد أن خرجت من المدرسة .. ووقفت مـع أمهـا إلى أن ارتـدت الثـوب المطلوب .. ثم ما كادت الأم تذهب لاستقبال الضيوف حتى خلعت الثوب وعادت وارتدت ثوب المدرسة وتعمدت أن تمرمط فيه حتى يبدو كثوب يثير الضحك .. ثم وقفت أمام المرآه ولخبـطت كل تسريحة الكوافير وتركت شعرها يسقط على عينيها ويتكلكع فوق عينيها .. ثم أزاحت الصبغات التى وضعتها أمها على وجهها والأحمر الذى ضمخت به شفتيها .. ثم اتجهت إلى غرفة الصالون وهى تتعمد أن تدخل وهى تجرى وتقفز .. وقبل أن تنظر إلى الضيوف وقفت أمام أمها تقول وهى تلوى شفتيها وتنفخ وجنتيها :

— ماما .. لقد غيرت تسريحة الكوافير .. كانت تسريحة قديمة .. الدنيا تغيرت ياماما .. وهـذه التسريحة التى ترينها هى الـتسريحة

المودرن .. تسريحة الروك أندرول ..

وأمها تشهق كأنها ستموت ..

وانحرفت نجوى على أخت الشاب المتقدم لخطوبتها قائلة :

ــ ازيك يا طنط .. هل رقصت الروك ؟.

ونظرت إليها الأخت فى امتعاض وصرخت :

ــ أنا طنط يا بنت ؟. والله عال .. أنا أكبر منك بشهرين !!

وصرخت أمها :

ــ مالك يا نجوى .. هل جننت ؟. آسفة يا جماعة .. البنت لازم جرى لها حاجة ..

ونجوى لا تزال تقفز كطفلة صغيرة وكأنها لا تسمع ما يقال من كلام .. كأنها فى حالتها الطبيعية .. ثم قفزت نحو مائدة الشاى ووقفت تصب فى فنجان ، ثم حملت الفنجان إلى أم الخطيب :

ــ تفضلى يا طنط ..

ثم تركت الفنجان يسقط على ثوب الأم الضيفة .. وصرخ الجميع .. وجرت نجوى هاربة ودخلت غرفتها وأغلقت وراءها الباب بالمفتاح .. وأمها راكعة تحت قدمى الضيفة تمسح الشاى عن ثوبها .. وهى تعتذر فى كلمات أقرب إلى البكاء .. إلى أن انصرف الجميع وشفاههم مقلوبة من القرف ونظراتهم تقذف بالاحتقار ..

ووقفت أمها تخبط على باب غرفة ابنتها بكلتا يديها وهى تصرخ :

ــ افتحى .. افتحى يا مجنونة .. فضحتينا وفضحت البيت كله .. افتحى حتى أذبحك .. افتحى قبل أن أحطم الباب ..

ولكن نجوى لم تفتح .. ولم ترد على صراخ أمها .. إنها واثقة أن أمها

لن تكسر الباب .. وقد تعبت من الصراخ ومن الخبط على الباب .. وسمعت أقدامها تبتعد .. وسكت كل شىء وبقيت نجوى وراء الباب المغلق بالمفتاح حتى الليل ثم خرجت تبحث عن أمها .. ووجدتها راقدة فى فراشها .. مريضة .. وقعت ضحية جنون ابنتها .. وسقطت نجوى بجانبها تقبلها .. وتبكى .. وتقول من خلال دموعها :

ــ أنا آسفة يا ماما .. ولكنى قلت إنى لا أريد الزواج .. لا يمكن أن أتزوج الآن يا ماما ولا حتى أقبل الخطوبة .. وسامحينى يا ماما .. سأسمع من اليوم كلامك .. سأكون تحت أمرك فى كل ما تريدينه .. المهم ألا تمرضى .. صحتك بكل حياتى يا ماما ..

وقد كانت تحب أمها .. رغم كل ما بينهما من خلاف ورغم الخناقات التى لا تنقطع بينهما فهى تحبها .. وتحبها إلى اليوم .. وأمها رغم كل ما حدث لم تكف عن محاولة تزويجها ولكنها لم تعد تدعو الخطاب إلى البيت إلا إذا وافقت نجوى .. ونجوى لا توافق ..

وقد كانت أيامها تحب ..

الحب الوحيد فى حياتها ..

الحب الذى لا يزال ينبض فى عروقها حتى اليوم ..

ولكن ..

هل هذا هو الحب ؟

هل ما كان بينها وبين عادل يمكن أن يكون الحب ؟

ومالت نجوى برأسها على مسند مقعد الطائرة وأغمضت عينيها وأخذت كعادتها تستعيد ذكرياتها مع عادل .. تستعيدها منذ يومها الأول .. كأنها قصة لا تمل من استعادة قراءتها .

* * *

لقد بدأت تحس بعادل وهى فى السادسة عشرة من عمرها .. ولم تفهم معنى هذا الإحساس ولم تحاول أن تفهمه .. إنها فقط تحس به .. وهى فقط تجد نفسها تبحث عنه بعينيها .. وكان يقيم قريبا منهم فى مصر الجديدة .. وكانت تراه أحيانا وهى فى أتوبيس المدرسة .. وأحيانا وهى تسير فى الشارع .. طويلا .. ممشوقا .. أنيقا دون أن يكون مفتعلا فى أناقته .. لا تحس أنه بذل مجهودا حتى يبرز هذه الأناقة .. وهو يميل إلى السمار .. وربما كان أجمل ما فيه شعر رأسه .. إنه شعر ليس أملس خشنا ولكنه بين بين ويتموج على رأسه تموجا طبيعيا .. وكان يخيل إليها أنه دائما مبتسم .. تحس بالابتسامة بين شفتيه .. وفى عينيه .. بل يخيل إليها أن خديه يبتسمان .. لاشك أنه إنسان سعيد .. إنه السعادة نفسها .. ولا شك أن كل من يقترب منه يعيش هذه السعادة .. يعيش دنيا مبتسمة ..

وقد عرفت أنها ليست وحدها التى تحس به .. كل البنات اللاتى يركبن معها أتوبيس المدرسة معجبات به .. رغم أنه كبير .. كبير فى السن .. يقال إنه فى السادسة أو السابعة والثلاثين .. أكبر منها بعشرين عاما .. وهو يعيش وحده فى شقته التى فى العمارة التى تقع خلف بيتهم وتطل على الشارع الكبير .. ويقال إن هناك سيدة تتردد عليه ولا أحد يعرف عنها شيئا .. لقد بدأت تسمع عنه الكثير .. وكل ما تسمعه لا يفقدها إحساسها به .. إنها تركب أتوبيس المدرسة كل صباح وهى تدعو الله أن تراه فى طريقها .. وتعود بالأتوبيس بعد المدرسة وهى تدعو الله مرة ثانية أن تراه .. وأحيانا تنزل من الأتوبيس فلا تدخل البيت ولكنها تسير على قدميها وتلف الشارع وتمر أمام بيته لعلها تراه .. وقد

التقيا فى الطريق مرة وكانت مع أمها ولا شك أنه لاحظ تعلق عينيها به وخيل إليها أن ابتسامته اتسعت .. لم تتسع ولكنها لمعت .. ومرة ثانية التقت به فى الطريق وكانت وحدها .. ماذا تفعل .. لقد وقفت عيناها تستجديانه وشفتاها تبتسمان فى حيرة كأنها مترددة فى أن تفتح له الباب إليها .. ولكنه لم يقف ... مر بها دون أن يعطيها شيئا إلا لمعة ابتسامته ..

ومضى عام وإحساسها يكبر معها .. إحساس يملؤها وتستلم له كل يومها دون أن تفهمه .. بل دون أن تحاول أن تفهمه .. إلى أين ينتهى بها هذا الإحساس ؟.. ماذا تريد من هذا الرجل ؟.. لا تدرى .. ولا تحاول أن تدرى ..

إلى أن كان يوم .. ونزلت من أتوبيس المدرسة وهى لا تزال تتلفت حولها تبحث عنه .. عن مجرد رؤياه .. لقد مضت أيام دون أن تشبع به عينيها .. ووجدت نفسها تسير فى الشارع وهى فى زى المدرسة وفى يدها حقيبتها المدرسية . ووقفت أمام العمارة التى يقيم فيها .. وترددت برهة .. ثم وجدت نفسها تدخل .. وتصعد إلى الدور السابع .. إنها تعلم أين يقيم .. وضغطت على جرس الباب ..

وفتح الباب ..

إنه هو ..

ووقفت أمامه صامته .. ولا كلمة إلا كلمة لا معنى لها تقولها عيناها ..

وقال والدهشة تطغى على وجهه المبتسم :

ـــ تفضلى ..

وخطت داخل الشقة وهى لا تزال صامتة .. ولا كلمة .. وعاد

يقول من خلال دهشته :

ــ أهلا ..

وظلت أيضا صامتة . وعاد يقول ودهشته فى حيرته :

ــ ألا تجلسين ؟

والتفتت إليه وقالت فى رعشة كأنها خائفة :

ــ أنا لا أريد شيئا .. إنى فقط جئت إليك ..

قال وهو يحتضنها بابتسامته :

ــ أهلا بك .. تعالى ..

وأمسك بيدها وجذبها برفق إلى المقعد وجلست وهى تنظر إليه كأنها تتساءل ماذا تفعل به وماذا يفعل بها .. واكتشفت أنه يرتدى البيجاما .. إنه حتى فى البيجاما رشيق أنيق .. و لم تستطع أن تنظر إليه طويلا .. إنها حتى لا تستطيع أن تلتقى عيناها بعينيه .. فأرخت عينيها بسرعة وقالت متلجلجة :

ــ إننا نسكن قريبا منك ..

وقال فى صوت هادىء حنون كأنه يشفق عليها :

ــ أذكر أنى رأيتك مرة ..

إنه يذكر أنه رآها مرة .. لا يذكر عشرات المرات التى كانت تتعمد أن تراه فيها .. وظلت صامتة .. لا تدرى ماذا تقول .. وعاد يقول بصوته الهادىء الحنون وهو يطوف بعينيه عليها .. على ثوب المدرسة وحقيبتها المدرسية :

ــ هل أنت عائدة من المدرسة ؟..

وقفزت واقفة وهى تقول :

ــ لا بد أن أعود .. لا شك أن ماما سمعت صوت أتوبيس المدرسة ..

وقال فى دهشة :

ــ ألا أقدم لك شيئا ؟!

قالت وهى تخطو إلى الباب :

ــ لا .. شكرا ..

قال مبتسما :

ــ ألا تتركين لى شيئا ؟

قالت فى دهشة وهى تتباعد عنه خطوة أخرى :

ــ ماذا أستطيع أن أترك ؟

قال فى هدوئه من خلال ابتسامته :

ــ اسمك ..

قالت مبتسمة فى خفر وكأنها اطمأنت :

ــ نجوى ..

قال وهو يفتح لها الباب دون أن يلح عليها بالبقاء :

ــ إنى أرحب بك دائما يا نجوى .. ولكن أفضل أن تتصلى بى بالتليفون حتى أنتظرك .. هل تعرفين رقم التليفون ؟. إنه ٣٣٠١٢ .

ورفعت عينيها برهة كأنها تستوعب الرقم .. وعاد يقول :

ــ هل أكتبها ؟!

قالت وهى تجرى إلى المصعد :

ــ حفظتها ..

واختفت داخل المصعد وهو واقف يتبعها بعينيه .. لا شك أنه

اعتبرها مجنونة ..

إنها هى نفسها تعتبر نفسها مجنونة .. لعل ابنتها نيفين ورثت عنها نفس الجنون .. وقد قضت أياما طويلة تقاوم هذا الجنون .. ماذا تريد منه ؟.. أنه كبير .. وهو على علاقة كما تسمع بامرأة .. فماذا يمكن أن تصل إليه معه ؟.. إنها لا تريد منه شيئا .. ولكن لا .. إنها تريد أن تراه .. وتتذكر صوته الهادىء الحنون .. أنه لم يحاول أن يقول لها كلمة تفهم منها شيئا .. لم تعرف رأيه فيها .. هل أعجبته ؟.. هل أغرته ؟.. إنه لم يحاول حتى أن يلمسها .. و لم يحاول أن يقنعها بالبقاء معه لحظة أخرى .. لعله اعتبرها طفلة لا تصلح له .. لا تصلح لما تريده الرجال من البنات .. لا تدرى .. ولكن حتى لو اعتبرها طفلة فإن الطفلة فى حاجة إلى رجل كبير حتى تشبع طفولتها .. إنها منذ توفى أبوها وهى فى حاجة إلى رجل كبير .. هل يكون تأثيره عليها هو تعويضها عن الأب ؟.. لا .. لا يمكن .. لقد سمعت أن أول حب فى حياة البنت هو حب الأب .. ولكن ما يرسمه خيالها لها عما يمكن أن يكون بينها وبين عادل لم يكن يرسمه خيالها وهى مع أبيها .. إن ما تتخيله شيء آخر .. أحيانا تتخيله يقبلها .. وأحيانا تتخيله وهو يضمها إليه .. وتعيش لحظات فى هذا الخيال ثم تخاف .. وترسم الخطط التى تحمى بها نفسها منه .. لن تتركه يقبلها على شفتيها .. قد تسمح له بقبلة على خدها .. ولن تتركه يمد يده إلى صدرها .. يكفى أن يضم يديها إلى يديه .. إنها لم تكن فى حاجة إلى حماية نفسها من أبيها .. لا .. حتى لو كان يكبرها بعشرين عاما فلن يكون أبدا قادرا على أن يغرس فيها إحساس الأب .. إنها تتمناه شيئا آخر .. تتمناه رجلا ..

و لم تستطع أن تقاوم طويلا .. رفعت سماعة التليفون وأدارت الرقم الذى تحتفظ به فى ذاكرتها كأنها تحتفظ بأعز شيء لديها .. وقالت وهى تسمع صوته :

— عادل بيه ؟!

وقال ضاحكا :

— لا يا نجوى . أنا مش عادل بيه أنا عادل بس ..

وقالت فى دهشة فرحة :

— هل عرفتنى ؟

وقال فى صوته المرح :

— إنك لا تعلمين أنى خبير فى الموسيقى .. لا يمكن أن يضيع منى نغم .. والأصوات أنغام .. ونغمك لا يمكن أن يضيع منى ..

إنه لا يحادثها كطفلة .. إنه يحادثها كامرأة كاملة .. وقد استمر حديثهما وهى تحس معه كأنها فى قمة شخصيتها .. شخصية كاملة وليست شخصية طفلة .. يسألها عن حياتها ويحدثها عن حياته .. وطال الحديث بينهما دون أن يطلب منها موعد لقاء .. ثم فجأة قال :

— كفى يا نجوى .. اتصلى بى مرة أخرى ..

وقالت فى لهفة :

— متى ؟

وقال ضاحكا :

— ابحثى عنى دائما .. وسأتمنى صوتك فى التليفون دائما ..

ووضعت سماعة التليفون وهى تحس كأنه تركها وسط الشارع وجرى منها .. لا تريد أن يتركها قبل أن يصل بها إلى الرصيف لتسير معه

فى اطمئنان ..

وتعمدت أن تقاوم يومين وثلاثة قبل أن تعود وتتصل به .. وعاد الحديث حلوا شيقا تتمنى ألا ينتهى . ولكنه لم يطلب منها تحديد موعد لقاء ..

واتصلت به فى اليوم التالى .. وطال الحديث .. ولكنه أيضا لم يطلب منها لقاء .. كأنه لا يريد منها أكثر من أحاديث التليفون .. كأنه لا يجد فيها شيئا يغريه بلقائها .. لعلها بالنسبة له مجرد طفلة .. يحبها كطفلة .. يسليها وتسليه بحديث التليفون ..

وعادت واتصلت به وقالت خلال حديثها :

ـــ غدا الأحد .. يوم إجازتى .. هل أستطيع أن أزورك ؟..

وسكت برهة ثم قال :

ـــ متى .. فى أى ساعة ؟

وقالت فرحة :

ـــ صباحا .. فى الحادية عشرة ..

وقال بسرعة :

ـــ لا .. لا يمكن .. سأنتظرك مساء .. فى الساعة الخامسة ..

قالت فى دهشة :

ـــ لماذا .. هل تذهب إلى عملك ؟

قال ضاحكا :

ـــ لا .. إن يوم الأحد إجازتى أنا أيضا وسأكون فى البيت .. ولكنى لا أستطيع لقاءك فى الصباح .. سأنتظرك فى الخامسة .. هل تستطيعين ؟

قالت فى برود متعمد :

ـــ سأحاول ..

لماذا لا يريد لقاءها فى الصباح مادام فى إجازة ومادام لن يخرج من البيت .. لعله سيكون فى انتظار المرأة الأخرى التى سمعت عنها .. ولكن لعلها تظلمه .. ربما كان فى انتظار بعض أفراد عائلته أو ربما كان قد دعا إلى الغداء بعض أصدقائه .. ووجدت نفسها فى صباح الأحد تخرج من البيت .. وتقف بعيدا أمام باب عمارته وهى تبحلق فى الداخلين والخارجين .. ورأت أمرأة حلوة جميلة تدخل .. لعلها هى .. لقد تلفتت حولها قبل أن تدخل كأنها تريد أن تطمئن إلى أن أحدا لا يراقبها .. قطعا إنها هى .. وبقيت واقفة أمام العمارة كأنها فى انتظار أن تخرج هذه المرأة لترى آثار عادل عليها .. ولكن .. إن امرأة جميلة أخرى تدخل .. لا يمكن أن يكون على موعد مع امرأتين .. أو لعلها هذه وليست تلك .. وأحست كأنها مغتاظة من نفسها .. ثائرة .. إنها مجنونة .. سخيفة .. وجرت عائدة إلى بيتها .. ودخلت العمارة فى الساعة الخامسة كما أراد .

* * *

ورفعت نجوى رأسها من فوق مسند مقعد الطائرة وأطلت بعينيها إلى المقعد البعيد حيث تجلس ابنتها نيفين مع صديقها الذى التقطته من بين الركاب ..

إن نيفين جالسة وفى يدها كأس ..

ماذا تشرب ؟

ولوحت لها بيدها من بعيد تناديها .. ولمحتها نيفين فلوت شفتيها فى قرف ثم اعتذرت لصديقها وقامت إلى أمها ووقفت أمامها مستندة على

مقاعد الطائرة وقالت فى لغة إنجليزية وبلهجة سريعة :

— ماذا تريدين ؟

وقالت نجوى وهى تنظر نظرات حادة فى وجه ابنتها :

— ماذا تشربين ؟

وقالت نيفين فى برود :

— ويسكى .. سكوتش ..

وقالت الأم فى حدة وكلماتها الإنجليزية تختلط بكلمات عربية :

— هذا جنون .. كيف تشربين الويسكى وأنت مع رجل غريب؟..

وقالت نيفين وهى تبتسم ساخرة :

— لم يعد الرجل غريبا .. ثم إنهم يقدمون الويسكى لمقاومة متاعب الطائرة ..

وقالت الأم فى حدة :

— كأس واحدة لمقاومة متاعبك .. وإن كنت واثقة أنك لست تعبة .. ثم ماذا يقول أهلنا عندما نصل إليهم ويستقبلوننا ورائحة الويسكى تهب على كل من يقبلك ؟..

وقالت نيفين وهى تهم أن تبتعد :

— اطمئنى .. إنى أحسب حساب كل شىء .. ولست فى حاجة إلى نصائحك ..

وعادت نيفين إلى صديقها .. وألصقت نجوى رأسها بنافذة الطائرة وهى تنظر إلى بعيد فى غيظ كأنها تفكر فى تحطيم زجاج النافذة وإلقاء نفسها بين السحاب حتى تستريح إلى الأبد من متاعب ابنتها نيفين .. ثم جعلت نفسها تضغط على الزرار بجانبها مستدعية المضيفة :

— كأس جين تونيك من فضلك ..

وبدأت تشرب الكأس ..

وعادت تميل برأسها على المسند وتعيش ذكرياتها ..

* * *

إنها تذكر اليوم الأول الذى ذهبت فيه إلى عادل على موعد .. لقد تعمدت يومها أن تثقل من الأصباغ على وجهها .. وعقصت شعرها فوق رأسها .. واختارت الثوب الذى اعتقدت أنه يبرز خطوط جسدها أكثر .. ثم أخذت خاتم أمها الكبير الذى يحمل فصا من الزمرد بين فصوص من الماس .. وعلقت حول عنقها سلسلتها الذهبية التى تتدلى بفص آخر من الزمرد .. كل ذلك لتبدو أكبر .. إنها ليست صغيرة .. وليست طالبة فى الساكركير .. إنها كبيرة .. إنها امرأة مثيرة ..

وقالت لأمها إنها ذاهبة إلى صديقتها عنايات .. كانت تضطر أن تكذب .. لم تكن قد وصلت إلى الحرية والوقاحة التى تفرضها عليها ابنتها نيفين .. وقالت أمها فى دهشة :

— كل هذا وأنت ذاهبة إلى عنايات .. من سيكون هناك ؟

وقالت نجوى وهى تفتعل ضحكة :

— كل البنات مدعوات وأريد أن أغيظهن كلهن .. ليعترفن أنى ستهن .. ست البنات ..

وخرجت أمها تنظر وراءها فى ريبة ..

واستقبلها عادل فى بساطة كأنها صديقة قديمة .. كأنها فتاة تعود أن يفتح لها الباب .. وقال من خلال وجهه المبتسم :

— أهلا نجوى ..

وخطا بعد أن أغلق وراءها الباب دون أن يبهره شىء منها .. دون أن

يقف ليتملى فى كل هذا الذى أعدته له .. أصابعها .. شعرها .. ثوبها .. ولكنه ما لبث أن استدار وعيناه مركزتان فوق شىء غريب منها لم تكن تعتقد أنه يثير اهتمامه .. إن عينيه مركزتان فوق السلسلة الذهبية التى تتدلى فوق صدرها .. وخيل إليها أنه يكتم شيئا يهم أن يقوله .. كأنه يكتم صرخة .. ولكنه عاد ورفع عينيه عن السلسلة وقال من خلال ابتسامة ضيقة :

— شاى أم كوكاكولا ؟

قالت وكلماتها تتكسر بين شفتيها :

— لاشىء .. لن أستطيع أن أمكث طويلا ..

قال كأنه لم يسمعها :

— إنى أريد أن أشرب شايا .. تعالى معى ..

وأخذ يدها فى يده برفق وجذبها وراءه إلى المطبخ وهو يقول ضاحكا :

— هذه المرة سأعد أنا الشاى .. وبعد هذا فأنت المسئولة عن كل ما تريدين وما أريد ..

وأخذت تطوف بعينيها فى أرجاء المطبخ كأنها تفكر فى إعادة إعداده ليكون مطبخها .. مطبخ بيتها .. ووجدت نفسها تتجرأ وتفتح الثلاجة .. ثم تفتح درجا من أدراج المائدة القديمة التى تحمل موقد البوتاجاز .. إنه موقد صغير لا يضم سوى عينين لإطلاق النار .. ثم بحثت عن الأكواب وبدأت تغسل منها كوبين دون أن تهتم بالخاتم الكبير الذى تحلى به أصبعها .. خاتم أمها .. وهو يتكلم ويحكى .. وهى تتكلم وتحكى .. إلى أن حملا صينية الشاى وخرجا إلى الصالة الواسعة وجلسا قبالة أحدهما الآخر وكل منهما يرفع كوبا إلى شفتيه ..

وقبل أن يصل بكوبه إلى شفتيه توقف .. وتركزت عيناه على السلسلة التى تتدلى فوق صدرها ثم قال فى لهجة عصبية :

— هل يمكن أن تخلعى هذه السلسلة ؟

وقالت فى دهشة :

— لماذا ؟

ووضع كوب الشاى على المائدة ، ثم مد يده وفى حركة سريعة نزع السلسلة من حول عنقها وهو يقول محتدا :

— لا أحب رؤية السلاسل ..

وعادت تقول وعيناها تتسعان بدهشتها :

— لماذا ؟

ومد يده والتقط حقيبة يدها وفتحها وألقى فيها بالسلسلة الذهبية ، ثم قال مبتسما :

— سأترك لك أن تكتشفى سرى ..

وقالت وهى تهضم دهشتها :

— ألا تساعدنى على اكتشاف السر ؟

وقال وهو يرفع كوب الشاى إلى شفتيه :

— إن الإنسان لا يكتشف إلا ما يحتاج إليه .. وعندما تحتاجين إلى أسرارى ستكتشفينها ..

قالت وهى تبتسم بسعادتها :

— إنى فى حاجة إلى معرفة سرك ..

قال وهو يضم ابتسامتها بابتسامته :

— عندما تشتد بك الحاجة ستعرفين أسرارى دون أن تسألينى عنها ..

والحديث لا ينتهى .. وهو جالس على مقعد بعيدا عنها .. وأحيانا يخيل إليها أنه سرح بعقله بعيدا عنها .. ولكنه لا يلبث أن يعود إليها ..

ونظرت إلى ساعتها .. لقد تأخرت .. وقالت وهى تقوم واقفة :

ــ تأخرت .. لقد كذبت على ماما وقلت لها إنى عند صديقتى عنايات ، وأخشى أن تسأل عنى بالتليفون هناك ..

قال وهو يقوم واقفا معها :

ــ حتى لو كذبت على ماما فإنى واثق أنك لن تكذبى علىّ أبدًا .. ولا أنا سأكذب عليك ..

قالت من خلال ابتسامتها :

ــ كنت مضطرة أن أكذب على ماما ..

وقال وهو يخطو ويفتح لها الباب :

ــ لن يكون بيننا أبدًا ما يضطرنا إلى الكذب .. إن الكذب حاجة .. ولن نحتاج إليه .. أرجو أن أراك المرة القادمة دون أن تضطرى للكذب ..

وخرجت ..

إنه لم يحاول أن يقنعها بالبقاء معه ولو دقائق أكثر .. ولم يحاول أن يلمسها .. لم يحاول أن يقبلها حتى وهى خارجة من الباب .. قبلة صداقة .. قبلة أبوة .. إنها كانت تتمنى على الأقل أن يحاول كما يفعل الرجل مع المرأة .. لم تكن لتسمح له أن يقبلها على شفتيها .. لعلها كانت تسمح له فقط بقبلة على خدها ..

وذهبت إلى صديقتها عنايات واتصلت من هناك بأمها لتطمئنها .. وكانت لا تزال تعيش الساعات التى قضتها مع عادل .. لماذا لم يحاول معها ؟.. لا شك أن فى حياته هذه المرأة الأخرى .. لماذا لا تسأله عن

هذه المرأة ؟. لقد قال لها إنه لن يكذب عليها .. ولكن كيف تسأله ؟..

ومضت أيام وهى تائهة إلى أن عادت واتصلت به بالتليفون وقالت خلال حديثها وهى تفتعل البساطة كأنها تتحدث عن شيء لا يهمها ولا يؤرقها :

ــ لقد سمعت أن فى حياتك امرأة ؟

وقال فى صوت مرح :

ــ هذا صحيح ..

وقالت وهى محتفظة ببساطتها :

ــ ولماذا لا تتزوجها ؟

وقال ضاحكا :

ــ لأنها متزوجة ..

قالت ونبرة الغيظ بدأت تنبض فى كلماتها :

ــ ولماذا لا تترك زوجها ؟

قال وهو لا يزال مرحا :

ــ لأنها سعيدة معه ..

قالت فى حدة :

ــ ولماذا لا تتركك انت ؟

قال من خلال ضحكته :

ــ لأنها سعيدة معى أنا أيضا .. إنها لا تستطيع أن تستغنى عنى ولا عنه ..

قالت وهى محتدة :

ــ وأنت ؟!

قال وقد خفتت ضحكته وكأنه يراجع نفسه :

ــ أنا .. أعتقد أنى سعيد .. هكذا أريد .. وهذا كل ما أريد ..

وسكتت .. وقد كان يجب أن تسأل نفسها لماذا لا تتركه هى ؟.. لماذا لا تخرجه من فكرها وإحساسها وتعيش حرة منطلقة مع صباها ؟.. ولكنها لم تستطع ..

* * *

وهزت ابنتها الصغرى نوال ذراعها كأنها تفيقها من أحلامها وسألتها بالإنجليزية :

ــ كم بقى على موعد وصولنا ..

ورفعت نجوى يدها بالساعة وقالت ضاحكة :

ــ بقى من الوقت ست ساعات .

وقالت نوال وهى تخبط ركبتها بالكتاب الذى فى يدها :

ــ أف .. لقد زهقت ..

وقالت نجوى وهى تبتسم ابتسامة تخفف بها من زهق ابنتها وكلماتها الإنجليزية تختلط بكلمات عربية :

ــ إنهم سيعرضون علينا الآن فيلما سينمائيا .. سنتسلى به ساعتين ثم ننام أربع ساعات .. ونكون قد وصلنا .

وبدأ عرض الفيلم ..

وأمالت نجوى رأسها على مسند مقعد الطائرة وأغمضت عينيها .. لا تريد أن ترى الفيلم .. تريد أن ترى ذكرياتها ..

٢

كانت الطائرة غارقة فى الظلام .. والفيلم السينمائى يعرض على الشاشة الصغيرة فى مواجهة الركاب .. ونجوى لم تضع على أذنيها أشرطة الاستماع المخصصة لسماع حوار وموسيقى الفيلم فلم تكن تريد أن تسمع شيئا .. كل ما حولها ظلام وصمت .. ورأسها مستريح على مسند مقعدها وهى مغمضة العينين .. غارقة فى الفيلم الآخر .. الفيلم الذى يصور حكايتها مع عادل .

إنه قطعا لم يحبها هذا الحب الذى كانت تسمع عنه وتحلم به .. ولكنها كانت تشعر بفرحته عندما يلقاها . ليست فرحة الرجل الكبير عندما يلتقى بفتاة صغيرة .. ولكنها فرحة كاملة .. طبيعية كأنه يستكمل بها دنياه .. وكانت فرحة تبدو فى أحاديثه الطويلة إليها .. إنه يتحدث فى بساطة كأنه يعرفها منذ زمان كأنها له .. ورغم ذلك فهو لم يحاول أبدا أن يطلب منها موعد لقاء .. كانت هى التى تطلب الموعد .. وهى التى تذهب إليه .. وتبقى معه قدر ما تبقى دون أن يحاول معها شيئا .. ولا حتى لمسة يد .. ويتركها تغادره دون أن يحاول إغراءها بلقاء آخر .. دون أن يطلب منها أن تتصل به ولو لمجرد الاطمئنان عليها .. يتركها تخرج وكأنه لا يهمه أن تعود أو لا تعود .. كأنه لا يهمه عاشت أم ماتت .

ولعل هذا كان السبب فى ترددها الطويل قبل أن تتصل به

بالتليفون .. كانت لا تتصل به إلا كل يومين أو ثلاثة .. ولكنها تعيش معه كل هذين اليومين أو الثلاثة .. وهو السبب فى أنها لم تكن تطلب لقاءه كثيرا .. كانت تمر أسابيع دون أن تلقاه .. ولكنها دائما تريد أن تلقاه .

وهى تذكر لقاءها التالى معه .. كان قد حدد لها موعدا فى الساعة الخامسة أيضاً .. ربما كان هذا هو الموعد الذى يطمئن فيه إلى أن عشيقته المتزوجة لن تأتى إليه .. وقد تعمدت يومها أن تضع السلسلة الذهبية حول عنقها .. تريد أن تعرف لماذا لا يريد أن يراها وفوق صدرها هذه السلسلة .. وفتح لها الباب وكان أول ما تركزت عليه عيناه هو السلسلة .. وتردد برهة ثم مد يده وهو يبتسم ونزع السلسلة من حول عنقها وقال وهو يفتح يدها ويضع فيها السلسلة .

ـــ قلت لك إنى لا أحب أن أراك وحول عنقك سلسلة ..

وقالت وهى تنظر إليه فى دهشة ..

ـــ لماذا ؟

وقال وهو لا يزال محتفظا بابتسامته :

ـــ وقلت لك لا تسألينى عن السبب .. عندما تعرفيننى أكثر ستكتشفين السبب بنفسك ..!

وهزت كتفيها بلا مبالاة كأنها تستسلم لرجل مجنون .. وبعد لحظات وجدت نفسها جالسة بجانبه هائمة فى متعة أحاديثه وقد نسيت حكاية السلسلة ثم كان يجب أن تذهب .. ووقفت قبالته تنتظر أن يحاول أى شىء .. ولكنها تعلم أنه لن يحاول .. وفكرت أن تبدأ هى بالمحاولة .. أن تقفز إلى صدره وتقبله . على خده .. ربما كان لا يعلم أنها تريد قبلته ..

ربما كان يظن أن كل ما تريده منه هو الصداقة البريئة .. وأن إعجابها به هو مجرد إعجاب البنت الصغيرة بالرجل الكبير .. ولعلها لو بدأت بقبلة على خده فسيردها بقبلة منه على شفتيها .. سيعرف أنها تريده .. وأنها تريد الاستسلام له .. ولكنها وهى لا تزال واقفة وعيناها معلقتان بعينيه إذا بالباب يفتح وتدخل امرأة .

وابتعد عنها عادل بسرعة وقال فى دهشته وهو ينحرف إلى المرأة الأخرى :

ـــ ما هذه المفاجأة الحلوة .. أهلا ..

وقالت المرأة وهى لا تنظر إليه وإنما عيناها مركزتان فوق نجوى :

ـــ كان يجب أن آتى إلى مصر الجديدة ووجدت الفرصة لأمر عليك .

وتنبه عادل إلى أن المرأة تبحلق فى نجوى فقال يقدمها إليها :

ـــ نجوى .. جارتنا ..

ثم أكمل يقدم المرأة إلى نجوى :

ـــ خديجة ..

ثم استطرد ضاحكا :

ـــ تقدرى تعتبرى خديجة هى كل حاجة فى حياتى ..

واقتربت خديجة من نجوى وعيناها منطلقتان بنظرات ساخطة ثم قالت وهى تمد يدها إلى خصلة مدلاة من شعر نجوى كأنها تهم أن تشدها من شعرها .

ـــ لماذا لم تأت أمك معك مادمتم جيرانا ويهمك الاطمئنان على عادل ؟.. تفضلى يا شاطرة .. عودى إلى أمك ولا أريد أن أراك مرة ثانية

وأنت وحدك .. فاهمة ..!

ونجوى مجمدة داخل المفاجأة .. لا تعرف ماذا تقول ولا كيف تتحرك .. وبين شفتيها ابتسامة بلهاء كأنها كل ما تستطيع أن تقدمه .. ثم وجدت نفسها تستجيب لأوامر خديجة وتخرج من الباب دون أن تصافح عادل أو خديجة مودعة ودون أن تقول كلمة واحدة .

لا شك أن هذه هى المرأة التى سمعت عنها وحدثها عنها .. المرأة المتزوجة .. ولكنها أصغر مما كانت تتصورها .. إنها أكبر منها ولكنها ليست أكبر كثيرا .. ربما كانت أكبر منها بخمس سنوات .. المهم أنها هى أيضاً أصغر من عادل بكثير .. إنما الأعجب من ذلك وما شد انتباه نجوى هو أن خديجة كانت تتدلى على صدرها سلسلة ذهبية .. لماذا يرضى بالسلسلة الذهبية فوق صدر خديجة ولا يرضى بها فوق صدرها هى ؟.. ربما كانت هذه السلسلة تذكره بخديجة وهو لا يريد أن يذكرها وهو مع أى فتاة أخرى .. ولكن الأهم من كل ذلك أنها هى التى فتحت الباب ... معها مفتاح الباب .. كأنها صاحبة البيت .. كأنها فعلا بالنسبة لعادل هى كل شىء ..

وقضت نجوى أياماً وهى حائرة بين أحاسيسها .. أحياناً ينتابها الغيظ من هذه المرأة الأخرى .. لماذا لا تتحداها وتدخل معها فى معركة للانفراد بعادل ؟.. إنها امرأة جميلة .. ولكنها قطعا أجمل منها .. لعلها تمتاز عنها بأنها متزوجة والمرأة المتزوجة أقدر على إمتاع عشيقها الذى لا يريد الزواج وأخف حملا .. ولكنها تستطيع أن تعطى عادل كل شىء حتى لو لم تتزوجه .. ومن يدرى ؟.. ربما تزوجها عندما يجد أنها أصبحت كل شىء فى حياته .. وتعود نجوى ويخف عنها الغيظ وتعيش فى

لوم نفسها .. إنها مجنونة .. لماذا تربط خيالها وعواطفها بمثل هـذا الرجل .. عادل ..؟ إنه لا يحبها حتى لو كان يفرح بلقائها .. وهى أيضاً .. إنها تعيش خيالها .. خيال بعيد عن الواقع .. خيال لا يرسم لها أى مستقبل .. ليس هذا هو الحب .. إنه جنون .

ووجدت نفسها بعد هذه الأيام تتصل به فى التليفون ، ودهشت وهو يرد عليها فى بساطة وكأن شيئا لم يحدث وقالت :

ــ ماذا حدث بينك وبين خديجة بعد أن تركت البيت ؟

وقال وهو يضحك :

ــ لاشىء .. اطمئنى علىّ واطمئنى على نفسك ..!

قالت كأنها تتحداه :

ــ هل أستطيع أن أراك ؟

ودهشت وهو يقول فى بساطة :

ــ طبعا .. غدا فى الساعة الخامسة كما هى عادتنا ..

وذهبت إليه ولم تضع السلسلة الذهبية كأنها قررت أن تستسلم لما يريد ..

ولكنها تعمدت أن تعيد الحديث عن خديجة .. وقال لها فى نفس البساطة وهو يضحك .. إنها بعد أن خرجت أخذت خديجة تطوف بأرجاء الشقة وعندما وجدت كل شىء فى مكانه ووجدت الفراش مرتبا مما يدل على أنه لم يستعمل ، اطمأنت وصدقت أنه ليس بينهما شىء سوى صداقة الجيرة .. ثم قال عادل :

ــ إنها غيورة .. وهى فى كل مرة قبل أن تترك البيت تترك علامات محددة تخفيها عنى ، حتى إذا عادت ووجدت بعضا من هذه العلامات قد

تغيرت ثارت وأحست كأنها اكتشفت خيانتى لها .. وأنا دائما مظلوم .. ولكنها معذورة فى غيرتها .. إنها تعطى الكثير ..

وقالت نجوى فى مرارة :

ـــ لعلى يجب أن انقطع عن زيارتك ..

وقال فى بساطة عجيبة :

ـــ لماذا ؟

وقالت وهى فى دهشة من بساطته :

ـــ حتى لا تحدث لنا مفاجأة أخرى قد تسبب لك مشاكل .. قد تقطع علاقتها بك ..

وقال بنفس البساطة :

ـــ كيف نعيش فى انتظار المفاجآت ؟.. اتركى الأيام ملكا للقدر .. وأنا فعلا لا أستطيع الاستغناء عنها ، ولكنى أيضاً أحب دائما أن أراك .. وأنت لا تعتدين عليها وهى لا تعتدى عليك .. لأن كلا منكما يعطينى شيئا آخر غير ما تعطيه الأخرى .

وسكتت نجوى إلى أن استطاع أن يشدها إلى أحاديثه .. وفى هذه المرة عندما وقفت قبالته تودعه مال عليها وقبلها قبلة سريعة على خدها .. وحملت نجوى القبلة وجرت بها خارجة :

ـــ إنها أول قبلة منه ولو كانت قبلة على خدها .. ومن يدرى ربما لو كانت قد التصقت به و لم تجر من أمامه لنالتها قبلة أخرى .. وربما كانت القبلة الثانية عل شفتيها ..

ثم إنه قال لها إنها تعطيه شيئا يختلف عما تعطيه خديجة .. ترى ماذا تعطيه ؟.. ربما كان يقصد أنها تعطيه الإحساس بالأبوة .. ربما كان

يقصد مجرد الإحساس بالصداقة .. ربما كان يقصد أنها تعطيه الإحساس بالغرور غرور الرجل العجوز .. وهو يرى فتاة صغيرة متعلقة به كل هذا التعلق .. ومن يدرى ربما كان يقصد الحب .. الحب الكامل .. ولكنه حب محروم لأنه لا يريد أن يجمع بينها وبين خديجة .

وقد مضت أسابيع قبل أن تراه ودون أن تنساه إلى أن كان يوم .

واستيقظت من النوم وهى تريد أن ترى عادل كأنه كان فى أحضانها طوال الليل .. كانت تحلم به واليوم يوم الجمعة .. لا يمكن أن تذهب إليه خديجة فى هذا اليوم .. إن يوم الجمعة أشبه بأيام السجن بالنسبة للزوجات .. تسجن فى خدمة زوجها وأولادها .. يوم الإجازة ..

وركبت سيارة المدرسة وهى لا تستطيع أن تتخلص من إصرارها على أن ترى عادل .. ووقفت السيارة أمام باب المدرسة ودخلت زميلاتها الطالبات أما هى فقد وقفت برهة مترددة ثم تسللت من بين زميلاتها و لم تدخل المدرسة .. جرت إلى الشارع وركبت سيارة أجرة إلى بيت عادل ..

ووقفت وهى فى زى المدرسة وفى يدها حقيبة الكتب تضرب جرس الباب .. وانتظرت طويلا حتى فتح لها عادل .. كان بالبيجاما ويبدو عليه أنه مستيقظ من النوم .. وقال لها وهو فى دهشة :

ـــ إنى لازلت نائما .

وقالت وهى تدخل وتغلق الباب وراءها كأنها تفرض نفسها .

ـــ لم أستطع يا عادل .. كان يجب أن أراك . اعذرنى .. إنى مجنونة .. ولكن كان يجب أن أراك .

وقال وهو يبتسم ابتسامة نائمة :

— اجلسى هنا .. وسأدخل لأتم نومى .. وبعد أن أصحو سأعود إليك .

وقالت فى استسلام :

— حاضر ..

وتركها ودخل فعلا إلى فراشه .. ووضعت هى حقيبتها وأخذت تجول فى أنحاء الصالة وغرفة الاستقبال ، ووجدت نفسها تتعمد أن تحرك كل شىء من مكانه .. كأنها كانت تتحدى خديجة .. إذا كانت خديجة قد تعودت أن تترك علامات فى الشقة فستقضى على كل علاماتها حتى تعرف أنها كانت هناك .. ولم تنقض دقائق حتى عاد إليها عادل وهو يقول مبتسماً :

— طيرت عنى النوم .. لم أعد أستطيع أن أنام . تعالى نعد الشاى ..

وجرت وراءه إلى المطبخ وهى تقفز فرحا .. وما كاد يمد يده إلى معدات الشاى حتى صاحت :

— لا .. أرجوك .. دع لى كل شىء .. أنا المسئولة ..

وتراجع وترك لها المعدات وبين شفتيه ابتسامة تحتضنها وقال :

— ماذا تفضلين للإفطار ؟..

وتركت براد الشاى الذى كانت تغسله تحت الحنفية واقتربت منه وهى تقول من خلال فرحتها :

— وأنا المسئولة عن الإفطار .. ماذا تريد ؟.. إنى أعد « أوملت » رائع .. إنى مشهورة « بالأوملت » . أم تفضل أن أعد لك طبق فول بالبيض ؟.. وهناك شىء أنا واثقة أنك لم تجربه .. ساندويتش مربة بالجبن .. ما رأيك ؟..

وقال وهو لا يزال يحتضنها بابتسامته :

— أفضل الأوملت .. على الأقل أضمن وأقل خطرا ..

قالت وهى تدفعه ضاحكة خارج المطبخ :

— الآن .. دعنى للعمل .. وادخل أنت الحمام وارتد ثيابك وأكون قد انتهيت من إعداد مائدة الإفطار ..

واستجاب صامتا وأخذ ابتسامته الواسعة وخرج من المطبخ .. وبدأت هى تعد كل شىء .. ولكنها لم تكن تكتفى بما يتطلبه الإعداد .. كانت تنكش فى كل شىء يحويه المطبخ .. ووجدت الأطباق والأكواب موضوعة بغير نظام فأخذت تنظمها وفقا لذوقها الخاص .. كانت تحس كأنها فى بيتها وكأن هذا المطبخ مطبخها .. ووجدت نفسها دون أن تتعمد تغنى بصوت خافت .. إنها لا تدرى ماذا اختارت لتغنيه .. ولكنها تغنى .. إلى أن خرجت من المطبخ وبدأت تعد المائدة .. ثم نقلت إليها ما أعدته .. وصاحت ضاحكة .

الإفطار جاهز ..

وخرج عادل وقد ارتدى بنطلونا وقميصا وحلق ذقنه وهذب شعره .. وتعلقت عيناها به وهى مبهورة بوسامته .. إنه أجمل مما تعودت أن تراه . وتشاغلت عنه بالعبث فى أدوات المائدة كأنها كانت تخشى لو استسلمت أن تلقى نفسها عليه وتطلب منه أن يفطر بها .. وأشارت له إلى المقعد الرئيسى من المائدة ليجلس عليه ، ولكنه قال ضاحكا :

— لا .. أنت تجلسين هنا .. أنت اليوم ست البيت .. أنت المسئولة عنى .. وربنا يستر عما سيفعله بى ما أعددته لى من إفطار ..

وتركها تجلس على رأس المائدة وجلس بجانبها . إن كل شىء أعجبه .

كان مبهورا حتى بفنجان الشاى الذى يشربه .. والحب والضحكات بينهما لا تنتهى . ثم قام إلى الصالة ومال وشد من تحت عقب الباب الجرائد اليومية .. وقالت وهى تجرى وراءه بعينيها :

ـــ هل تريد الآن شيئا ؟

وقال وهو يجلس على المقعد ويرفع الجريدة أمام عينيه :

ـــ سأقوم الآن لأعد فنجان القهوة ..

وصاحت فى فرحة :

ـــ لا .. لا تنس أنى المسئولة ..

ثم رددت فى صوت خفيض :

ـــ لقد قلت إنى ست البيت ..

وجرت تعد له فنجان القهوة .. بل إنها نقلت إلى .. المطبخ معدات الإفطار وغسلتها ورتبتها على الأرفف كما تريد ثم عادت إليـه .. إن أحاديثها حلوة طبيعية كأنه لم يحدث بينهما شىء شاذ .. إنه حتى لم يسألها لماذا صممت على أن تراه اليوم .. ولم يسألها كيف هربت من المدرسة وهو يراها بزى المدرسة .. كأن كل ما يحدث هو دائما حدث عادى لا يثير الدهشة ولا الاهتمام ..

وكانت الساعة قد وصلت إلى الحادية عشرة ..

وسمعت نجوى وهى جالسة فى الصالة بجانب عادل صوت مفتاح يدور فى الباب ..

وهمت أن تقوم لتختبىء داخل الشقة ولكن الباب فتح قبل أن تختبىء ..

إنها خديجة ..

ووقفت مجمدة داخل المفاجأة ..

وقالت خديجة وعيناها مفتوحتان تكادان تنطلقان من فوق وجهها :

ـــ كنت متأكدة أنى لن أجدك وحدك .. لم تكن تنتظرنى اليوم حتى تدارى بلاويك ..

ثم هجمت خديجة على نجوى وأمسكت بشعرها فى يد ورفعت اليد الأخرى وصفعتها فى قسوة .. ثم صفعة أخرى وهى تصيح :

ـــ ألم أقل لك يا مقصوفة الرقبة لا تدخلى هنا أبداً ؟..

وأسرع عادل وشد خديجة بعيداً عن نجوى قائلا :

ـــ لا تكونى مجنونة يا خديجة . لا تكونى مجنونة ..

وخديجة لا تزال عيناها معلقتين بنجوى وتصرخ :

ـــ وأنت هاربه من المدرسة .. سأتصل بأمك وأقول لها كل شىء حتى تجد لها حلا .. ومن يدرى .. ربما كنت هنا باتفاق مع أمك ..

ونجوى مجمدة كأنما أصابتها الصاعقة .. لا تدرى كيف تتصرف .. ولا تستطيع أن تقول شيئا .. إنها حتى لم تقل آه وهى تتلقى الصفعات .. ثم أخذت تنقل عينيها بين عادل وخديجة ، ثم كأنها أفاقت فجرت والتقطت حقيبة المدرسة وفتحت الباب وهربت ..

* * *

وأضيئت أنوار الطائرة حتى يتم تعديل شريط الفيلم ، وقالت نوال بلغتها الإنجليزية وهى جالسة بجانب أمها :

ـــ الفيلم رائع يا ماما .. ليتك تتابعينه ..

وقالت نجوى وكلماته العربية تختلط بكلمات إنجليزية :

ـــ إنى متعبة يا نوال .. وأتمنى أن أنام ..

والتفتت نجوى إلى حيث تجلس ابنتها نيفين مع الصديق الغريب .. ترى ماذا حدث بينهما وأنوار الطائرة مطفأة .. ترى هل تبادلا القبلات ؟.. لا .. لا يمكن .. إن نيفين ليست فى حاجة إلى إطفاء الأنوار حتى تفعل أى شىء يخطر على بالها .. لو كانت قررت أن تتبادل معه القبلات لتبادلتها معه وسط الأنوار وأمام كل الناس .. إنها نشأت وعاشت فى مجتمع لم تعشه أمها .. وحتى لو كانت عاشته فهى لا تستطيع أن تستسلم له .. وهذا هو كل سر متاعبها مع ابنتها ..

وأعيد إطفاء الأنوار ..

ومالت نجوى برأسها على مسند المقعد وعاشت لحظات مع أحوال ابنتها نيفين ، ولكنها وجدت نفسها تعود وتعيش قصتها .

* * *

ربما كان هذا اليوم هو اليوم الذى اختارت فيه مصيرها ..

لقد تركت شقة عادل .. وتركته مع خديجة .. وأخذت تطوف فى شوارع مصر الجديدة وهى هائمة تتحسس بين الحين والآخر مكان الصفعات التى تلقتها دون أن تحس بأنها توجعها .. إنما تتحسسها كأنما تلصقها على جلدها لتحتفظ بها كذكريات .. ذكريات مرة .. وظلت هائمة فى الشوارع إلى أن وجدت نفسها جالسة على مقعد فى حدائق شارع البارون أمبان وهى تحادث نفسها ..

إنها يجب أن تعترف بالواقع الذى اختارته لنفسها .. إنها هى التى اختارت كل ما مر بها .. إنها لا تستطيع أن تلوم عادل فهو لم يخدعها و لم يكذب عليها و لم يخف عنها حقيقته .. بل إنه ليس هو الذى أرادها هى التى أرادته وفرضت نفسها عليه .. وقد قبلها دون أن يطلب منها

شيئا .. دون ثمن بل حرص على أن يبقيها دائما فى وضعها الصحيح .. وضع الصديقة التى يكفيه منها مجرد لقاء عابر .. أو ربما وضع البنت الصغيرة التى لم تنضج بعد حتى يعاملها كامرأة .. ولا تستطيع أيضاً أن تلوم خديجة .. إن خديجة لم تعتد عليها و لم تأخذ منها حقا .. هى التى اعتدت على خديجة وحاولت أن تأخذ حقها فى عادل .. ومن حقها أن تصفعها ولو كانت هى مكانها فربما لم تكتف بالصفع ولكنها تخنق الفتاة التى تحاول أن تأخذ منها حبيبها ..

ولكن كيف تخرج من هذا الواقع الذى وضعت نفسها فيه ..

يجب أن تعيش واقعا آخر .

أى واقع ؟

إنها يجب أن تتخلص أولا من إحساسها بعادل .. إنه إحساس ساذج كمجرد خيال .. خيال أطفال .. إحساس لا يمثل أى أمل .. ولا حتى مجرد أمل عاطفى . ولكن كيف تشغل نفسها بإحساس آخر غير إحساسها بعادل ..

إنها لا تستطيع أن تشغل نفسها بالدراسة ولا بأمل دخول الجامعة . فهى لا تهوى الدراسة ولا تغريها الجامعة ولا تفكر أبداً فى أن تكون امرأة عاملة ..

ليس أمامها إلا أن تتزوج ..

كيف تختار من تتزوجه ؟

ولماذا تختار هى ؟.. لتترك أمها تختار وتعرض عليها من تختاره كما تحاول دائما ..

وانتظرت نجوى إلى أن حان موعد عودة أتوبيس المدرسة بها إلى

البيت فعادت .. وجلست بجانب أمها وهى تبدو تعبة مرهقة .. وقالت لها الأم فى حنان :

ــ مالك يا ابنتى ؟..

وقالت نجوى وهى تبتسم ابتسامة مسكينة :

ــ تعبة يا ماما .. زهقت من المدرسة ومن كل شىء .. حتى أنى بدأت أفكر فى أن أتزوج .. حتى لو تزوجت قرداً بسلاسل ..

وقالت الأم ولسانها يتراقص بالفرحة كأنها تزغرد :

ــ هذا ما أقوله لك دائما .. هذا هو مستقبل كل بنت .. ولو كنت تزوجت من عامين لكنت الآن ست الستات .. ولا يزال من يتقدمون إليك هم خير العرسان ..

وكانت الأم منذ الفضيحة التى سببتها نجوى فى مقابلة من تقدم لخطبتها قد امتنعت عن استقبال أى خطيب إلا إذا وافقت نجوى ، وكانت نجوى ترفض .. أما اليوم فهى تقبل ..

ولم تكن خديجة قد سكتت ولكنها اتصلت فعلا بأم نجوى وقالت لها إن ابنتها تتردد على شقة شاب عازب .. ولكن نجوى استطاعت أن تكذب ما سمعته أمها .. ثم إن أمها كانت فرحة إلى حد ألا تصدق مادامت ابنتها قد بدأت تفكر فى الزواج .. ثم إن نجوى استطاعت أن تراقب صندوق البريد حتى استولت على الخطاب الذى أرسلته المدرسة بغيابها يوم الجمعة قبل أن يصل إلى أمها .. وفى المدرسة قالت للمشرفة إنها وجدت نفسها تهرب بعد أن وقف الأوتوبيس أمام المدرسة لأن خالتها مريضة جدا ولم تكن تستطيع أن تتحمل دخول المدرسة قبل أن تذهب إلى خالتها وتطمئن عليها ..

وهى تعيش ساهمة ولا تتصل بعادل .. إنها وهبت نفسها للمجهول ..

إلى أن جاءت أمها تبلغها أن محمود تقدم لخطبتها .. وقبلت لقاءه فى استسلام ..

لقد جاء مع أخيه وأخته وزوجة أخيه .

وجلست إليه وهى متبعة كل أصول تقاليد استقبال الخطاب ، وبذلت كل جهدها فى تسريحة الشعر وفى اختيار الثوب وفى تبادل الكلمات ..

إنه شاب فى السابعة والعشرين من عمره وهو وسيم .. وإن لم يكن وسيما فى نظرها فليس فى شكله ما يعيبه .. وهو مهندس .. يعمل فى شركة الهندسة والإنشاءات .. ولكنه يبدو وكأنه ليس مهندسا فهو يتكلم كثيراً .. كأنه محام أكثر منه مهندسا .. المهم أنه فى كل أحاديثه كان يتجاهلها .. كل حديثه كان لخالها وأمها .. كأنه لم يأت من أجلها .. كأنها ليست هى صاحبة الرأى .. وليست هى التى يمكن أن تقرر أن تتزوجه أو لا تتزوجه .. وقد قررت أن تتزوجه . والحقيقة أنها لم تتخذ القرار ولكنها استسلمت لقرار أمها وخالها وكل أفراد العائلة .. كلهم فرحون بهذا العريس .. إنه من عائلة محترمة .. وأبوه غنى يملك عمارة فى الدقى خصص منها شقة لكل ابن من ابنائه .. ثم إنه مهندس والمستقبل كله أصبح ملكاً للمهندسين .. وكانت تسمع كل هذا الكلام دون أن تهتم .. كل ما تحس به أنها مستسلمة لقدرها وفى انتظار الواقع الجديد الذى تريد أن تنقل نفسها إليه .. بل إنها لم تهتم حتى بتجاهل محمود لها .. إنه يتعامل معها كأنها فتاة صغيرة لم تفهم شيئاً ولا تحمل

مسئولية .. كأنها مجرد قطعة جميلة أعجبته فقرر أن يشتريها من أهلها .. وقد أعلنت الخطوبة دون أن يحاول معها شيئاً جديداً .. بل إنه حتى لم يحاول أن ينفرد بها كما يحاول أى خطيب أن يكتشف ويتذوق خطيبته .. لا قبلة ولا حتى كلمة .. وعندما بدأت تقبل دعواته لم يكن يدعوها وحدها .. كان يدعوها مع أفراد العائلة دون أن يحس بأنه ينقصه شىء .. وعندما ذهب لشراء الشبكة كانت معهما أمها .. ولم يهتم برأيها .. كان كل ما يهمه هو رأى أمها .. ولو أنه فى النهاية فرض رأيه هو .. وكل ذلك دون أن تهتم .. بل إنها لم تهتم حتى باختيار جهاز بيتها .. تركت أمها تختار وتقرر ما تريد .. إنها مستسلمة .. منتهى الاستسلام ..

ولم تكن تقاوم وهى فى استسلامها إلا شوقها إلى عادل .. إنها لا تستطيع أن تتخلص من شوقها إليه .. تريد أن تراه .. أن تسمع صوته فى التليفون .. وقد مضت شهور وهى تقاوم .. وكانت تجد نفسها خلال هذه الشهور وهى تمر أمام عمارته لعلها تراه .. وترفع سماعة التليفون لتسمع صوته ثم تلقى بالسماعة قبل أن تدير الرقم .. ثم ضعفت مقاومتها ووجدت نفسها تدير رقم التليفون وسمعت صوته .. هادئا رزينا كما تعودته .. وقالت وهى تقاوم فرحتها بسماع صوته :

— ازيك يا عادل ؟..

وقال فى هدوئه كأنه لم يفاجأ .. كأنها لم تغب عنه كل هذه الشهور .. وإن كانت قد لمحت ابتسامته بخيالها .. قال :

— ازيك انت يا نجوى ؟

وعادت تقول وهى تضغط على دقات قلبها كأنها تخشى أن يسمعها

فى التليفون :

— وما هى أخبارك ؟

وقال بلا حماس :

— كما أنا ..

قالت وكأنها تبحث عن كلماتها :

— ألم يتغير شىء ؟..

قال فى صوت مستسلم :

— أبداً .. لا شىء تغير ..

قالت بسرعة :

— وصديقتك ؟

قال وهو أقل حماسا :

— تقصدين خديجة ؟.. هى أيضاً لم تتغير .. وأنت .. ماذا تغير فيك !

قالت وهى تضحك ضحكة خافتة :

— تغير كل شىء فىّ .. سأتزوج .. لقد خطبت ..

وسمعت رنة الفرح فى صوته وهو يقول :

— مبروك .. ألف مبروك ..

قالت وهى تلوى شفتيها كأنها صدمت بفرحته :

— هل كنت تتمنى لى الزواج ؟

وقال وهو يضحك :

— إنك لم تكونى فى حاجة إلى أمنيتى .. كل بنت مصيرها الزواج .. إنه نظام الحياة .. كنظام المرور .. السير على اليمين ..

قالت من خلال نهدة حزينة :

ـ لقد تزوجت لأنى استسلمت ..

قال كأنه يخفف عنها :

ـ لقد استسلمت للواقع ..

قالت فى غيظ :

ـ ولكنك لم تتزوج ..

وقال وهى تلمح ابتسامته بخيالها :

ـ إن الزواج بالنسبة للرجل حاجة وليس مصيرا .. وأنا لست فى حاجة الآن للزواج ..

وقالت وهى أشد غيظا :

ـ إنك فى حاجة إلى حريتك وتستطيع أن تحتفظ بها .. أما أنا .. أما كل البنات .. فلا يستطعن أن يعشن أحرارا .. الحرية حرام على البنات حلال على الرجال ..

قال وقد عاد صوته هادئا رزينا :

ـ صدقينى أنى لست حرا رغم أنى لم أتزوج ..

وقالت وقد ارتفع صوتها ساخطة :

ـ ماذا يمكن أن يخنق الحرية غير الزواج ؟..

وقال فى هدوئه :

ـ شىء يسميه الناس الحب ..

قالت كأنها تحاول أن تسخر منه :

ـ هل تحب خديجة ؟

وقال فى بساطة :

ـ لا أدرى .. ولكنها حالة يعتبرها الناس كأنها الحب ..

وترددت برهة ثم قالت من خلال غيظها :

ـ آسفة .. لن أستطيع أن أطيل .. باى باى ..

وألقت سماعة التليفون كأنها تلقى بها فى البحر ..

ولا تدرى لماذا هى مغتاظة .. ربما لأنه فرح بخبر زواجها .. كان على الأقل يجب أن يحس بأن الزواج سيحرمه منها .. ستكون لرجل آخر .. ربما لأنه لم يكن فى شوق إليها و لم يسألها أن يراها قبل الزواج .. ولكن ما هذا التخريف .. إنه لم يصل معها أبداً إلى حالة الاهتمام بمصيرها .. سواء تزوجت أو لم تتزوج .. سواء التقى بها أو لم يلتقى .. إن كل ما كان بينهما هو خيال من جانب واحد .. خيالها .. وهى وحدها التى كانت تتصور كل شىء .. تتصور الحب .. ولكن هل هذا هو الحب ؟.. إذا لم يكن حبا فماذا يربطها به دون باقى الرجال إلى حد أن تستعين بإحساسها به على تحمل هذا الرجل الذى استسلمت للزواج به .. إنها لا تدرى .. لا تدرى ..

ومرت أسابيع وهى تقاوم نفسها بالاستسلام لأمها ولخطيبها .. إلى أن تحدد يوم الزفاف .. ووقفت طويلا أمام التليفون ثم رفعت السماعة وأدارت الرقم وقالت بحدة :

ـ غدا يوم الزفاف .. هل أستطيع أن أراك اليوم ؟..

وقال عادل فى هدوء :

ـ أهلا .. الساعة الخامسة إذا استطعت ..

* * *

وأضيئت أنوار الطائرة .. انتهى عرض الفيلم والتفتت نجوى ناحية

ابنتها نيفين .. فرأتها نائمة على المقعد بجانب الرجل الغريب .. فقامت إليها وقالت وهى تهزها برفق لتوقظها :

— تعالى يا ابنتى ونامى على مقعدك بجانبنا ..

وقالت نيفين بلهجتها الإنجليزية :

— إنى مستريحة هنا ..

وقالت نجوى بكلماتها الإنجليزية المختلطة بالعربية .

— تعالى لنكون معا ساعة الوصول .. تعالى لأرتاح .. من أجل خاطر ماما ..

وقامت نيفين وهى تزفر أنفاسها فى سخط ، والتفتت إلى الرجل قائلة بالإنجليزية :

— عن إذنك .. يجب أن أرضى ماما .. وسأعود إليك ..

وألقت نيفين نفسها على المقعد بجانب أختها نوال .. وعادت نجوى إلى مقعدها وهى مبتسمة كأنها اطمأنت على ابنتها .. ثم مدت أصابعها تعبث فى سلسلة ذهبية معلقة فوق صدرها .. ومالت برأسها على المسند وعادت إلى ذكرياتها ..

٣

وابتسمت نجوى ابتسامة صغيرة وعيناها مغمضتان ورأسها ملقى فى استرخاء على مسند مقعدها فى الطائرة ، وهى هائمة فى ذكرياتها .. لا شك أنها كانت مجنونة .. كيف تذهب إلى عادل فى شقته وقد سبق أن فاجأتها عشيقته خديجة هناك مرتين .. وفى آخر مرة تلقت منها صفعتين وكان يمكن أن تمزقها لولا تدخل عادل لإنقاذها .. ولكن هكذا هى .. تقدم على ما تريده وهى مستسلمة لكل ما يمكن أن يحدث .. إنها حتى أقدمت على الزواج من محمود وهى مستسلمة .. لا تدرى ما يمكن أن يحدث .. وغدا يوم الزفاف وهى تحس أنها تريد أن ترى عادل اليوم ولا تستطيع أن تقاوم إحساسها .. ولا تدرى لماذا تريد أن تراه قبل الزفاف ؟.. ربما لتودع أيام صباها ولتودع ذكرياتها التى سيطرت عليها سنوات طويلة .. ذكريات حب غريب لم تفهمه و لم تستطع أن تقدر أصله ولا فصله .. وكانت أحيانا تعتبره حبا يعيش فى قلب واحد .. قلبها .. وأحيانا تحس كأن عادل يعيش معها الحب لولا أنه يكتم حبه لأنه لا يريد أن يجمع بينها وبين عشيقته خديجة .. لا يريد أن يعطيها ما يعطيه للأخرى حتى ولا قبلة ولا لمسة تهدىء من اشتهائها له .. وربما كانت تريد أن تذهب إليه لتتبرك بالمعبد الذى قضت سنوات تتعبد فيه .. معبد الحب .. وتتلقى فى المعبد بركات الشيخ .. الشيخ عادل .. وتسمع نصائحه .. إنها لا تدرى لماذا تذهب إليه رغم أنها قررت أن لا تراه بعد

أن أعلنت خطوبتها لمحمود ..

ووقفت أمام المرآة وقد علقت سلسلتها الذهبية فوق صدرها .. ولكنها تذكرت أنه يرفض أن يرى فوق صدرها سلسلة رغم أنه يترك سلسلة على صدر خديجة .. وهى لا تريد اليوم أن تثير أحاسيسها ولا أحاسيسه .. إنها زيارة وداع .. ومدت يدها ورفعت السلسلة الذهبية من فوق صدرها وألقتها بعيدا وذهبت إليه ..

واستقبلها عادل بابتسامة واسعة فرحة تفصح عن الشوق إليها .. وقالت قبل أن تجلس :

— هل أنت واثق أن خديجة لن تأتى .

وقال ضاحكا وهو يضمها إلى عينيه :

— إن أجمل وأقوى ما يجمعنا هو أننا لا نهتم بالمفاجآت .. ولا أدرى هل سنفاجأ أم لا نفاجأ ..

وقالت فى صوت متردد :

— لم أعد حرة حتى أحتمل المفاجآت ..

وقال عادل وكأنه يلومها :

— أنت حرة حتى لو تزوجت .. والحرية حق يحدده صاحبه .. وأنت هنا اليوم لأنك حددت أن من حريتك أن تأتى .. وإذا لم تأت فلأنك قررت أن حريتك تمنعك من أن تأتى .. المهم أن لا تفقدى أبدًا إحساسك بأنك حرة وحقك فى الحرية ..

وسكتت ساهية ..

وأجلسها على المقعد الذى تعودت أن تجلس عليه وقال من خلال ابتسامته الواسعة :

— انتظرينى دقائق .. وسأعد لك الشاى بنفسى .. فأنت اليوم عروس وسأقيم لك حفل الزفاف .. حفلا على فنجان شاى ..

وابتسمت ابتسامة ساهمة وتركته يدخل إلى المطبخ دون أن تسبقه إليه كعادتها .. أحست كأنه لم يعد من حقها أن تكون ست البيت .. سيدة هذا البيت .. أحست كأنها تبتعد .. أنها فعلا عروس .. عروس رجل آخر ..

وعاد بعد دقائق يحمل صينية الشاى وفى وسطها قطعة من الجاتوه .. وقال ضاحكا :

— هذه كعكة العروس ..

ورفع سكينا صغيرا والتقط يدها ووضعها فوق يده ليقطعا الجاتوه معا .. واستسلمت دون أن تشاركه الضحك .. ولم تأكل من الجاتوه وإنما شدت يدها ورفعت فنجان الشاى .. ثم قالت وهى لا تزال ساهمة :

— إنى حائرة يا عادل .. وخائفة ..

وقال وهو ينظر إليها فى إشفاق :

— كل زواج يبدأ بالحيرة والخوف ..

قالت وهى تزفر أنفاسها من أعماقها :

— ولكنى لا أحب الرجل الذى أتزوجه ..

قال مبتسما فى هدوء :

— هناك ما يعوضك دائما عن الحب ..

قالت فى لهفة :

— ماذا ؟

قال وهو يحيطها بعينيه :

ــ عقلك .. لقد تزوجت بعقلك وستعيشين هذا الزواج بعقلك .. والعقل هو الذكاء .. والسعادة هى قدرة الذكاء على تحقيق السعادة .. وأنا واثق أنك ذكية ولذلك فأنا واثق أنك ستعيشين سعيدة ..

قالت وكأنها لم تقتنع :

ــ إن السعادة هى الحب ..

قال كأنه يخفف عنها :

ــ الحب أيضا يعيش على الذكاء ..

قالت كأنها ترثى نفسها :

ــ لم أكن ذكية عندما أحببتك ..

وقال وهو يمد يده ويمسك بيدها :

ــ بالعكس .. لقد وصلنا بحبنا إلى قمة الذكاء .. ذكاء أقوى من الاستسلام لما كنت أريده ولما كنت تنتظرينه .. إن الذكاء هو ما احتفظ لنا بما بيننا .. لقد عشنا ما بيننا بذكائنا ..

وظلت ساكتة وهو يحاول أن يشغلها عن سكوتها .. يروى لها الحكايات .. ويحاول أن يضحكها .. ولكن كان هناك دائما إحساس حزين بينهما لا يستطيعان أن يهربا منه .. كل منهما لا يستطيع أن يطمئن إلى مصيره بالنسبة للآخر .. وكل منهما يرفض إحساسه بأن هـذه اللحظة قد تكون لحظة وداع ..

وكان يجب أن تنصرف ..

ووقف ملتصقا بها وعينا كل منهما متعلقة بعينى الآخر فى صمت .. كأن كلا منهما يعطى ويأخذ من الآخر كل ما يريد عطاءه وكل ما يتمنى

أخذه ..

ومد ذراعيه واحتضنها إلى صدره .. فى حنان حزين .. ولم يقبلها .. ولكنه ألصق خده بخدها وهمس :

ــ إن ما بيننا لن ينتهى أبدا ..

وقالت وخدها يحتضن خده وعيناها مغمضتان كأنها تبحث عن نفسها :

ــ ما هو الذى بيننا ؟..

وقال كأنه يتنهد :

ــ إن ما بيننا هو الشىء الذى لا ينتهى ..

وشدت نفسها من بين ذراعيه فى رفق كأنها لا تريد ولا تستطيع أن تشد نفسها بعيدا عنه .. ورفعت إليه عينيها فى نظرة سريعة ثم خطت خطوات بطيئة نحو الباب ..

وخرجت بلا كلمة وداع ..

غريبة .. إنها تحس بعد هذا اللقاء كأنها تغيرت .. كأنها كبرت .. كأنها أصبحت فى سن عادل .. بل إنها أحست أنها زوجة فعلا رغم أن الزفاف لم يتم بعد .. ضاع منها إحساسها بأنها فتاة صغيرة تحب رجلا يكبرها بعشرين عاما ..

ضاع منها كل خيال وأحلام الصبا .. وبدأ الواقع يسيطر عليها .. إنها ليست صغيرة .

إنها زوجة وعادل ليس زوجها ..

* * *

وتحركت نوال وهى نائمة على مقعد الطائرة بجانب أمها وقالت

بلهجتها الإنجليزية كأنها تتثاءب :

— ماما .. دقى الجرس للمضيفة ..

وقالت نجوى وهى تحتضن ابنتها بعينيها من خلال الضوء الخافت الذى يكسو الطائرة :

— ماذا تريدين ؟..

وقالت نوال وهى تتقلب فى رقدتها :

— أريد أن أشرب ..

وقالت أختها نيفين وقد استيقظت من نومها :

— إن عمرك ما احتجت أن تشربى وأنت نائمة .. إنك لست عطشانة ولكنك تريدين أن تتمتعى بخدمة المضيفة ..

وقالت نجوى وهى ترفع يدها وتضغط على جرس نداء المضيفة وتضغط على زرار آخر لينطلق النور فوق مقعدها :

— اسكتى يا نيفين .. أختك عطشى ..

وقالت نيفين فى غيظ وكلماتها الإنجليزية تتكسر بين شفتيها :

— اتركيها تقوم بنفسها لتبحث عن كوب ماء ، وستكتشف فجأة أنها ليست عطشى ..

وسكتت الأم .. إن نيفين دائما هكذا .. لسانها لا يسكت .. وأفكارها دائما ناقدة ثائرة .. وجاءت المضيفة وطلبت منها نجوى كوب ماء .. ثم التفتت المضيفة إلى نيفين وقالت فى صوت ناعم :

— وأنت .. ألا تريدين شيئا ؟..

وقالت نيفين كأنها تعتذر للمضيفة عن إزعاجها :

— لا .. شكرا ..

ثم التفتت إلى أختها وقالت كأنها تهم أن تضربها :

— هل أعجبك أن توقظى المضيفة من النوم لمجرد أن ترضى إحساسك بأنك تستحقين خدمة .. إنك لا تستحقين إلا صفعة ..

ولوت نوال شفتيها فى احتقار و لم ترد على أختها ..

وقالت الأم وهى تتعمد الهمس حتى لا توقظ من حولها من الركاب :

— على كل حال هذه خدمات محسوبة ضمن ثمن التذكرة .. خدمات من حقنا ..

وجاءت المضيفة حاملة كوب الماء وقدمته إلى نوال وكأنها تهم أن تلقى به على وجهها .. وشربت نوال وكأنها تسكب الماء فى جوفها .. ومدت نجوى يدها وأطفأت النور الذى أضاءته فوق مقعدها .. وعادت البنتان تحاولان النوم ..

وعادت نجوى إلى ذكرياتها ..

* * *

لقد انتقلت إلى بيت الزوجية .. شقة فى الدور الرابع من العمارة التى يملكها الأب يحى الدق .. وكان إبراهيم أخو محمود يسكن هو وزوجته وابنه فى شقة بالدور الثالث .. ومنذ اليوم الأول وكلمة عادل تسيطر على كل فكرها .. إن السعادة هى الذكاء .. وقد قررت أن تعتمد على ذكائها حتى تحقق سعادتها الزوجية .. كل شىء وكل حركة تحددها بذكائها .. حتى فى ليلة الزفاف .. لقد دخلت مع زوجها غرفة النوم وهى تعيش مع عقلها .. ستبتسم له ابتسامة كبيرة .. بعد هذه الابتسامة ستدعى الخجل .. ستحاول أن تفتح معه حديثا عن حفل الزفاف وعن المدعوين .. وتتركه يقبلها .. وتتركه يخلع عنها الثوب .. ستساعده فى

خلع ثوبها .. و .. و .. إن فكرها مسيطر عليها إلى حد أنه يلغى إحساسها .. حتى وهو يأخذها .. لم تحس .. كانت تفكر .. كانت تستجدى ذكاءها حتى تسعد زوجها وهو يأخذها كامرأة ..

ولكن ..

ربما يكون الذكاء قد حقق السعادة لزوجها محمود .. ولكنها لا تستطيع أن تصل به إلى إسعاد نفسها .. إن زوجها لا يزال غريبا عنها .. وهو نفسه غريب .. إنه مستمر فى معاملتها كأنها فتاة صغيرة تزوجها لأنه كان فى حاجة إلى الزواج .. كأنها قطعة من الأثاث أتم بها مظهر البيت .. وهو يتحدث إليها دائما ساخرا أو مداعبا أو ضاحكا دون أن يكون بينهما هذا الحديث الجاد العميق الواسع كأحاديثها مع عادل .. حتى عندما يدعوان بعض الأصدقاء أو يذهبان فى زيارة فهو يضعها بين الناس كأنها ليست شيئا مهما .. ويستأثر بالحديث كله لنفسه ويتحدث كأنه ليس فى حياته نصف آخر .. والأهم .. أنها لم تكن تعرف عنه كل شىء .. لقد كان يغيب عنها أحيانا ساعات طوالا مكتفيا بأن يقول إنه كان فى زيارة بعض الأصدقاء .. فإذا سألته لماذا لم يأخذها معه أجاب ضاحكا بأنها كانت جلسة رجال .. وكأن ليس من حقها أن تجلس مع أصدقائه الرجال ولا حتى أن تعرف من هم .. ثم إنها لم تكن تعرف كم يكسب .. إنه قطعا ينفق على البيت وعليها وعلى نفسه أكثر من مرتبه الذى يتقاضاه من الشركة التى يعمل بها .. فمن أين يأتى بهذا المال ؟.. إنها أحيانا تجده يخرج من جيبه مبلغا كبيرا .. مائة جنيه .. مائتين .. هل يأخذ من أبيه ؟.. لا تظن .. إن أباه معروف بالبخل .. وسألته مرة ضاحكة .. من أين يفتح عليك الله بهذه المبالغ ؟.. فأجابها فى عنف ، أن

من حقك أن تطلبى وليس من حقك أن تسألى .. إن الرجل هو المسئول .. وأنا الرجل .. إلى أن اكتشفت بعد شهور أنه يلعب القمار .. وقد اكتشفت بذكائها .. فقد كان فى الليالى التى يقضيها معها فى البيت وحدهما يطلب منها أن تلاعبه بالكوتشينة لعبة الكونكان .. وكانت تلعب معه لمجرد تضييع الوقت حتى يهربا من حديثهما الذى لا يجمعهما فى موضوع جاد .. ثم بدأ بعد أسابيع يعلمها لعبة البوكر التى لم تكن تعرف كيف تلعبها .. وبدأت تلاحظ حماسه ومتعته وهو يلاعبها البوكر .. لا بد أنه يهوى اللعب .. لا بد أنه قمارتى .. وهذه الليالى التى يقضيها خارج البيت لا بد أنه يجتمع خلالها مع أصدقائه حول مائدة القمار .. وبدأت تتأكد بذكائها .. إنه عندما يعود وفى جيبه مبلغ كبير يعود وهو فرح سعيد وينطلق فى مداعبتها ومحاولة أخذها .. وإذا عاد وجيبه خال كان مغموما عصبيا يشخط وينطر ولا يطيق كلمة منها .. لا بد أنه خسر فى القمار هذه الليلة .. ولكنه لم يكن يقول لها أبدا إنه يلعب القمار .. وهى لم تكن تستطيع أن تعترض لأنه لا يلعب كل ليلة .. ليلتين أو ثلاثا فى الأسبوع .. ولم تقع عليه أو على البيت نكبة تجعله يعترف لها أو تجعلها تطالبه بالاعتراف ..

وأكثر من ذلك .. لقد اكتشفت بعد مدة طويلة أن زوجها محمود ليس مجرد موظف فى الشركة .. إنه شريك فى محل لبيع منتجات الألبان .. وفى هذه المرة كان هو الذى اعترف لها .. فقد عاد إليها يوما وهو مهموم يكاد ينفجر تأثرا .. وجلس إليها وقال كأنه يحادث نفسه .. أنت تعلمين أنى شريك فى مصنع منتجات الألبان بالدقى .. وقد اكتشفت أن شريكى لص .. ولص غبى .. كان يعتقد أنى لن أكتشف

قذارته .. ولكنى اكتشفتها .. وأخذ يحكى لها التفاصيل .. وهو دائما يتكلم كأنه يحادث نفسه ولا يوجه الحديث إليها .. لا يسألها رأيها .. ولا يطلب معونتها .. إنه فقط يريد أن ينفس عن نفسه بالكلام .. وقد قالت له بعد أن تحدث طويلا :

ـ ولكنى لم أكن أعرف شيئا .. ربما كنت أستطيع أن أشترك معك ..

وقال مبتسما فى سخرية وهو يقوم من جانبها :

ـ مالك أنت ومثل هذه الأمور ؟..

إنه لا يريد أن يعترف بها أبدا كشخصية كاملة .. مجرد امرأة مخصصة للبيت .. للفراش ..

ورسمت لزوجها بذكائها صورة جديدة .. إنه شاب يغامر .. لا يكتفى بالمغامرة على موائد القمار .. ولكنه مغامر أيضا فى سوق الأعمال .. سوق الحياة ..

ولم يكن زوجها وحده هو الذى يحيرها بعد الزواج .. بل أيضا أخوه إبراهيم .. إنه أكبر من محمود .. ومتزوج .. وله ابن كان لا يزال فى الخامسة من عمره .. وقد بدأ لطيفا يتودد إليها .. ويكثر هو وزوجته من الصعود إليها فى شقتها أو دعوتها إلى شقتهما .. وكانت ترى فى عينيه كأنه معجب بها .. أحيانا كان يقول كلاما كأنه يتغزل فيها ولكنها كانت تسمع هذا الكلام ببراءة .. إلى أن بدأ يتغير .. خيل إليها أنه يريد أن يحكمها أكثر مما يحكمها زوجها .. إنه يعترض إذا عرف أنها تذهب لزيارة أمها وحدها فى مصر الجديدة .. ألا يصحبك أحد ؟.. إنى مستعد أن أذهب بك بسيارتى .. وكانت تعتذر .. لأنها فعلا تريد أن تذهب

وحدها .. وفى الليالى التى كان يعرف فيها أن زوجها خارج البيت كان يكثر من التحدث إليها فى التليفون .. أو يرسل زوجته لتبقى معها .. كأنه لا يطمئن إليها فى وحدتها .. كأنه يغار عليها .. ماذا يريد منها ؟.. لا بد أنه يريدها .. يريد أم يشارك أخاه فيها .. إنها أجمل من زوجته .. إن زوجته ليست جميلة ودمها ثقيل ، ومعروف أنه تزوجها من أجل الوصول إلى ثراء ومركز أبيها .. لا شك أنه يحسد أخاه عليها . وهو يغار عليها لأنه لم يتعود أن يرى مثل هذا الجمال فى عائلته .. إنه جاف .. يحاول دائما أن يبدو جادا عنيفا مخيفا بين أفراد العائلة ... وقد بدأت تكرهه .. لا تطيقه .. وتعمدت أن تبتعد عنه وعن زوجته وتنسى أنها فى الدور الرابع وأنه فى الدور الثالث .. وهما أيضا ـ هو وزوجته ـ بدآ يتجاهلانها .. ويرحمانها بتجاهلهما .. ولكن هذ التجاهل لم يرحمها من التجسس عليها .. إنها وهى تنزل أو تصعد السلم تجد شباك باب الدور الثالث يفتح على صوت خطواتها.. ويدق جرس التليفون ولا يرد أحد.. لا بد أنه هو .. يريد أن يسمع صوتها .. وربما شوقا إليها وربما تجسسا عليها .. وأحيانا يأتى زوجها ويقول لها أخبارا عن أمها أو عن أقاربها .. من أين سمع هذه الأخبار ؟.. لا بد أن شقيقه إبراهيم هو الذى نقلها إليه .. ورغم ذلك فقد كانت تعتمد على كل ذكائها حتى لا تكشف عن كراهيتها لإبراهيم وزوجته .. لا تريد أن تثير إشكالات فى العائلة .. لا تريد أن تسعى إلى معركة بين الأخ وأخيه .. أو بينها وبين سلفتها .. مركب الضراير سارت ومركب السلايف غارت .. ولهذا فقد تحملت وهى صامتة .. ولا تنسى فى صمتها القيام بالواجبات ..

وكانت قد حملت فى نيفين منذ الشهر الأول .. إن ذكاءها أيضا هو

الذى دفعها للاستسلام للحمل .. ربما تستطيع أن تحقق السعادة لزوجها ولنفسها بعد أن تنجب .. لعلها تستطيع أن تنسى عادل ..

إنها لم تستطع أن تنسى عادل .. هذه الشخصية الكاملة المريحة الممتعة .. هذه الابتسامة التلقائية التى تنطلق من كل خلجات وجهه .. وهذا التقارب العجيب الذى رفعها من سنها إلى سنه .. وهذه المبادىء التى كان يصونها بها من نفسها حتى لو حرمها من قبلة .. وأحيانا تكون وحدها تشعر بخده على خدها فى لقائهما الأخير .. وكانت تقاوم .. وكانت تتحمل شهورا طويلة قبل أن تتحدث إليه فى التليفون .. وتسمع صوته حلوا هادئا كما تعودته .. ويسمع صوتها كأنه ليس غريبا أن تحدثه فى التليفون بعد أن تزوجت .. ولم تكن تشكو له فى حديثها .. لم تقل له إن ذكاءها لم يستطع حتى اليوم أن يحقق لها السعادة .. ثم تسائل نفسها بعد أن تضع السماعة .. ترى كيف يفسر اتصالها به .. هل أحس أنها بحاجة إليه ؟.. هل عرف أنها لا تزال تحبه ؟.. أم أنه يرتفع بأحاسيسه وأحساسيسها إلى مستوى الصداقة البريئة .. إلى الشىء الذى لا يمكن أن ينتهى ؟ وقد رأته مرة .. كانت فى طريقها إلى بيت أمها ورأته يخرج من العمارة التى يسكن فيها .. ورآها .. وتبادلا ابتسامة من بعيد .. ثم تعمدت بعدها أن تقضى شهورا لا تحادثه فى التليفون .. شهورا تقاوم أن تسعى إلى لقائه بعد أن أعادت لها ابتسامته كل خيالها فيه .. أو خيالها معه ..

إلى أن حدثت نقطة التحول فى حياتها ..

لم يكن قد مضى ثلاثة أشهر بعد أن وضعت نيفين .. وجاءها زوجها محمود ليعلنها بالمفاجأة .. لقد قرر الهجرة إلى كندا .. وقد أتم

إعداد كل الأوراق .. وسيسافر وحده فى خلال أسبوعين .. وبعد أن يعد كل شىء هناك سيرسل لها لتلحق به هى وابنتها نيفين .. وهمت أن تعترض .. ولكنها بسرعة استسلمت كعادتها .. من يدرى ؟.. ربما كان هذا هو طريق السعادة .. ولكنها لن تستطيع أن تبقى فى هذا البيت بعد سفر زوجها .. إنها لا تستطيع أن تعيش وحيدة بجانب شقيقه إبراهيم .. ستذهب هى وابنتها لتقيم مع أمها ..

وسافر الزوج ..

وانتقلت لتعيش مع أمها ..

أصبحت قريبة من عادل .. وهى لا تزال تقاوم .. لقد اتصلت به بالتليفون وأبلغته كل أخبارها وقالت له إنها عادت جارة له ، ولكنها لم تطلب لقاءه وهو كعادته لم يطلب لقاءها .. وهى تحس أنها تبذل مجهودا أكبر فى مقاومة لقائه بعد أن أصبحت حرة وبعد أن أصبحت جارته .. وتحاول أن تستعين على هذا المجهود باهتمامها بابنتها .. ولكنها كانت تتعمد أن تمشى أحيانا أمام بيته لعلها تراه .. وأحيانا تثور على نفسها وتقرر أن تذهب إليه وترفع سماعة التليفون ولكنها تعود وتلقى سماعة التليفون ولا تذهب ..

وحدث بعد شهور أن سافر إبراهيم شقيق زوجها إلى باريس ليبقى هناك ثلاثة أشهر فى مهمة .. وكان يمكن أن تذهب بعد ذلك إلى شقتها فى الدقى لتقيم فيها .. تعود إلى بيتها .. ولكنها لم تعد .. تريد أن تبقى هنا .. فى مصر الجديدة .. بجوار عادل . إنها تحس براحة واطمئنان وهى تقيم فى بيت بجانب بيت عادل كأنها بجانب أملاكها .. بجانب عواطفها .. إن ما كانت تملكه من عادل هو أنه جارها .. إلى أن جاءتها

رسالة زوجها محمود ..

إنه يدعوها للسفر إليه .. وستمر بباريس حيث يستقبلها شقيقه إبراهيم .. وتقضى ليلة هناك ثم تركب الطائرة فى اليوم التالى إلى هناك .. إلى كندا .. واستسلمت ..

وأعدت فى أيام كل ما تحتاج إليه ، ثم رفعت سماعة التليفون وقالت لعادل وهى تكتم تنهداتها :

ـــ سأسافر غدا .. ربما إلى الأبد .. هل أستطيع أن أراك ؟..

وذهبت إليه ..

وتعلقت أصابعها بالسلسلة الذهبية المدلاة فوق صدرها وهى مستلقية على مقعد الطائرة وبين شفتيها ابتسامة حلوة واسعة تضم ذكريات ذلك اليوم ..

* * *

وانتفضت نيفين من نومها جالسة فوق مقعدها ، وقالت كأنها تصدر أمرا :

ـــ ماما .. افتحى ستارة النافذة .. لقد طلعت الشمس ..

واعتدلت نجوى ومدت يدها وشدت ستارة النافذة ثم قالت وهى لا تزال ساهمة :

ـــ إنه الفجر يا ابنتى ..

وقامت نيفين من مقعدها قائلة :

ـــ لقد تعبت وزهقت .. لم أعد أريد النوم ..

ثم تركت المقعد وابتعدت .. ونجوى تسأل نفسها هل هى ذاهبة إلى الحمام أم ذاهبة إلى صديقها .. ولكنها لم تنظر وراءها لتتبعها .. بل

عادت وألقت رأسها على المسند تعيش مع ابتسامتها الكبيرة الواسعة ذكريات ذلك اليوم البعيد ..

* * *

فتح لها عادل الباب ووقف ينظر إليها مشدوها .. أول مرة ترى هذه النظرة فى عينيه .. لقد مضى أكثر من عام دون أن يلتقيا .. إنها المرة الأولى التى يلتقيان فيها بعد أن تزوجت وبعد أن أصبحت أما .. لعلها تغيرت .. لعله الآن يراها امرأة .. امرأة كاملة .. وليس كما تعودها فتاة صغيرة مندفعة مع خيالها .. وقد كبرت فعلا .. إنها الآن تجاوزت الواحد والعشرين من عمرها .. وهو أيضا قد كبر .. لعله الآن فى الواحد والأربعين من عمره .. ولكن لم يتغير فيه شىء سوى شعرات بيضاء خفيفة تنطلق على أطراف شعره .. ووجدت ابتسامتها تتسع وهى تلمح هذه الشعرات البيضاء كأنها فرحة .. كأنها أحبتها بين ما تحبه فيه ..

وأمسك بيدها وظل محتفظا بها فى يده .. وجذبها لا إلى المقعد الذى تعودت أن تجلس إليه بل إلى الأريكة الواسعة .. وأجلسها وجلس متلصقا بها ويدها لا تزال فى يده .. وعيناه تحتضنان عينيها .. وكل منهما لا يدرى من أين يبدأ الكلام .. إلى أن قالت وهى تحاول أن تسحب عينيها من عينه :

ـــ لم أكن أتصور أنى سأترك يوما مصر ..

قال وبين شفتيه ابتسامة تقطر بالحسرة :

ـــ إنك ستتركين نفسك ..

قالت وقد عادت عيناها تتعلقان به كأنها تلجأ إليه :

ــ كيف .. ماذا يعنى ؟

قال فى بساطة من خلال ابتسامته :

ــ إن البلد الجديد الذى ستعيشين فيه يحتاج إلى نجوى جديدة .. نجوى أخرى ..

قالت فى دهشة :

ــ وكيف أكون نجوى أخرى ؟..

وقال ببساطته :

ــ إنك ستنتقلين إلى مجتمع جديد .. وتقاليد جديدة .. وحياة كل ما فيها جديد .. ويجب أن تعيشيها بشخصية جديدة .. وعقلية جديدة .. حتى بمزاج جديد .. أى يجب أن تتأقلمى داخل الإقليم الجديد .. أى لا يكفى أن تهاجرى من بلد إلى بلد .. بل أن تهاجرى أيضا من شخصية إلى شخصية .. إن المرأة التى تستطيع أن تستمر فى هجرتها هى التى تستطيع أن تخلق لنفسها شخصية أخرى غير الشخصية التى عاشت بها فى بلدها .. والتى لا تستطيع أن تعود من المهجر معترفة بفشلها .. أو تدخل هناك مستشفى الأمراض العصبية ــ مستشفى المجانين ..

وقالت فى جزع :

ــ وهل أستطيع أن أكون شخصية أخرى ، أم سأدخل هناك مستشفى المجانين ؟..

قال وعيناه تأخذان كل وجهها :

ــ لا أدرى .. وأنا لا أحب أن أتصورك وقد تغيرت .. إنى أريدك دائما كما أنت .. كما عرفتك ..

ومد ذراعيه واحتضنها إلى صدره واستسلمت كأنها ترتاح فوق صدره من كل حيرتها ومن كل ضياعها ومن كل ذكائها الذى فرض عليها هذه الحياة التى تعيشها مع زوجها .. وخده ملتصق بخدها .. هذا يكفى .. هذا هو كل ما عودها عليه وما تنتظره منه .. وهى من خلال لمسة خده كأنها كلها فى داخله .. ولكن شيئا جديدا يحدث .. إنه ينزل بشفتيه إلى عنقها .. ثم يطوف بهما على حنايا وجهها .. وهو يقترب من شفتيها .. يقترب أكثر .. إن شفتيها بين شفتيه .. أول قبلة تذوقها بشفتيها .. إنها حتى مع زوجها لا يتبادلان قبلات الشفاه .. وانبهرت .. وبدأ انبهارها يذوب فى متعتها .. إنها سعيدة وهى بين شفتيه .. لم تشعر أبدا بمثل هذه السعادة .. وهى لا تريد لهذه القبلة أن تنتهى .. تريد أن تنام بين شفتيه ..

ورفع شفتيه عن شفتيها وأطل بعينيه على عينيها كأنه دهش لا يصدق أنه وجد فى قبلتها كل ما وجده .. وهربت من عينيه فى صمت واختبأت بوجهها فى صدره .. ثم فجأة تحرك ذكاؤها كأنها تذكرت شيئا وهمست وشفتيها تتحركان فوق قلبه :

ــ ما أحوالك مع خديجة ؟

وقال وهو يمسح على شعر رأسها :

ــ خديجة تذوب ، وكلما ذابت أكثر احتجت إليك أكثر ..

ثم انتفض واقفا وقال كأنه اتخذ قرارا خطيرا :

ــ انتظرينى .. ثانية واحدة .. هناك شىء يجب أن تحمليه معك إلى هناك ..

ودخل غرفته ثم عاد سريعا وهى لا ترى ما يحمله بين أصابعه .. ثم مال عليها وبدأ يعلق فوق عنقها سلسلة ذهبية .. ولم تنظر إلى السلسلة

ولا إلى الحلية المعلقة فيها .. إنها تحس إحساسا غريبا .. تحس كأنه يعلق حول عنقها سلسلة الزواج .. سلسلة الزفاف .. كأنها أصبحت له .. وهى سعيدة .. تريد أن تكون له ..

ومال يقبلها فوق جبينها ، ثم أخذ يطوف بشفتيه إلى أن وصل إلى شفتيها .. وأصابعه تنثر خصلات شعرها من فوق رأسها .. هذه هى المرة الأولى التى تلمس فيها شعرها أصابع رجل .. حتى زوجها لم يكن يحتاج إلى شعرها .. وعادل يصل بشفتيه إلى صدرها .. ثم يفك عنها أزرار قميصها .. وهى صامتة .. مستسلمة .. تحس فى كل لحظة بإحساس جديد لم تجربه من قبل .. كأنها لا تزال عذراء . وإحساسها يدفعها إلى أن تساعد عادل بلا تعمد فى كل ما يحاوله .. إلى أن أصبحت كلها عارية .. ليس فوق جسدها سوى هذه السلسلة الذهبية .. وكلها له .. وبلا تعمد بدأت دموع صامتة تنزلق من عينيها وتتهاوى فوق وجنتيها .. دموع الفرحة .. كأن كل دمعة زغرودة زفاف .. فرحتها بالوصول إلى القمة ..

القمة التى عاشت تحلم بها وتتمناها منذ صباها ..

* * *

وقامت ابنتها نوال من رقدتها فجأة ومدت ذراعها وشدت ستارة نافذة الطائرة وهى تصيح بكلماتها الإنجليزية :

— الشمس سطعت يا ماما ..

وقالت نجوى وهى هائمة فى سعادتها مع ذكرياتها :

— هذا صحيح .. صباح الخير ياحبيبتى .. هل تريدين دخول الحمام أم نطلب الإفطار ..

وقالت نوال فى ملل :

— كم بقى من الوقت ؟..

وقالت نجوى من خلال إحساسها بالسعادة :

— ثلاث ساعات على الأقل ..

وقالت نوال فى زهق :

— سأتناول الإفطار أولا ..

وعادت نيفين .. لقد كانت فى الحمام وليست مع الرجل الغريب .. وجلست وهى تأمر أمها فى حدة أن تطلب لها الإفطار .. وجاءها الرجل الغريب واقترب منها قائلا .. ألا نتناول الإفطار معا .. وردت عليه نيفين وهى تبتسم ابتسامة مفتعلة .. آسفة .. إنى سأتناول إفطارا عائليا ..

وابتسمت الأم ابتسامة واسعة .. هكذا هى نيفين .. كل علاقاتها مع الرجال علاقات طائرة .. إنها ليست كما كانت أمها فتاة عاطفية .. تغرق فى الحب بمجرد أن يمر بها ..

وأصابعها معلقة بالسلسلة الذهبية المعلقة فوق صدرها .. من يومها وهى لا ترفع أبدا هذه السلسلة من فوق صدرها ومن حول عنقها .. كل هذه الأعوام وهى تعيش مع هذه السلسلة .. وقد مرت عليها أيام تتساءل فيها .. لماذا كان عادل لا يأخذها قبل أن تتزوج ؟.. لماذا لم يحاول معها .. أن يستكمل كل ما يريده الرجل وما تنتظره المرأة ؟.. هل كان ينتظر أن تتزوج وتصبح امرأة كاملة حتى لا يحمل مسئوليتها وهى فتاة .. عذراء .. أم أنه كان متمسكا بحبه لخديجة وإخلاصه لها ثم بدأ هذا الإخلاص يذبل عندما بدأ هذا الحب يذوب ؟.. ثم لماذا أراد عادل أن يعلق لها هذه السلسلة بعد أن كان يرفض أن يراها فوق صدرها أى سلسلة ؟.. ربما لأنه مستسلم لحالة نفسية تفرض عليه ألا يقبل السلسلة إلا على الفتاة التى تكون له .. وهى من يومها تعتبر نفسها له ..

٤

كانت نجوى فى الطائرة قد انتهت مع ابنتيها من تناول طعام الإفطار ، وقامت نيفين تجوب بين الركاب إلى أن تعرفت بمجموعة من الفتيات المسافرات وجلست معهن ، ونوال كعادتها فتحت كتابا وبدأت تقرأ .. واهتزت الطائرة فى مطب هوائى ثم ما لبثت أن استقرت وهدأت فى مسيرتها .. ونجوى تعيش فوق السحاب من خلال نافذة الطائرة .. تعيش ذكرياتها ..

إنها تذكر أول يوم تركت فيه مصر فى طريقها إلى زوجها .. أول مرة فى حياتها تركب طائرة ورغم ذلك لم تكن خائفة ولا حائرة رغم أنها كانت وحدها مع ابنتها نيفين التى كانت قد تجاوزت العام الأول من عمرها .. وبالعكس لقد كانت يومها تحس بقوة عجيبة .. تحس كأنها بعد لقائها مع عادل قد استكملت كل شخصيتها .. لم يعد هناك ما ينقصها .. إنها من يومها إلى اليوم لم تشعر أبدا بأنها أخطأت عندما استسلمت بجسدها إلى عادل .. أو أنها خانت عفتها أو عفة زوجها .. أبدا لم تشعر أنها خانت زوجها محمود .. إنها تشعر بأنها أصبحت إنسانة كاملة .. حققت كل أحلامها .. ولم يكن من أحلامها أبدا أن تتزوج عادل .. إن ما بينها وبينه لم يكن يثير أبدا الأمل فى الزواج .. أو مجرد فكرة الزواج .. إنما كانت تحلم دائما به هو .. وربما كان هو أيضا يريدها منذ أن رآها أول مرة .. ولكنه كان حريصا على ألا يمزق حياتها ويضيع

مستقبلها فانتظر إلى أن تزوجت قبل أن يأخذها .. أو ربما كانت هذه هى مبادئه .. ما دام لن يتزوج فلا يرتبط إلا بالمتزوجات حتى يكون فى غنى عن الزواج .. إن عشيقته خديجة كانت أيضا متزوجة ..

وتعلقت أصابع نجوى بالسلسلة الذهبية المعلقة فوق صدرها .. السلسلة التى وضعها عادل فوق جسدها العارى وهو يأخذها ويعطيها نفسه ..

وعادت تستسلم لذكرياتها وبين شفتيها ابتسامة هادئة ..

كانت تعلم وهى تفارق مصر لأول مرة أن إبراهيم .. شقيق زوجها محمود سيستقبلها هى وابنتها فى مطار باريس .. وقد كانت تكره إبراهيم .. لا لم تكن تكرهه .. ولكنها كانت حائرة فيه .. فى تعمده المغالاة فى الجدية وهو يعاملها .. وكانت أحيانا تتهمه بالرجعية وضيق العقل .. وأحيانا تعتقد أنه يغار من أخيه عليها لأنها أجمل من زوجته وأصغر .. المهم أنها كانت لا ترتاح إليه بل تخافه حتى إنها صممت أن تترك البيت وتقيم مع أمها بعد أن هاجر زوجها حتى لا ينفرد إبراهيم بها كرب الأسرة .. ولكنها الآن بعد أن استكملت شخصيتها باستكمال حبها لعادل تحس الاستخفاف بإبراهيم .. تحس أنها تستطيع أن تكون أقوى منه .. تحس أنها امرأة كاملة فيها كل ما تحتاج إليه المرأة لفرض إرادتها ..

وفوجئت بإبراهيم يستقبلها فى المطار وهو فى شخصية أخرى غير الشخصية التى عرفته بها .. إنه فرح بلقائها .. وهو يضحك ويحادثها أحاديث مرحة منطلقة .. وحمل عنها ابنتها .. وقام عنها بكل إجراءات المطار وهى مندهشة من كل هذا الاهتمام وكل هذا التمادى فى مراضاتها ..

ثم وصلا إلى البيت الذى يقيم فيه فى باريس .. وأرقد ابنتها على الفراش ثم أمسك بيديها بين يديه وقال وهو ينظر إليها بكل عينيه نظرات كأنها نظرات جائعة :

— أوحشتنى ..

ثم مال عليها وقبلها على وجنتيها كأنه يهجم عليها ..

وتركته يقبلها فى برود وهى تردد :

— وأنت .. لقد أوحشتنا يا إبراهيم ..

ثم حاولت أن تبدأ الحديث عن أخبار زوجته التى تركها فى مصر وأخبار العائلة .. ولكنه لم يكن مهتما لا بزوجته ولا بالعائلة .. وعرض عليها بعد أن استراحا قليلا أن يخرجا ليطوف بها شوارع وحوانيت باريس .. وعاد يحمل ابنتها وخرجا إلى الشوارع .. وكان كريما على عكس ما عرفته عنه .. إنه يشترى لها ولابنتها أكثر مما كانت تنتظر .. ويقول ضاحكا :

— قولى لمحمود إن كل هذه المشتريات ستخصم من نصيبه فى الإيراد ..

ثم يعقب وهو ينظر إليها هذه النظرات الجائعة :

— لا تصدق فأنا أعتبر نفسى اليوم المسئول عنك .. واطلبى واشترى كما تريدين ..

وأخذها إلى مطعم لتناول الطعام وترك ابنتها معها وهو يرفع زجاجة النبيذ التى طلبها .. وهى دهشة .. لم يكن إبراهيم يشرب الخمر أبدا .. إنه مغال فى تدينه حتى أنه كان يفرض على زوجته وأولاده الصلاة . وقال وهو يصب لها كأسا :

— اشربى فى صحتك ..

وقالت وهى تبتسم فى ثقة :

— لم أتعود عليه ..

وقال ضاحكا :

— هذا نبيذ .. عصير العنب .. وعصير العنب فى باريس يوازى عصير الخروب فى مصر .. اشربى ..

وشربت .. إنها تريد تذوق النبيذ لأول مرة فى حياتها .. وكانت تشرب وهى واثقة من نفسها .. واثقة أنها فقط تجرب ولن تترك نفسها حتى تؤثر الخمر على وعيها واتزانها .. وملأ لها الكأس الثانية ولكنها لم تشربها وتركتها أمامها وهى تحاول أن تشغله بالحديث.. أى كلام.. وهو قد شرب الزجاجة كلها وبدأ يعبر عن نفسه بصراحة .. إنه يغازلها .. إنه يتغنى بجمالها .. إنه يقول إنه تمناها منذ أن كانت تخطب لأخيه محمود .. وهى لا ترفض هذا الكلام .. ولا تثور عليه .. ولكنها تضحك .. وتحول كل كلمة إلى نكتة ..

وأراد أن يحمل عنها ابنتها وهما فى طريق عودتهما إلى البيت .. ولكنها لم تطمئن .. قد يترنح سكران بعد أن شرب زجاجة النبيذ .. وتركها تحمل ابنتها .. ولكنه لا يترنح وليس سكران .. كأنه تعود على الخمر حتى لم يعد يتأثر بها .. وقالت له بعد أن دخلا البيت :

— اتركنى قليلا يا إبراهيم إلى أن أضع نيفين لتنام ..

وقال مبتسما وهو ينظر إليها هذه النظرة الجائعة :

— أنت تعلمين أن ليس فى الشقة إلا غرفة نوم واحدة ..

وقالت وهى تنظر إليه كأنه طفل كبير :

ـــ سأنام أنا ونيفين فى الصالة ..

قال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة كأنه يحرضها :

ـــ لا .. ضعى نيفين فى السرير .. ولنستسلم أنا وأنت لما يمكن أن يحدث .. ولكن لا تنسى أنى سآخذك لترى باريس فى الليل بعد أن تنام نيفين ..

وابتسمت له فى مرح ..

إنها فعلا تريد أن ترى باريس فى الليل ..

وقالت وهى تتكلم فى بساطة وتغلق باب حجرة النوم :

ـــ لا تدخل إلا بعد أن تنام نيفين ..

وقال وهو ينظر إليها كأنه يبحث من أين يأخذها :

ـــ لقد غبت عنى شهورا .. وسأحتمل أن تغيبى عنى دقائق ..

وأغلقت الباب بالمفتاح .. وبقيت مع نيفين إلى أن نامت .. ثم استراحت قليلا وهى تبتسم بشماتة فى إبراهيم .. لقد انهار أخيرا .. كشف عن نفسه .. وهى ليست دهشة لأنه يريدها .. لقد ارتفعت ثقتها بنفسها بعد أن نامت مع عادل حتى بدأت تفترض أن كل الرجال يريدونها حتى لو كان من بينهم شقيق زوجها .. ثم قامت وبدلت ثيابها وفتحت باب الغرفة وخرجت إليه .. ونظر إليها كأنه مبهور بإغرائها .. وبأنوثتها .. وقال فى عجلة :

ـــ انتظرينى دقيقتين ..

وجرى إلى غرفة النوم وهى تقول :

ـــ إياك أن توقظ نيفين ..

وعاد إليها بعد دقائق وقد ارتدى حلة أخرى أنيقة .. وقال وهو يخرج

بها إلى الشارع :

ـــ إنى متأكد أنى سأرى باريس وأنا معك غير ما كنت أراها وأنا وحدى ..

وطاف بها ملاهى الليل .. رأت فى باريس ما كانت تقرأ وتسمع عنها .. وكانت سعيدة .. ولكن إبراهيم كان يشرب الكثير من الخمر .. وبدأ يتجرأ أكثر .. أنه يضغط على يدها .. ويتحسس كتفيها .. ويحتضنها كلما استطاع .. وهو يعرض عليها أن ترقص معه .. إبراهيم يرقص ؟.. مستحيل .. ولكنه يلح عليها أن ترقص معه .. وهى تعتذر .. وتحاول طوال الوقت أن تقنعه بأنها لا تحس بشىء غريب فى كل تصرفاته .. إنه أخ .. كل ما يفعله هو مجرد إحساس الأخ بالشوق لأخته .. حتى وهو يضغط على يدها ويتحسس كل ما يكشف عنه ثوبها .. وهى مع شدانتها فيه لا تفقد الثقة بنفسها .. إلى أن عادا إلى البيت ..

وما كاد يغلق الباب وراءه حتى جذبها إلى صدره واحتضنها وهم أن يقبلها على شفتيها ، فقالت وهى تفلت من بين ذراعيه :

ـــ ماذا تفعل يا مجنون ؟

وقال وهو يقترب منها :

ـــ أنا طول عمرى مجنون بك ..

قالت وهى تبتعد عنه :

ـــ إنك إنسان آخر غير إبراهيم الذى أعرفه ..

قال وهو يمد ذراعيه إليها :

ـــ إنه إنسان عرفتيه فى مصر .. والإنسان داخل الحدود غير الإنسان

خارج الحدود .. ونحن الآن خارج الحدود .. كل ما نحرم أنفسنا منه فى مصر مباح لنا خارج مصر .. تعالى ..

قالت وهى تجرى منه دون أن تثور :

ـــ ألا تحسب حساب أخيك محمود ؟..

قال وهو لا يزال يتتبعها :

ـــ أنا ومحمود واحد .. كل ما للأخ لأخيه .. أريد أن أسعد بك كما سعد بك محمود ..

قالت وهى تضحك :

ـــ إذن انتظرنى دقائق .. ثم نتفاهم .. ودخلت إلى غرفة النوم وأغلقت بابها بالمفتاح .. وخلعت ثوبها وارتدت قميص النوم وهى تبتسم شماتة فى إبراهيم .. لقد أصبح الآن ملكها .. لن يستطيع أن يخيفها كما كان يخيفها فى مصر .. وخرجت بقميص النوم ودخلت إلى الحمام لتغسل أسنانها كما تعودت قبل النوم .. ورأته يدخل غرفة النوم .. لا بد أنه دخل ليبدل ثيابه .. وقالت وهى فى الحمام :

ـــ إياك أن توقظ نيفين ..

وفوجئت به وقد عاد إليها فى الحمام .. إنه عار إلا من قطعة واحدة من ثيابه الداخلية .. وهى أمام مرآة الحمام تغسل أسنانها ، وجسدها يبرق من تحت قميص النوم وشعرها مسدل بكامله على كتفيها .. وصرخت فيه :

ـــ ما هذا يا مجنون ؟.. اخرج من هنا ..

وقال وهو يهجم عليها :

ـــ تعالى للمجنون ..

قالت وهى تفلت منه :

ـــ إننا فى الحمام يا إبراهيم .. مستحيل ! إن الهدوء أجمل من الجنون .. انتظرنى فى الخارج سألحق بك ..

وقبل أن يرد عليها كانت قد أفلتت منه ودخلت غرفة النوم وأغلقت الباب وراءها بالمفتاح . وأخذ يضرب بيده على الباب فى عنف ..

وقالت وهى تبتلع ضحكتها :

ـــ أرجوك يا إبراهيم لا توقظ نيفين .. وأنا لا أريد .. لا أستطيع .. تصبح على خير ..

وتركته ملطوعا على الباب برهة وهو يتكلم كأنه يعوى ..

وعندما فتحت الباب فى الصباح وجدته نائما على الأرض تحت باب غرفة النوم ..

وقام منتفضا من نومه .. ونظر إليها نظرة خاطفة .. ثم قال فى لهجة جدية :

ـــ يجب أن نترك البيت فى الساعة السابعة حتى نلحق بالطائرة ..

وعاد كما عرفته فى مصر .. جافا .. ثقيل الدم .. يحاول أن يكون رب الأسرة الذى ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف .. وتحملته وهى تستخف به .. شامتة فيه .. انتهى إبراهيم .. إنها الآن أقوى منه .. ولعله أحس بما تحس به فلم يبادلها نظرة واحدة .. وأوصلها إلى المطار دون أن ينطلق فى الكلام كما كان عندما استقبلها .. ودون أن يحمل عنها ابنتها ..

وقبل أن تركب الطائرة مد يده يصافحها فى برود قائلا :

ـــ سلامى إلى أخى محمود ..

وظلت ابتسامتها الساخرة التى تفيض بالشماتة فى إبراهيم عالقة بين شفتيها حتى وصلت إلى كندا .

٥

كانت نجوى منذ وصلت كندا وكلمة عادل تتردد فى أذنيها .. إذا هاجرت إلى بلد آخر فيجب أن تكونى هناك شخصية أخرى .. نجوى أخرى .. وهى تحس فعلا أنها فى حاجة لأن تكون شخصية أخرى .. حتى زوجها محمود .. لقد وجدته شخصا أخر .. أكثر جدية .. أو أكثر انهماكا فى العمل .. إنه يعيش العمل أربعا وعشرين ساعة فى اليوم .. حتى عندما ينام يخيل إليها أنه يغمض عينيه على مشروعاته فى العمل .. وقد أحست أنه أصبح فى حاجة أكثر إليها عما كان فى مصر .. لا يعاملها كطفلة .. ولا يتجاهلها .. إنما يعتمد عليها ويحمّلها المسئولية ..

وقد وجدت منذ وصلت أنه اشترى فيلا كاملة خارج المدينة فرحت بها .. ولكنها كبيرة .. سبع حجرات وحولها حديقة واسعة .. والثلج يتساقط عليها .. كيف ستحتمل وحدها مسئولية هذا البيت الكبير ؟.. ولكنها مع الأيام بدأت تتعلم وتتعود .. كانت تقوم فى الصباح وتحمل جاروفاً وتخرج لترفع الثلج من أمام باب البيت ومن أمام الجراج حتى تستطيع أن تخرج ويخرج زوجها بسيارته .. وكانت تقوم بأعمال البيت طوال النهار بجانب رعايتها لابنتها .. طوال النهار مشغولة .. وقد عرفت فيما بعد كيف تتفق مع شغالة تأتى إليها يومين فى الأسبوع لمساعدتها فى تنظيف وإعداد البيت .. وفى اليوم تعمل الشغالة أربع ساعات .. الساعة

خمسة دولارات .. وزوجها يدفع .. وقد عرفها زوجها بالحوانيت القريبة واشترى لها سيارة وأصبحت تخرج كل يوم وتقود سيارتها وتطوف بالحوانيت لتشترى .. ولم تسأل زوجها كيف حصل على ثمن السيارة التى اشتراها لها .. ولا على ثمن الفيلا .. وإن كانت قد عرفت أن كل شىء هناك يشترى بالتقسيط .. وهى تعلم أن محمود موظف فى إحدى الشركات .. لا شك أن مرتبه كبير .. ولكن مهما بلغ مرتبه فلا شك أنه يعمل فى أعمال أخرى .. لا شك أنه يغامر كما كان يغامر فى مصر .. ولكنه لا يقول لها شيئاً عن مغامراته .. وهى لا تسأل .. إنما تعتمد على التخمين الذى يثور فى عقلها مع كل كلمة يقولها وهو يتحدث إليها .. لعله يساهم فى محل تجارى كما كان يساهم فى مصنع الألبان فى مصر .. لعله يضارب فى البورصة .. إن كندا لم تغير من شخصيته إلى حد أن يصبح صريحا بسيطا معها إلى حد أن تعرفه كله ..

ورغم هذه الحياة الجديدة التى تعيشها .. ورغم أنها تحس بشخصيتها تتغير .. إلا أنها لم تنس أبداً عادل .. كانت دائما تعيش معه بخيالها كما كانت وهى طفلة صغيرة وكل ما بينهما خيال .. وكان قد مضى شهر على وصولها إلى كندا عندما جلست تكتب له خطابا طويلا تروى له فيه كل شىء ما عدا طبعا ما حدث بينها وبين إبراهيم شقيق زوجها .. وكان الخطاب يحمل اعترافا كاملا بالحب .. إنها تحبه .. وستبقى العمر كله وهى تحبه حتى لو فصلت بينهما البحار والمحيطات .. وقد مضى شهر دون أن يرد على خطابها .. ربما راعى أنها زوجة وخاف أن يقع خطابه أمام عينى زوجها .. وجلست تكتب له خطابا ثانيا بعد أن ذهبت إلى مكتب البريد وحجزت لنفسها صندوقا خاصاً .. وأرادت أن يرد عليها

بعنوان صندوق البريد حتى لا يخشى أن يقع خطابه فى يد زوجها .. ولكنه لم يكتب لها .. وابتسمت فى حسرة .. هذه هى طبيعة عادل .. إنه يعيش الواقع ولا يستطيع أن يعيش الخيال .. وربما يخاف أن يؤثر عليها بخطاباته فتطلق حبها وخيالها إلى حد أن تترك زوجها وتعود إليه فى مصر .. إنه يحميها من حبها .. ورغم ذلك فهى ترتاح وهى تكتب له حتى ولو لم يرد عليها .. تعيش لحظات فى حبها وخيالها الذى لا يريد أن يكبر ولا أن يتغير .. ومهما تباعدت الشهور فهى تجد نفسها تجلس وتكتب له ..

وهى تذكر منذ وصلت كندا وإحساسها بزوجها لم يتغير .. إنهما زوج وزوجة .. هذا هو كل شيء .. وهذا ما يحكم كل حياتهما معا حتى عندما ينام معها ويأخذها .. إنها تعطيه جسدها كأنها تدفع فاتورة حساب البقال .. تؤدى ما عليها .. دون أن تحس بمتعة الجسد .. إنها أبداً لم تحس بالمتعة مع محمود .. وربما هو نفسه لا يحاول أن يثير متعتها .. إنه ينام معها كأنه يؤدى تمريناً رياضياً تفرضه عليه طبيعته أو تفرضه عليه الواجبات الزوجية .. إلى أن وجدت نفسها مرة وزوجها فوق جسدها تغمض عينيها وتضم السلسلة الذهبية بين أصابعها وتتخيل عادل .. أن عادل هو النائم معها . هكذا كان يتحسسها .. وهكذا كان يقبلها .. وكل خلجة من خلجاتها تحس بها كما كانت تحس بها وهى فى أحضان عادل .. وأحست فعلا بمتعة .. منتهى المتعة .. وكانت سعيدة بمتعتها حتى بعد أن فتحت عينيها ورأت فوقها وجه محمود لا وجه عادل .. ومن يومها وهى تحاول دائما نفس المحاولة كلما نامت مع زوجها .. وأحياناً تستطيع وأحياناً لا تستطيع .. والسلسلة الذهبية معلقة دائماً

فوق جسدها ..

والأيام تمر ..

وقد بدأ الفراغ والملل يزحفان عليها .. إنها تحس بوحدة كاملة فى هذا البلد .. زوجها يخرج فى السابعة صباحا ولا يعود إليها إلا فى السابعة مساء .. ويعود ليأكل ثم يتفرغ لقراءة كتب ونشرات يحتاج إليها فى عمله .. إنها وحيدة حتى معه .. وابنتها نيفين لم تعد تكفى لتخفيف هذه الوحدة .. وليس لها صديقات .. إن هذا البلد لا يعترف بالصداقة التى تعيشها فى مصر .. كل ما بين الناس حتى الجيران هو تبادل الخدمات .. والخدمات مدفوعة الثمن .. وكانت دائما تحاول أن تشغل وقتها وقد اكتشفت أن هناك نوادى خاصة لتحسيس النساء وصيانة قوامهن فذهبت إلى أحد هذه النوادى .. إنهم يعالجون النساء بالرقص .. لا شيء إلا الرقص .. وتعجبت لأن كل الزبائن من النساء العجائز اللاتى تركن أعمالهن بحكم السن وأصبحن يذهبن إلى النادى للرقص وتمضية أوقات الفراغ .. ولكن الرقص هو أيضاً علاج رياضى .. فبدأت تذهب إلى النادى فى الصباح لترقص ولكنها بعد بضعة أيام زهقت من هذا الرقص خصوصا أنها كانت ترقص وحيدة .. كل امرأة ترقص وحدها .. كما بدأت تحس أنها وضعت نفسها فى مستوى العجائز وإحساس العجائز فانقطعت عن التردد على هذا النادى وعن الرقص .. واكتشفت أن هناك بيوتا لتعليم فن الطهو .. وتقدمت لتتعلم الطهو .. إن أهم الأطعمة التى يدرس طهوها فى كندا بل فى أمريكا كلها هى الأطعمة الفرنسية .. إن فرنسا هناك هى قائدة فن الأطعمة كما أنها قائدة فن الأزياء .. وتعلمت طهو ثلاثة أصناف من الأطعمة الفرنسية ثم زهقت ..

وأخيراً قررت نجوى أن تخفف من وحدتها بأن تنجب مولودها الثانى ..

وحملت ..

وقالت لزوجها وهى تغريه بابتسامتها :

ــ أفضل أن ألد فى مصر .. على الأقل ستكون أمى بجانبى ..

وهاج محمود :

ــ أبداً .. أريد أن تلدى هنا .. إن كل شىء هنا أرقى وأحسن .. وأريد لابنى أن يولد فى كندا حتى يكون كنديا بمجرد أن يفتح عينيه .. واذا احتجت لماما أرسلى إليها لتأتى وتقيم معك هنا ..

ولم ترسل تدعو أمها .. إن أمها لن تحتمل الحياة فى كندا .. لن تستطيع أن تكون شخصية جديدة تحتمل هذا المجتمع الجديد .. وستكون عبئا عليها .. ستنغص عليها حياتها ..

وأنجبت فى كندا .. نوال .. دائما حرف النون .. نجوى .. نيفين .. نوال ..

وبدأت تعانى الإرهاق وهى وحدها مسئولة عن هذا البيت الكبير .. وعن الحديقة .. وعن رفع الثلوج من أمام الباب .. وعن نيفين ونوال .. لعل من الأفضل أن تدعو أمها لتقيم معها لتساعدها على الأقل فى تربية البنتين ..

وأرسلت إليها تلح فى أن تأتى إليها .. بل إنها كانت تدعى المرض حتى تثير عطف أمها فتحتمل السفر إليها ..

وجاءت الأم ..

وأحست نجوى كأنها هى التى عادت إلى مصر .. كأن أمها نقلت

مصر كلها معها حتى أصبح البيت كله كأنه فى مصر .. وهى لا تخرج من البيت ولا تحاول أن ترى شيئا من البلد الذى جاءت إليه .. وتقضى اليوم كله وهى ترفض كل شىء جديد عليها .. لا تريد أن تغير شيئا من حياتها .. ولا تحاول أن تتأقلم فى المجتمع الجديد .. وقد حملت الأم كل مسئولة البنتين .. نيفين ونوال .. ولم تكن تنتظر أن تطلب منها نجوى شيئا .. إنها هى ست البيت .. هى التى تقرر وتفرض إرادتها .. واستسلمت نجوى كعادتها ..

وأقنعت نفسها بأن أمها حملت عنها كثيرا من متاعب البيت .. أصبحت أهم مسئوليتها هى أن تذهب إلى السوق وتشترى .. وأصبحت تطيل بقاءها بين الدكاكين حتى تملأ الفراغ الذى بدأ يسيطر على أيامها .. الفراغ والوحدة والضياع وهى تبحث لنفسها عن شخصية جديدة .. وأمها التى تربطها بمصر وتجعل من الصعب عليها أن تنقل نفسها لتعيش الحياة فى كندا .. وبدأت تتعذب .. والزهق يفترسها حتى تحس أحيانا بعضلات صدرها تضيق إلى حد أن تكتم أنفاسها .. لا شك أنها فى حاجة إلى علاج .. علاج من طبيب نفسانى .. معظم المهاجرات تصيبهن نفس الحالة ويلجأن مستغيثات إلى الأطباء النفسانيين حتى أصبحت عيادات هؤلاء الأطباء كالمقاهى تذهب إليها النساء ليرتحن بتبادل الأحاديث .. ولكنها كانت ترفض بينها وبين نفسها الذهاب إلى طبيب ، وكانت عندما تشتد بها أزمة الزهق تجلس وتكتب لعادل .. كأن عادل أصبح الطبيب الذى تلجأ إليه حتى وهى تعلم أنه لا يجيب على خطاباتها .. ولكنها كانت تكتب إليه وهى تتخيله كأنها تسمع صوته وهو يخفف عنها ويحل لها كل مشاكلها ..

ولكن هذا لم يعد يكفى .. لماذا لا تعمل ؟.. إنها لا يمكن أن تستمر فى هذا الفراغ .. وقد دخلت ابنتاها مدرسة الحضانة .. وأمها تتولى كل أعمال البيت .. فلماذا لا تعمل .. وتكسب ؟..

ووافق زوجها محمود بمجرد أن عرضت عليه الفكرة .. وأخذها إلى فصول لتتعلم اللغة الإنجليزية التى كانت قد بدأت تتعود على ترديدها .. وبدأت تتعلم أيضا الكتابه على الآلة الكاتبة .. والاختزال .. بل إنها بدأت تتلقى دروسا فى علوم الحساب .. وحياتها تنتعش .. وحماسها للوصول إلى القدرة على العمل يملأ كل حياتها ويأخذها من الزهق والضيق حتى إنه مر عام دون أن تكتب خطابا لعادل .. ليست فى حاجة لأن تكتب له ..

إلى أن فوجئت وهى على وشك أن تنتهى من دراستها .. فوجئت بزوجها محمود يعود إليها ليقول لها فى بساطة إنه مضطر أن يبيع الفيلا الكبيرة التى يقيمون فيها .. لقد خسر فى إحدى عمليات البورصة ويجب أن يصفى حساباته .. ودون أن يتغير منه شىء باع الفيلا وانتقل بهم إلى شقة صغيرة فى إحدى عمارات المدينة .. كل ذلك دون أن يهتز .. إنه تعود على المغامرات .. متعود على المكسب والخسارة .. وهى مستسلمة .. وأمها تلعن ساخطة وتهدد بالعودة إلى مصر ..

وفى أيام استطاع محمود أن يصل إلى وظيفة أكبر فى إحدى الشركات ليحصل على مرتب أكبر يعينهم على الاحتفاظ بمستوى الحياة التى تعودوا عليها .. وفى أيام أيضاً استطاع أن يجد لها وظيفة كاتبة حسابات فى إحدى الشركات حتى يصبح مرتبها جزءا من دخل العائلة .. إن محمود شاطر .. لا يستسلم أبداً للخسارة ..

وقد تقدمت نجوى بسرعة فى عملها .. ربما لم يكن الذكاء وحده هو السبب فى تقدمها .. إن رئيس القسم الذى تعمل فيه له فضل كبير فى تقدمها وفى حصولها على العلاوات التى تضاف إلى مرتبها .. إنه معجب بها .. وهو فى حوالى الثامنة والثلاثين من عمره .. عائلته من أصل إنجليزى .. وهو ليس جميلا ولكنه وسيم وإن كان قصير القامة .. أقصر منها .. وهى سعيدة بإعجابه .. إنه إعجاب يثير فيها كل ثقتها بنفسها كامرأة .. إنها تستطيع دائما أن تسيطر على الرجال .. ولكن إعجاب « كيرك » بها كان له لون عجيب . إنه إعجاب بارد لا طعم له فهو لا يعبر عن هذا الإعجاب ولا يبذل مجهودا فى استمالتها إليه ولا تتردد فيه عاطفة .. إنه لا يقول لها كلمة واحدة كأنه إعجاب قائم على علم الحساب .. مقاييس جسدها وأطوال شعرها ولون عينيها وخطوط ابتسامتها .. وقد بدأ يدعوها إلى تناول الغداء فى الساعة التى تفصل بين ساعات العمل .. لا إنها ليست دعوة إنها مجرد مصاحبة فهو لا يدفع لها ثمن ما تطلبه .. كل منهما يدفع لنفسه .. لا يهم .. هذه هى تقاليد الزمالة فى كندا .. وكان غالبا ما يصحبها بعد انتهاء العمل ويسير معها فى الشوارع إلى أن يتركها تعود إلى بيتها .. وكان بلا تعمد وبلا افتعال يمسك بيدها فى يده وهو سائر معها .. وكانت لا تمانع .. إنها تزداد ثقة بنفسها وهو فى حاجة إلى يدها فى يده ..

إلى أن سار « كيرك » معها مرة متجهاً إلى سيارته وفتح الباب ودخل وهو فى انتظار أن تدخل من الباب الآخر دون دعوة ، وقالت وهى واقفة فى تردد :

ـــ إلى أين يا كيرك ؟..

وقال فى صوت طبيعى :

— إلى بيتى لن نبقى أكثر من نصف ساعة . لن تتأخرى عن موعد عودتك ..

قالت وهى تفهم ولكنها تتهرب من فهمها :

— لماذا ؟

ونظر إليها فى دهشة كأنه يتعجب لسؤالها ثم قال فى بساطة :

— لننام معا ..

وكانت تعرف ما يريده ولذلك لم تتظاهر بالمفاجأة .. إن هذا لا يعتبر من المفاجآت بالنسبة للنساء فى كندا ، وقالت وهى تبتسم :

— لا يا كيرك لا أريد .. على الأصح لا أستطيع . لننتظر يوما آخر ..

وقال بلا افتعال :

— كما تريدين . وإلى الغد .. باى باى ..

وانطلق بسيارته وتركها واقفة حائرة .. لقد مضت الآن عشر سنوات وهى تعيش هذا المجتمع الجديد وتحاول بناء شخصيتها الجديدة وهذا المجتمع يفهم الجنس كما لا يفهمه مجتمعها القديم فى مصر .. إن الجنس مجرد لقاء بين اثنين رجل وامرأة .. ذكر وأنثى .. ولا يتطلب أى شروط أو قيود خاصة إلا إرادة الاثنين فى تحقيق هذا اللقاء .. إنهما كما يلتقيان فى مقهى أو يلتقيان فى رقصة على أنغام موسيقى .. يلتقيان فى الفراش . فلماذا لا تعيش بشخصيتها الجديدة هذا المجتمع الجديد ؟.. إنها لا تريد أن تنام مع كيرك ! إنها تفهم أن النوم مع رجل لا يمكن أن يدفعها إليه إلا الزواج أو الحب .. وهى ليست زوجة لكيرك ولا تحبه هذا الحب

ولكنها ترتاح إليه . ثم إنه رئيسها فى العمل ويضمن لها مزيدا من العلاوات فلماذ تبخل عليه ولماذا لا تعطيه أكثر لتحتفظ به أكثر .. لماذا لا ؟.. هل هى متأثرة بالمبادىء القديمة التى تفرض الإخلاص للزوج .. ولكنها لم تكن مخلصة لزوجها . إن الإخلاص هو الإخلاص فى الحياة لا الإخلاص الذى ينحصر فى الجسد .. ربما كانت مختلفة فى حبها لعادل ، ولكن عادل أوصاها بأن تكون نجوى أخرى .. أن تخلق لنفسها شخصية جديدة تتأقلم مع هذا المجتمع وهو مجتمع يفرض على الشخصية أن تكون واقعية عملية .. لا تتعلق بما يبعدها عن مطالب الحياة .. ثم إن عادل هو مجرد خيال يسيطر على عواطفها .. فلتحتفظ بخيالها لعادل وتعيش الواقع الذى يفرضه عليها المجتمع الجديد .

وفى صباح اليوم التالى استقبلها كيرك كعادته وكأنها لم تبخل عليه بشىء ، وكأنه لم يحرم من شىء كان يريده .. وعاد يتناول معها طعام الغداء ويسير معها فى الشارع بعد انتهاء مواعيد العمل .. ومرت أسابيع قبل أن يسير بها مرة ثانية إلى سيارته ويدخل . وترددت لحظة خاطفة ثم خطت حول السيارة وجلست بجانبه .

وخيل إليها بعد أن أصبحا فى البيت أنه يطبق قواعد علم الحساب .. كل شىء له رقم فى مكانه الصحيح .. وتبادلا كأسا من الكونياك ثم أخذها بين ذراعيه وهو يتكلم عن تأثير قصة ألف ليلة وليلة عليه .. إنها شرقية .. إنها جارية من جوارى ألف ليلة وليلة .

وهى مستسلمة فى ابتسامة مفتعلة ، وقبل أن يميل بها أفاقت من استسلامها وقالت من خلال ابتسامتها :

— لحظة ..

يترك مكانه الذى تعودت عليه لصديقه دوجلاس بجانبها ملتصقا بها .. وبعد الكلمات المتبادلة السخيفة قال كيرك لصديقه وهو يضع كأسه كأنه يهم أن ينصرف :

ــ سأتركها لك ..

ثم التفت إلى نجوى قائلا وهو يضحك :

ــ دعيه يتمتع بليلة من ليالى ألف ليلة ..

إنه يريدها أن تنام مع صديقه .. مجرد تبادل خدمات ..

وأحست بدمائها تغلى فى عروقها وتتجمع كالبركان الثائر فى رأسها تكاد تغمى عينيها .. وقفزت منطورة من جلستها وجرت إلى الباب وهى تصيح :

ــ لا .. لا يمكن ..

وخرجت دون أن تنظر إليهما وهما يتتبعانها فى دهشة .. ربما اعتبراها مجنونة .

وطافت بالشوارع قبل أن تركب سيارتها وهى تضرب الأرض بقدميها تحاول أن تهدىء هذه الدماء الثائرة فى عروقها .. إنها لا تستطيع أن تصل إلى هذا الحد .. يجب أن تقاوم هذا المجتمع الجديد الذى تعيش فيه وهذه الشخصية الجديدة التى تحاول أن تخلقها لنفسها .. ستكف عن العمل .. ستتفرغ لبيتها وابنتها وتعود كما كانت فى مصر .. وهى لم تعد فى حاجة إلى الكسب أو إلى مرتب يرفع من دخل العائلة .. فقد عاد زوجها محمود إلى مغامرة جديدة ناجحة وعرفت من كلماته أنه ساهم فى افتتاح مطعم شرقى يدر أرباحاً خيالية وقد اشترى شقة جديدة واسعة فى أرقى أحياء المدينة .. وقد كان يريد أن يشترى فيلا خارج المدينة كالفيلا

التى كانا يقيمان فيها ولكن هى التى أقنعته بأن يشترى شقة .. هذا أسهل عليها وأقرب إلى مكان العمل .. وزوجها ليس فى حاجة الآن ليضم مرتبها إلى دخل العائلة .. لقد تركه لها كله لتدخره وهى تملك اليوم حسابا كبيرا فى دفاتر الادخار بالبنك .

فلماذا تعمل ..

ووافق زوجها على مضض بأن تتفرغ للبيت .

وقد مضت شهور طويلة وهى فى بيتها مع ابنتها ومع أمها ، ولكن الزهق والفراغ بدآ يزحفان عليها من جديد . وقد عادت تكثر من كتابة الخطابات لعادل .. الخطابات التى لا تتلقى عليها ردا ولكنها مجرد علاج نفسى كأنها تخاطب نفسها أمام الطبيب .. ولكن مع الأيام لم يعد هذا العلاج يجدى والزهق والفراغ يسيطران عليها وعضلات صدرها عادت تتقلص وتكتم أنفاسها وتصيبها حالات كأنها على وشك أن تختنق .. لماذا لا تعود إلى العمل ؟

إن العمل فى هذه المجتمعات ليس مجرد اضطرار للكسب .. إن العمل هو من طبيعة المجتمع .. كل من فيه يعمل حتى الصبى والصبية ومن لا يعمل يضيع ويدفعه الفراغ والزهق إلى الانتحار أو الانحلال إلى حد الانتحار ..

واستطاعت أن تجد عملا فى شركة أخرى غير التى تعمل فيها ، وبدأت وهى مصممة تصميما حازما على ألا تستسلم بجسدها لأى رئيس ولا لأى رجل ..

يكفيها خيالها الذى يجمعها بعادل .

* * *

واتسعت الابتسامة الضعيفة المسكينة بين شفتى نجوى وهى مطلة من خلال نافذة الطائرة فوق السحاب .. لقد تعذبت كثيرا فى كندا ..

ولكن ..

هناك ما هو أكثر من ذلك ..

إن ما ألقاها فى قمة العذاب هو جنون ابنتها نيفين ..

لقد هربت نيفين من البيت ..

شبت نجوى برأسها تبحث عن ابنتها نيفين كأنها كانت تخشى أن تكون قد هربت من الطائرة كما سبق وهربت من البيت ..

٦

عندما وصلت نجوى إلى كندا لأول مرة ومعها ابنتها نيفين التى لم تكن قد تجاوزت العام الأول من عمرها إلا بعدة شهور . لم تفكر فيما يمكن أن تكون عليه ابنتها وهى تكبر فى مجتمع جديد غريب . لقد قال لها عادل قبل أن تترك مصر إن من يهاجر من بلده إلى بلد آخر يجب أن يهاجر أيضا من شخصيته إلى شخصية أخرى .. وقد كانت تحسب حساب هذه الكلمة وتطبقها بالنسبة لنفسها ولكن هذه الكلمة لم تشغل بالها بالنسبة لابنتها ..

إن ابنتها ليست فى حاجة إلى تغيير شخصيتها لأن هذه الشخصية لم تتكون بعد وستتكون فى هذا المجتمع الجديد .. و لم تكن تفكر فيما يمكن أن تكون عليه شخصية ابنتها بعد أن تكبر .. المهم أنها انتقلت إلى مجتمع أرق وأقدر على تربية الطفل .. إن كل ما يحتاج إليه الطفل تجده هنا فى بساطة وسهولة .. إن الدولة تعتبر نفسها مسئولة عن الطفل ، بل إن المجتمع كله يفرح بالطفل . وهى تذكر أنها عندما كانت تخرج إلى السوق وهى تحمل ابنتها كان كل من يمر بها يبتسم لنيفين ويدللها .. وقد تقف مع أم أخرى تحمل هى الأخرى طفلها وتتبادل معها الحديث حول الأطفال لمجرد أن كلا منهما أم لطفل .. و لم يتغير شىء فى إحساس نجوى بعد أن أنجبت ابنتها نوال .. إنها بينها وبين نفسها تحس بفرحة لأنها أم لابنتين نشأتا فى مجتمع أرقى من مجتمع مصر .. إنها تستطيع أن تتفاخر

على كل أقاربها وكل صديقاتها فى مصر بأنها أم لابنتين كنديتين .. من أمريكا .. خواجات .. ولكن .. بدأ القلق يزحف على فكر نجوى بعد أن كبرت البنتان وأدخلتهما مدارس الأطفال .. تنبهت إلى أن هذه المدارس لا تدرس الإسلام .. بل لا تدرس أى دين .. إنهم يتجاهلون فى التدريس حتى ذكر الله .. ربما كانت مناهج التعليم فى هذا المجتمع تفرض تنشئة الأجيال على الإلحاد .. ليس هناك الله .. وليس هناك دين .. أو ربما كان هذا المجتمع يفترض أن العلاقة بين الإنسان والله هى علاقة شخصية خاصة .. كل فرد حر فى اكتشاف الله وفى الإيمان والارتباط به .. كل فرد إذا آمن بوجود الله حر فى اختيار طريق إيمانه .. حر فى أن يكون مسيحيا أو مسلما أو يهوديا أو هندوكيا أو أى شىء يخطر على باله .. فليس من حق المجتمع أن يفرض إيمانا وتعاليم محددة على كل البشر .. إن من حق المجتمع أن يفرض القوانين التى تنظم التعامل وتكفل الحماية والاطمئنان لكل الأفراد ، ولكن القوانين شىء آخر غير الأديان ..

ورفضت نجوى هذا الوضع .. إنها تريد لكل بنت من ابنتيها أن تكبر وتعيش وهى تعلم أنها مسلمة تؤمن بالله وتخافه .. وتصلى وتصوم .. صحيح أنها هى نفسها لم تكن متمسكة بكل تعاليم الإسلام .. وهى تعترف أنها تحدت هذه التعاليم وهى طفلة وبعد أن كبرت .. بل إن كل ما جرى بينها وبين عادل لا يقره الإسلام .. ولكن الدين والإيمان بالله ليس مجرد تعاليم ولكنه أساس من أسس الشخصية .. إن أحد أسس شخصيتها أنها مسلمة .. وإذا كانت قد أخطأت فإن إيمانها كان يفرض عليها أن تعرف أن ما تفعله خطأ وكان الخوف من الله يخفف

من التمادى فى هذا الخطأ .. المهم .. ماذا تريد لكل بنت ؟.. هل تريد لها أن تكون مسلمة أم تتركها تنشأ بلا دين وبلا إله .. وبلا نبى ؟.. إنها قطعا تريد أن تنشأ كل بنت وهى مسلمة مؤمنة بالله .. وبدأت تحدث البنتين كثيرا عن الإسلام .. وتروى لهما القصص الدينية .. وتحدثهما بكل ما تحفظه من سيرة النبى محمد .. بل إنها تعمدت أن تعلمهما الصلاة رغم أنها لا هى ولا زوجها ولا أمها كانوا يصلون .. ثم بدأت تتظاهر أمامهما بصوم شهر رمضان والاحتفال بالعيد الصغير والعيد الكبير ..

وكانت نيفين تجادل دائما .. وتسأل .. بينما نوال تسمع دون أن تتكلم ولا يبدو عليها أنها تهتم بما تسمعه .. بل إن نيفين حملت الموضوع مرة إلى المدرسة وفاجأت إحدى المدرسات وهى تسألها :

ـ ما هو الله ؟

وقالت المدرسة بعد أن فكرت برهة تحررت خلالها من المفاجأة :

ـ لا أدرى ما هو الله .. إن هناك من يؤمن بأن الله موجود وأنه هو الذى خلق الكون .. وهناك من يعتقد أنه ليس هناك ما يسمى الله وأن الكون تكوَّن من تفاعل الذرات النووية .. واختارى أنت بنفسك بين الرأيين ..

ولم تتعمد نيفين الاهتمام بموضوع الدين والإيمان بالله بل كانت تطلق نفسها لأحاسيسها ..

وكانت نجوى تكرر على نيفين وهى تدللها :

ـ عندما تكبرين ستتزوجين ولن تتزوجى إلا شابا مسلما ..

وتسأل نيفين :

ـ لماذا مسلم ؟

وتقول نجوى ضاحكة :

— حتى تدخلى الجنة .. لا تدخل الجنة إلا من تتزوج مسلما ..

ولكن نجوى بعد سنوات وبعد أن أصبحت نيفين أكثر وعيا و لم يعد الإغراء بدخول الجنة كافيا للإقناع كانت تقول لها :

— يجب أن تتزوجى من مسلم حتى تحتفظى بأولادك .. أنت مسلمة وأولادك مسلمون ولن يكونوا مسلمين إلا إذا كان أبوهم مسلما .. أى إذا تزوجت مسلما ..

وتسمع نيفين وتفكر برهة ثم تهز كتفيها بلا مبالاة .. أما أختها نوال فيبدو عليها أنها لم تسمع شيئا ..

و لم تكن نجوى تستطيع أن تتفرغ لتعليم ابنتيها الإسلام إنها مشغولة بنفسها وبشخصيتها الجديدة .. فكانت تستعين بأمها على تربية البنتين تربية دينية .. والبنتان تتلقيان هذه الدروس كأنهما تشتركان فى لعبة .. وتضحكان على جدتهما وهى تعلمهما الصلاة .. و لم تفهما من الصيام إلا أن الأكل ممنوع فى البيت ولكنه ليس ممنوعا خارج البيت .. إن كل ما تسمعانه من أمهما أو جدتهما لا تجدان له أثرا فى المجتمع الذى تعيشان فيه .. إن ما تسمعانه هى مبادىء وتعاليم مقصورة على داخل البيت وعلى داخل عقل أمهما وجدتهما .. أما بعيدا عن البيت وبعيدا عن الأم والجدة فلا شىء مما تسمعانه .. لا إسلام .. و لم تنشأ نيفين ولا نوال وهما غارقتان فى إيمانهما بالإسلام ولكنهما على الأقل أصبحتا تعرفان أنهما مسلمتان وأصبحتا تصران على أنهما مسلمتان كنوع من التحدى للمجتمع الذى يحيط بهما .. أنا لست مسيحية .. ولست يهودية .. أنا مسلمة .. وكل منهما كانت تتمسك بتعليق « ما شاء الله » فى سلسلة

تتدلى على صدرها .. ربما ليس إيمانا إنما لمجرد إثبات الشخصية ..

وقد حاولت نجوى نفس المحاولة لتذكر ابنتيها دائما أنهما من مصر مصريتان .. ولكن هذه المحاولة ذابت سريعا .. إن البنتين تعلمان أن أمهما وأباهما من مصر .. من أصل مصرى .. ولكنهما هما ليستا من مصر .. لم يريا مصر .. ولا تربطهما بمصر أى علاقة .. إنهما من أصل كندى .. وهما كنديتان .. وكل من حولهما يعترف لهما بأنهما كنديتان .. و لم تضطرا أن تذكرا مصر إلا فى مناسبات قليلة إذا تحدثتا مع زميلاتهما عن أصل العائلة .. حتى لونهما الذى يميل إلى السمار لم يكن يثير حولهما أى تساؤل فمجتمع كندا يجمع الألوان .. وعندما تحايلت عليها أمهما مرة أن يكتبا خطابا لبنات عمهما حتى تربط بينهما وبين مصر كتبتا خطابا باردا ثم لم تردا على الرد .. ما حاجتهما إلى مصر .. بل ما حاجتهما إلى لغة مصر .. اللغة العربية .. إنه حتى أمهما وأبيهما لم يعودا فى حاجة إلى اللغة العربية .. إنهما يتحدثان لغة المجتمع الذى يعيشان فيه .. اللغة الإنجليزية باللهجة الكندية .. حتى عندما يتحدث أحدهما إلى الآخر يدمج فى حديثه اللغة الإنجليزية .. فلماذا تصر أمهما على أن تتعلما اللغة العربية .. ربما لأن جدتهما لا تتكلم اللغة الإنجليزية .. ولكن حتى جدتهما بدأت تفهم اللغة الإنجليزية رغم أنها لا تتكلمها .. ولذلك لم تفلح نجوى فى أن تربى ابنتيها على الكلام بالعربى وأصبحتا تتحدثان دائما بالإنجليزية .. لغة المجتمع الذى تعيشان فيه .. وإن كانتا تفهمان ما يسمعانه بالعربية من طول ما سمعاه فى البيت .. ولكن .. لم تكن هذه هى أصعب المشاكل التى واجهت نجوى مع ابنتيها ..

إن المشكلة الأكبر هى مشكلة الجنس .. إن الجنس فى المجتمع الذى تعيشه هو مجرد واقع بشرى لا يقوم على مبادىء وتعاليم خاصة .. إنه واقع يرتبط بطبيعة البشر كالأكل والشرب وكل ما يحتاجه الإنسان .. وهم يدرسون الجنس فى المدارس بصراحة وبساطة كما يدرسون إعداد الطعام فى المطبخ ونسبة الفيتامينات التى يحتاج إليها جسم الإنسان .. وكلما كبرت البنتان أصبحت مشكلة الجنس هى شغل أمهما الشاغل بالنسبة لهما .. إن الحياة هناك مفتوحة أمام كل البنات ولا تدرى ما يمكن أن يحدث لابنتيها .. وأهم ما يمكن أن يحدث لهما هو أن تفقد إحداهما بكارتها .. لا تهم التفاصيل .. المهم هو أن تبقى كل منهما بكرا إلى أن تتزوج .. وأصبحت تحدثهما كثيرا عن قيمة الاحتفاظ بالبكارة بالنسبة لأى فتاة .. ونيفين تجادلها وهى لم تبلغ بعد الثالثة عشرة من عمرها :

— لماذا تصرين على أن أبقى بكرا .. عذراء ؟

وترد نجوى من خلال ابتسامة مفتعلة :

— لأنك وأنت عذراء فأنت بنت أما إذا لم تكونى عذراء فأنت امرأة ..

وتستمر المناقشات بين نيفين وأمها بينما نوال تجلس صامتة .. ورغم أن نيفين هى وحدها التى تتكلم فإن نجوى تطمئن إليها أكثر من اطمئنانها على نوال .. ربما لأن نيفين صريحة جريئة تقول كل شىء وتحكى لأمها عن كل ما يحدث لها فى يومها بينما نوال لا تحكى شيئا حتى عندما تلح عليها أمها وتحاول أن تجرها إلى الكلام لا تقول شيئا يريحها ويطمئنها .. وقد أصبحت نجوى تعتقد أن نوال مصابة بعقدة نقص تجاه أختها .. إن أختها هى دائما موضع اهتمام كل العائلة .. هى التى تثير المشاكل .. وهى

التى تحيى بمشاكلها كل جلسة .. بينما نوال تصل فى صمتها إلى حد ألا يحس بها أحد .. ولا يدرى أحد إلى أين يقودها هذا الصمت .. فيم تفكر .. وماذا تتمنى لنفسها .. وكيف ننقذها من الخطأ قبل أن تخطىء .. إن نجوى حائرة دائما فى ابنتها نوال ..

ويقابل حيرة نجوى مع نوال متاعبها مع نيفين .. ولكن كلها متاعب لها حل .. وكانت نيفين من الصراحة بحيث تقول دائما لأمها عن كل صديق تتخذه من بين زملائها .. إن البنت الكاملة فى هذا المجتمع هى البنت التى يكون لها دائما صديق .. صديق خاص .. والبنت التى لا تتخذ صديقا إما بنت خائبة أو معقدة يشفق عليها المجتمع .. وقد بدأت نيفين تتخذ لنفسها أصدقاء منذ كانت فى العاشرة من عمرها .. كان أول صديق هو روبير .. وهو كندى من أصل فرنسى .. وبعد عام بدلته بصديقها كارجى وهو من أصل هندى .. ثم بدلته وهى فى الثالثة عشرة من عمرها بصديقها ريمون وهو من أصل لبنانى .. وكانت تتحدث مع أمها عن كل واحد من هؤلاء الأصدقاء .. عن كل ما يجرى بينها وبين كل صديق .. حتى عندما تتبادل مع أى منهم القبلات .. وكانت تدعو كل صديق إلى البيت وتقدمه إلى أمها وأبيها وجدتها وأختها .. وأمها تقبل هذه الصداقة وتستسلم لها .. هذا هو المجتمع الذى تعيش فيه ويعيش فيه البنات والأولاد .. وهى دائما واثقة أن العلاقة بين نيفين وأى واحد من أصدقائها لا تصل بها إلى الخطأ الأكبر .. لا تمس عـذريتها .. إنها واثقة .. وكل أمنياتها عندما تكبر ابنتها أن تجد صديقا مسلما وقد يكون من عائلة مصرية مهاجرة حتى تحقق الزواج الذى تريده لها .. لماذا لا تجد نوال هى الأخرى صديقا .. إنها تعتبر بنتا ناقصة فى هذا المجتمع .. ومن

يدرى .. ربما كان لها صديق ولكنها لا تتحدث عنه ولا تدعوه لتقدمه إلى أهلها .. من يدرى .. إنها كعادتها لا تتكلم ..

ولكن متاعب نيفين الكبرى كانت مع أبيها .. فرغم أن عقلية محمود تطورت تطورا كبيرا بعد أن هاجر إلى كندا بحيث أصبح يعيش حياة طبيعية فى هذا المجتمع الجديد . إلا أن هذه العقلية لم تتطور بالنسبة لابنتيه خصوصا بالنسبة لابنته نيفين ، ولا حتى تطورت كما تطورت بالنسبة لزوجته التى سمح لها بالعمل فى المجتمع الجديد .. إنه لا يزال بالنسبة لابنتيه يعيش بالعقلية الشرقية فى داخل التقاليد التى عاشتها أمه وأخته فى مصر .. فكانت نيفين بجرأتها وصراحتها تتحدى هذه العقلية .. لا تريد أن تستسلم لسيطرة أبيها كما تستسلم نوال .. حتى فى التصرفات الصغيرة التافهة .. وقد حدث مرة وكانت فى الثانية عشرة من عمرها أن كانت العائلة جالسة بعد العشاء ملتفة حول التليفزيون ، وبحث محمود عن سجائره فوجد العلبة خالية ، فنظر إلى نيفين فى رجاء وحب وقال :

ــ نيفين .. أرجوك .. انزلى إلى الشارع واشترى لى علبة سجائر ..

وقالت نيفين فى برود :

ــ إن لى قدمين وانت لك قدمان .. وأنا لست فى حاجة إلى استعمال قدمىّ ، فاستعمل أنت قدميك لأنك فى حاجة إلى سجائر ..

وقامت زوبعة من الكلام الحاد بينهما ونيفين تصر على عدم الخروج لشراء السجائر حتى دخلت إلى غرفتها وأغلقت وراءها الباب ، وخرجت نجوى بنفسها لتشترى السجائر حتى يهدأ الأب .. وكان محمود يجن عندما يجد فى البيت صديقا من أصدقاء نيفين .. إنه لا

يستطيع أن يرفض دعوتها لأصدقائها فإن هذا من طبيعة المجتمع هناك .. ولكنه لا يحتمل هذه الدعوة .. فيستقبل الصديق ببرود ويعامله معاملة جافة ويجلس أمامهما صامتا وهو ينظر إليه فى قرف حتى يضطر الصديق أن ينصرف .. وتصرخ نيفين فى وجه أبيها :

ــ إنك تعامل أصدقائى فى قسوة كأنك تطردهم ..

ويرد عليها فى غيظ :

ــ لماذا لا يكون لك صديقات بدلا من الأصدقاء ..

وتصرخ :

ــ إن لى صديقات وأصدقاء .. ما الفرق ..

ويقول الأب :

ــ إنك بنت ويكفيك صديقات من البنات ..

وتعود تصرخ :

ــ إن فى المدرسة بنات وأولاد .. فلماذا أختار البنات ولا أختار الأولاد .. وإذا كنت أجلس مع صديق فى المدرسة فلماذا لا أجلس معه فى البيت ..

ويقول الأب ساخرا :

ــ إن كل ما أريده هو أن أجلس معكما .. هل لديك مانع ..

وترد نيفين بكلماتها الجريئة :

ــ إنك أبى ولست أباه .. وأنت تجلس معى كأب فكيف تجلس معه مادمت لست أباه ولا صديقه .. إنك تغار علىّ يا بابا .. فلا تجعل أصدقائى ضحية غيرتك ..

ويستمر النقاش بلا نهاية .. وكان محمود قد حظر على البنتين أن

تعودا إلى البيت بعد الساعة التاسعة مساء .. التاسعة هو آخر موعد .. وكانت نوال حريصة على ألا تتأخر عن التاسعة .. أما نيفين فكثيرا ما تتأخر .. قد تعود فى الحادية عشرة أو حتى بعد الثانية عشرة .. وكانت نجوى تسكت على تأخرها .. إنها واثقة من أنها ستقول لها أين كانت .. وواثقة أنها دائما عذراء .. أما إذا كان أبوها فى البيت فإنه يستقبلها بصفعة .. يضربها .. وهو يضربها كثيرا حتى تعودت على ضرباته ولم تعد تفاجأ بها .. بل تقف أمامه صامتة وتتلقى صفعاته دون أن تبكى ودون أن تنطق بكلمة واحدة وفى عينيها نظرات التحدى .. ثم تبتعد عنه وتدخل غرفتها صامتة .. إلى أن كان يوم .. وكانت نيفين قد بلغت الرابعة عشرة .. وانتهى محمود من عمله فى ساعة مبكرة على غير عادته وخطر له أن يمر عليها فى المدرسة ليصحبها معه إلى البيت .. وكان يسير فى حديقة المدرسة عندما رأى نيفين خلف شجرة راقدة على حشائش الأرض وقد وضعت رأسها على ساق صديقها ريمون .. وفى لحظة طغى الجنون على رأس محمود فمد يده وجذب ابنته من على الأرض وانهال عليها صفعا فى وسط الحديقة وأمام بقية الطلبة والطالبات .. ثم شدها وراءه وحملها وألقى بها فى السيارة .. وعاد إلى البيت .. ورغم الكلام الكثير والصراخ الذى رددته جدران البيت فإن نيفين لم تكن تتكلم .. ولم تكن تبكى .. إلى أن أطفئت الأنوار لينام الجميع .. وقامت نجوى فى الصباح الباكر لتجلس مع ابنتها نيفين وتهدئها وتقنعها بالصفح واحتمال أبيها .. ولكن .. إن نيفين ليست فى البيت ..

هربت ..

وقد لا تعود ..

٧

كانت نجوى تعلم أن من حق الأبناء فى هذا البلد سواء الأولاد أو البنات أن يتركوا بيت العائلة ويقيموا وحدهم معتمدين على أنفسهم .. وليس للأب أو الأم إعادتهم .. إنهم أحرار .. والقانون يحمى حريتهم من أنانية الآباء والأمهات .. ولكن هذا القانون لا ينطبق إلا على الأولاد بعد سن السادسة عشرة .. ونيفين لم تصل إلى سن السادسة عشرة .. إنها فى الرابعة عشرة .. وليس من حقها الهرب .. ليس من حقها أن تترك البيت والعائلة وتستقل بحياتها ..

ودارت نجوى كالمجنونة تبحث عن نيفين .. ذهبت إلى بيوت كل صديقاتها .. ولكنها ليست فى أى بيت ولا أحد يعلم أين هى .. وذهبت إلى بيت صديقها ريمون .. إن ريمون لم يرها منذ خطفها أبوها منه .. ولم تقل له إنها ستترك البيت ولا اتفقت معه على شىء .. وقالت له نجوى وكأنها تستجديه :

ــ أرجوك .. إذا اتصلت بك نيفين أو سمعت عنها فأبلغنى .. إنى لا أريد عودتها ولكنى أريد أولا أن أطمئن عليها ..

وأجاب ريمون ساخرا :

ــ لو كان يمكنكم الاطمئنان عليها لما تركت بيتكم ..

وتحملت نجوى كلمته صامتة .. ثم ذهبت إلى الأستاذ ديزموند .. إنه المدرس المسئول عن نيفين فى المدرسة .. فكل مدرس هناك مسئول عن

مجموعة من الطلبة والطالبات وليس مسئولا عن تعليمهم فحسب ولكنه مسئول أيضا إن احتاجوا إليه فى حياتهم الخاصة .. وكانت نيفين تلجأ دائما إلى أستاذها ديزموند فى كل ما يطرأ عليها من مشاكل .. كانت ترتاح إليه كأنه الطبيب النفسى الذى يعالجها .. وكانت تتحدث مع أمها كثيرا عن ديزموند وعن كل ما يقوله لها .. وعندما ذهبت نجوى إليه فوجئت بأنه لم يفاجأ ولم يندهش .. وقال وهو يضحك مطمئنا :

— اطمئنى ستعود .. وثقى فى تصرفات نيفين .. كل المدرسة تثق فيها رغم جرأتها وطول لسانها .. وهو شىء طبيعى يحدث فى كل العائلات .. ماذا يهم أن تترك البنت البيت بضعة أيام .. إنها فقط أرادت أن ترد على إهانة أبيها لها فتركت البيت دون أن تقول له ولا لك شيئا .. ربما لمجرد أن تقنعكما بأنها حرة إلى حد أن تستطيع الاستغناء عنكما ..

ولم تقتنع نجوى بكلام الأستاذ وخرجت تدور بحثا عن نيفين .. ومضت ثلاثة أيام وهى تعيش بين دموعها .. ثم قرر زوجها محمود أن يبلغ البوليس عن غياب ابنته .. ووافقته .. إنها تريد ابنتها ولو عن طريق البوليس .. وذهبت معه إلى قسم البوليس .. إن هناك فرقة خاصة عن حوادث المراهقين .. وجاءت امرأة فى رتبة ضابط تسأل نجوى وزوجها عن ابنتهما .. عن كل ما يخص هذه الابنة .. لعلها إخصائية فى العلوم الإجتماعية أو النفسية تريد أن تكتشف لماذا هربت هذه الفتاة من البيت وأين يمكن أن تذهب .. وكانت المشكلة واضحة أمام الإخصائية .. إنها مشكلة التضارب بين شخصيتين .. شخصية الأولاد وشخصية الآباء .. شخصية الشرق وشخصية الغرب .. الشخصية التى ولدت واستكملت نفسها فى مجتمع مصر والشخصية التى ولدت واستكملت

نفسها فى المجتمع الكندى .. وهو تضارب يكفى أن تهرب نيفين من أبيها .. من البيت كله ..

وكانت وصية البوليس ألا يقيم الأب أو الأم ضجة حول غياب ابنتهما .. ولا ينشرا إعلانا فى الصحف يرجوانها العودة وهو ما كان يفكر فيه أبوها محمود .. ليتركا الأيام تمر فى هدوء إلى أن يجد لهما البوليس ابنتهما ..

ومرت الأيام ..

ونجوى تزداد ضعفا وهزالا .. وتلوم نفسها .. إنها هى السبب .. فقد تركت البيت والبنتين لتشغل وقتها بالعمل فى الشركات .. وأحيانا تستغفر الله عن أخطائها .. وربما كان الله يعاقبها لأنها أسلمت جسدها لرئيسها كبيرك.. سامحنى يارب.. ولكنها وهى تلوم نفسها وتستغفر الله لم تطرأ على فكرها قصتها مع عادل .. إن عادل شىء آخر .. والسلسلة الذهبية دائما مدلاة فوق صدرها .. وقد قضت ليلة بطولها وهى تكتب له قصة نيفين .. تكتب كأنها تحادث نفسها .. وهى لا تدرى إن كان خطابها سيصل أو لا يصل .. وهى لا تنتظر منه ردا .. لقد تعودت أن تكتب بلا رد .. ولكنها ترتاح وهى تكتب له .. إنه طبيبها النفسى الذى تعتمد عليه .. وهو طبيب عجيب .. إنه يترك المريضة تتكلم دون أن يرد عليها ولو بكلمة واحدة ..

وزوجها محمود كان يلوم نفسه أكثر وكان يقضى كل وقته وهو جالس يفكر .. أو وهو يسير على قدميه يفكر .. يفكر فى أنه أخطأ فى حق ابنته .. ربما لأنه لم يستطع أن يطور نفسه وأن يعيش المجتمع الجديد بشخصية جديدة .. لقد طور نفسه بحيث أصبح شخصية تعيش

الأعمال وتعيش الأسواق وتعيش المجتمعات العامة .. طور نفسه حتى بالنسبة لزوجته .. إن الحياة التى يعيشها مع زوجته فى كندا كان لا يمكن أن يعيشها معها فى مصر .. لكنه يعترف بأنه لم يستطع أن يطور نفسه بالنسبة لابنتيه .. إنه يحس بهما كأنهما تعيشان فى مصر وليس فى كندا ، وهو مصمم على ألا يزوجهما من أجنبى .. من خواجة .. يجب أن تتزوج كل منهما من مصرى .. ومن مسلم .. لماذا لا يطور نفسه .. لماذا لا يترك لهما الحرية كحرية كل بنات كندا .. حتى حرية الهرب من البيت .. ولكنه يريدها أن تعود .. ويعدها بينه وبين نفسه أن تجده عندما تعود شخصية أخرى .. إن هذه الشخصية الأخرى بدأ يتعامل بها مع أختها نوال .. حتى إنه قال لنوال مرة وبلا مناسبة .. إذا أردت أن تعودى إلى البيت بعد التاسعة فهذا من حقك ..

ونوال بعد اختفاء أختها لم يظهر عليها الصدمة .. ولم تبك .. كانت أحيانا .. تشكو الشوق إليها .. وكانت أحيانا تجلس مع أمها وتستعيد ذكرياتها مع نيفين .. ولكنها غالبا صامتة .. لا يبدو عليها أنها خائفة على مصير أختها .. حتى إن نجوى كانت تخاف منها وعليها أحيانا .. من يدرى ربما كانت تحسد أختها على جرأتها إلى حد الهرب من البيت .. ربما كانت هى نفسها تفكر فى الهرب .. وأم نجوى تصرخ .. ما فعلته نيفين ستفعله نوال .. إنهما ليستا من بناتنا .. إنهما من بنات الشارع .. إنها ساخطة دائما .. ساخطة على كل ما فى كندا ..

هكذا عاش البيت خمسة عشر يوما .. وفى كل يوم تتصل نجوى بمكتب البوليس وتسأل .. ولا أخبار .. إلى أن اتصل بها مكتب البوليس .. إن نيفين هناك .. فى مكتب البوليس .. وهم يطلبون من

الأب والأم أن يحضرا لعقد لقاء مواجهة بينهما وبين ابنتهما .. وذهبا يطيران بالفرحة .. واستقبلتهما الضابطة المتخصصة .. إنها توصيهما بألا يناقشا ابنتهما فى أى شىء .. ولا يلوماها .. ولا يسألاها أين كانت .. فقط يرحبان بعودتها .. وينتظران أن تطلب هى الذهاب معهما إلى البيت .. هذه هى الوسيلة التى يضمنان بها ما يمكن أن تقرره ابنتهما اليوم أو غدا .. والأب والأم يرددان .. حاضر .. حاضر .. ثم اندفعا إلى الحجرة المجاورة حيث كانت نيفين .. وانطلقت الأم كالمجنونة تحتضن ابنتها وتقبلها .. وتنبهت إلى أن نيفين وهى بين أحضانها تبكى .. إن نيفين لم تتعود البكاء وكانت دائما ضنينة بدموعها .. لا شك أنها تعبت فى غربتها واستراحت بين أحضان أمها حتى بكت .. والأب يريد أن يحتضن ابنته أيضا .. وهو يقبلها .. كان من النادر أن يقبل محمود ابنتيه .. بل إنه لا يقبل حتى زوجته فى الفراش .. لا شك أنه بدأ يتغير فعلا ..

وتم كل شىء بسرعة ..

إن نيفين تريد أن تعود إلى البيت ..

هل يريد الأب أن يسجل ما حدث فى دفاتر البوليس .. إن من حقه أن يرفض التسجيل .. وهو يرفض .. لا يريد أن يسجل على ابنته أى عيب ..

وجلست نيفين مع أمها تحكى لها الحكاية ..

لقد قررت أن تعيش وحدها وتتحمل مسئولية نفسها .. لم تعد تطيق الحياة مع أبيها ولا مع جدتها .. وإن كانت تحتمل الحياة مع أمها .. وقد ذهبت إلى صديقتها مارلين التى تقيم فى الضاحية البعيدة وطلبت منها أن

تقيم معها إلى أن تجد مكانا آخر .. إن أم مارلين متحررة .. تترك كل الناس أحرارا حتى ابنتها .. لذلك لم تمانع فى أن تقيم نيفين فى البيت .. وفى اليوم التالى صحبتها إلى محل أزياء فى الضاحية ووجدت لها فيه عملا حتى تضمن أن تأخذ من مرتبها ما يكفى نفقات إقامتها .. وقد عاشت نيفين فى هذا البيت وفى عملها وهى سعيدة .. حرة .. وكانت أحيانا تحس بالخوف من الحياة .. وأحيانا تحس بالشوق .. الشوق إلى أمها وإلى أختها وأيضا إلى أبيها .. ولكن لا الخوف ولا الشوق كانا يدفعانها إلى التفكير فى العودة .. لا .. لن تعود أبدا ..

إلى أن حدث وسمعت أم مارلين أن البوليس يبحث عن نيفين .. وخافت لأن نيفين صغيرة لم تتجاوز الرابعة عشرة وتخشى أن تتهم باختطافها أو بتحريضها على الهرب .. فذهبت أم مارلين بنفسها إلى البوليس وأبلغت أن نيفين تقيم عندها .. وقرر البوليس أن يواجه نيفين بأهلها .. وقد كانت تستطيع أن ترفض حتى بعد هذا أن تعود إلى البيت .. كان يمكن أن تصر على البقاء بعيدا وهى تعمل تحت ضمانة أم مارلين .. ولكنها لم تستطع أن ترفض بعد أن التقت بأمها وأبيها ..

وكانت نجوى تستمع إلى ابنتها وبين شفتيها ابتسامة تخفى شيئا تريد أن تصل إليه وتطمئن عليه .. وبعد أن انتهت نيفين من حكايتها بدأت نجوى تسألها وهى تضحك عن مغامراتها مع الشبان خلال غيبتها .. لقد كانت حرة .. وكانت تستطيع أن تفعل بنفسها ما تريد .. فماذا فعلت .. وبدأت نيفين تحكى بصراحتها — تحكى كل شىء حتى أدق التفاصيل — إلى أن اطمأنت نجوى .. اطمأنت إلى أن ابنتها نيفين لا تزال عذراء ..

• • •

والتفتت نجوى تبحث بين مقاعد الطائرة عن ابنتها نيفين .. وابتسمت وهى تراها جالسة بين الصديقات الجدد اللاتى تعرفت عليهن بين الركاب .. إنها فى حالة صديقات لا أصدقاء .. إنها كل ساعة فى حالة .. واتسعت ابتسامة نجوى ..إنها تحب نيفين وأصبحت تطمئن عليها .. وتحب نوال طبعا ولكنها لا تطمئن عليها ..

وربما ما حدث بعد ذلك هو فى صالح الابنتين ..

لقد أفلس زوجها محمود فى مغامراته الأخيرة ، واضطر إلى أن يبحث عن عمل آخر يدر عليه دخلا أكبر يغطى به إفلاسه .. وكان العمل الجديد يفرض عليه الإقامة فى نيجيريا .. فى إفريقيا .. قريبا من مصر .. وبدآ يفكران هى وزوجها .. إنه قد يبقى فى نيجيريا عامين أو ثلاثة فلماذا تبقى بقية العائلة فى كندا .. لماذا لا يعودون كلهم إلى مصر .. إن مصر أقرب إلى نيجيريا ويستطيع أن يذهب إليهم هناك فى أيام الإجازات بمواصلات أسهل وأرخص .. ثم إن البنتين أصبح من صالحهما أن تعودا إلى مصر ليبحثا عن مستقبلهما .. عن حياة جديدة .. إن الأفضل لهما أن يتزوجا من مصر .. واتفقا على أن تنتقل العائلة إلى مصر .. وسافر محمود إلى نيجيريا .. وسبقتهم أمهما إلى مصر لتعد بيتها فى مصر الجديدة .. أما هى فستعود إلى شقتها فى الدقى .. وقد أرسلوا إلى إبراهيم شقيق زوجها ليعد لهم الشقة وإن كانت قد حملت من كندا كثيرا من قطع الأثاث ولوازم البيت .. تتلقيان الخبر فى برود .. إنهما لا تعرفان مصر وليستا فى شوق إليها .. ولكنها مجرد رحلة للمعرفة وللتسلية ..

واتسعت ابتسامة نجوى وهى تتصور إبراهيم شقيق زوجها وهو فى انتظارها بالمطار .. وتستعيد محاولته معها وهو فى انتظارها فى باريس ..

هل يحاول معها مرة ثانية .. إنها دائما الأقوى ..

واتسعت ابتسامتها أكثر وقد سرح خيالها إلى عادل .. ستتصل به بالتليفون وتسمع صوته بمجرد وصولها .. ترى هل تغير رقم تليفونه .. هل يقيم فى نفس البيت .. إنها لا تدرى .. ولكنها تريد أن تراه حتى لو بحثت عنه فى كل مصر .. ترى ما شكله الآن .. هل أصبح عجوزاً .. إنه أكبر منها بعشرين سنة .. أى أنه الآن فى التاسعة والخمسين من عمره .. تريد أن ترى هذا العجوز الذى عاش فى خيالها العمر كله ..

ومدت أصابعها تحتضن السلسلة الذهبية المعلقة على صدرها ، بينما ميكرفون الطائرة يذيع أنه بقى نصف ساعة على الهبوط فى مطار القاهرة ..

اربطوا الأحزمة ..

٨

كانت نجوى تنزل من سلم الطائرة وكل خلجاتها ترتعش من الفرحة .. كأنها عادت أخيراً إلى بيتها .. وتتلفت حولها وترفع رأسها إلى السماء كأن كل شىء أوحشها .. كل شىء فى مصر لا يمكن أن يكون فى أى مكان أخر .. حتى سماء مصر لا يمكن أن تكون سماء أى بلد آخر .. بل أنها فكرت وفرحتها تنطلق مع ابتسامتها أن تنحنى وتقبل أرض مصر كما تسمع عن الذين يقبلون أرضهم التى عادوا إليها .. لقد غابت طويلا .. ثمانية عشر عاما لم تأت إلى مصر خلالها ولو فى زيارة .. زوجها كان يعطى كل نفسه لمغامراته فى عمله حتى لم يكن يقبل أن يضحى ببضعة أيام لزيارة مصر .. وكانت هى قد استطاعت أن تقنع نفسها بأن تتفرغ لبناء شخصيتها الجديدة داخل المجتمع الجديد ، وليس من صالحها أن تعود إلى مصر حتى لا تعود إلى الشخصية المصرية .. ولكنها عادت .. وبمجرد أن وضعت قدميها على الأرض اكتشفت فى نفسها أنها لم تتغير أبداً .. لم تكن أبداً شخصية أخرى غير الشخصية التى ولدت بها وعاشت بها فى مصر .. إن كل أحاسيسها .. وكل خيالها .. وكل أفكارها .. تحس معها كأنها لم تترك مصر أبداً ..

ونيفين ونوال مندهشتان من كل هذه الفرحة التى استولت على أمهما .. وهذه الخطوات السريعة التى تجرى بها إلى الخارج كأنها تجرى إلى لقاء حبيبها .. إنهما لا تحسان بشىء وتتطلعان حولهما كأنهما تسيران

فى فوج سياحى .. لا شىء يهمهما أكثر من الفرجة ..

وكان الكثير من أفراد عائلتها وعائلة زوجها فى انتظارها هى وابنتيها .. وكان من بينهم إبراهيم شقيق زوجها .. لقد مضت سنوات طويلة دون أن تراه .. وقد أصبحَ يبدو عجوزاً .. صدغاه مهدلتان وجفناه مكرمشتان فوق عينيه .. وشعره أبيض .. إنه أكبر من زوجها محمود .. ولكنه أصغر من عادل .. لعله الآن فى الخمسين وعادل فى الثامنة أو التاسعة والخمسين .. هل أصبح عادل عجوزاً إلى هذا الحد الذى وصل إليه إبراهيم .. وأحست برجفة كأنها تشفق على عادل قبل أن تراه ..

ولكن إبراهيم لا يزال كما هو .. يعتبر نفسه مسئولا عن كل شىء .. إنه يشرف على جمع الحقائب وعلى الاطمئنان على الجميع داخل السيارات .. ولكن يبدو أنه لا يزال غيورا .. لقد حاول ابن خالتها الذى كان فى استقبالها أن يجلس بجانبها فى السيارة فإذا بإبراهيم يقول له آمرا :

ــ لا يا أستاذ .. دع السيدات يجلسن بجانب بعضهن ..

وانتقل ابن خالتها إلى سيارة أخرى .. وهى تبتسم لإبراهيم منذ التقت به ابتسامة تبدو كأنها ساخرة ولكنها ليست ساخرة إنها ابتسامة الاعتزاز بالقوة .. ونجوى تحس أنها قوية فى مواجهة إبراهيم وتعيش بابتسامتها فى ذكرى الليلة التى قضتها معه فى باريس .. بينما هو يتجنب أن يلتقى بعينيها .. كأنه هو أيضاً لا يستطيع أن ينسى ما حدث فى باريس .. وطوال الطريق من المطار إلى الدقى والكلام لا يكف داخل السيارة .. والكلام بالعربى .. فإذا وجه أحد كلمة إلى إحدى البنتين أجابته بالإنجليزية فيضحك كل من فى السيارة .. والابنتان لا تهتمان بهذه

الضحكات كأنهما سائحتان ملهيتان بالفرجة على الشوارع من خلال النافذة ..

ووصلوا إلى البيت ..

العمارة لا تزال كما هى .. وإن كان قد اكلح لونها وتساقط بعض أجزائها .. وقد عرفت فيما بعد أن إبراهيم لا يفكر فى تجديد العمارة لأنها مؤجرة بإيجار قديم .. والسكان لا يستحقون مليما واحدا يجدد به العمارة .. رغم أنه لا يزال يقيم فى الدور الثالث .. وشقتها كما هى فى الدور الرابع .. وقد بذل إبراهيم فعلا مجهودا كبيراً فى إعداد الشقة لاستقبالها .. ولكن مهما بذل من جهد فلا يمكن أن يصل بها إلى مستوى شقتها فى كندا .. والبنتان تنظران حولهما وتتطلعان إلى كل ما فى الشقة وتقلبان الشفاه وتسكتان ..

إلى أن خرج كل المستقبلين .. وردت نجوى على كل اعتراضات وأسئلة ابنتيها إلى أن دخلتا ونامتا .. وجلست وحدها .. وعاشت فى ابتسامة حلوة .. ثم رفعت سماعة التليفون وأدارت رقما لم تنسه أبدا ..

إنه هو ..

إنه صوته ..

صوته لم يتغير أبداً ..

وقالت كأنها تريد أن تتأكد :

ــ عادل ؟

وقال فى صوته الهادىء الذى تعودت أن يرن فى أذنيها حتى دون أن تسمعه :

ــ أنا عادل .. من ؟

وقالت وابتسامتها تتسع :

ــ سأترك لك دقيقة واحدة لتعرف من أنا .. وإن لم تعرف سأغضب ..

ومرة واحدة صاح والفرحة تضج فى صوته :

ــ نجوى ..

إنه لم ينس صوتها رغم كل هذه السنوات .. وفرحت لأنه لم ينس صوتها حتى كادت تقبله من فوق سماعة التليفون .. وعاد يقول قبل أن ترد عليه كأنه لم يكن فى حاجة لأن تؤكد له أنها نجوى :

ــ الحمد لله على السلامة .. متى وصلت ..

وقالت من خلال فرحتها :

ــ اليوم .. منذ ساعات .. وأحس أنى جئت لأطمئن عليك .. فقد كنت تبخل على بالاطمئنان .. لم أكن أعرف عنك شيئاً .. وإلى الآن لا أعرف شيئاً .. هل كانت تصلك خطاباتى ..

وقال هادئا :

ــ لقد تعودت خلال كل هذه السنوات على انتظارك فى خطاباتك .. حتى لو انتظرت العام كله حتى يصلنى خطابك ..

وقالت فى لوم :

ــ لماذا لم تكن ترد .. ولو بكلمة واحدة ..

وقال وصوته هامس كأنه يتنهد :

ــ لقد قررت أن أعيش معك فى خيال .. أنت تعيشين خيالك وأنت تكتبين .. وأنا أعيش خيالى وأنا أقرأ .. لم أكن أتصور أبداً أن هذا الخيال يمكن أن ينقلب إلى واقع يجمعنا ..

قالت وكأنها تحادث نفسها :

ــ لقد كنت أكتب لك لأنك الوحيد الذى أستطيع أن أقول له كل شىء .. وكنت أرتاح بعد أن أكتب .. أحس أنى فى أمان من نفسى مادمت تعلم كل شىء ..

قال فى هدوء :

ــ وهل سأراك ؟

إنها المرة الأولى التى يطلب فيها أن يراها .. لقد عودها طوال شبابها أن تكون هى التى تطلب لقاءه .. لا شك أنه تغير .. وقالت بفرحتها :

ــ طبعا .. إنى لن أحس أنى جئت إلى مصر إلا إذا جئت إليك ..

وعاد يقول بهدوئه :

ــ متى ؟

قالت دون أن تحسب حساب شىء :

ــ غداً ..

قال ببساطة :

ــ فى الخامسة ..

إنه نفس الموعد الذى تعود أن يحدده لها .. إنه لم يتغير .. وقالت كأنها تحاول أن تبدو أمامه بشخصية جديدة :

ــ لتكن السابعة .. فإنى مزدحمة بالأعباء .. وأنا أقيم فى الدقى بعيداً عن مصر الجديدة ..

قال وفى صوته حيرة كأنه لم يتعود منها أن تعدل من موعد لقائهما :

ــ سأنتظر السابعة ..

قالت كأنها تتعلق به :

— إنى فى شوق إليك .. هل تغيرت ؟

قال من خلال ضحكة خافتة :

— طبعا تغيرت .. وأنت أيضاً .. لا شك أنك تغيرت ولكنى واثق أنك تغيرت إلى أحلى .. أما أنا فلا أدرى .. هل تحبين الشعر الأبيض ؟

قالت من خلال فرحتها :

— أحب كل شىء فيك .. إن الشىء الوحيد الذى لم يتغير فى هو إحساسى بك .. وانتهت المحادثة .. وقامت إلى فراشها وهى لا تحس بالتعب .. كأنها لا تريد أن تنام رغم أنها قضت يومين وهى طائرة وهى غارقة فى أحضان مصر .. ولكنها نامت ..

لم تذق أبداً طعم مثل هذا النوم .. لقد نامت نوما عميقا ممتعا كأنه لم يعد ينقصها شىء يعكر نومها .. وبدأت يومها التالى وكل خلجة منها تنبض بالنشاط والفرحة والحيوية .. كأنها عادت إلى صباها قبل أن تهاجر إلى كندا .. وكان حولها عشرات المشاغل .. فتح الحقائب .. وإعداد الشقة .. والاتصال بشركة البواخر لتتأكد من موعد وصول الباخرة التى تحمل ما جاءت به من كندا .. ثم مشاكل البنتين .. كيف تقيم لهما حياتهما الجديدة فى مصر .. وكيف توفر لها الشخصية الجديدة .. والساعات تجرى دون أن تحس وفى الساعة الخامسة كانت قد أعدت نفسها وأعدت البنتين وخرجت بهما .. وعلى باب العمارة وجدت إبراهيم شقيق زوجها وكأنه فى انتظارها وقال لها فى صوت جاف وعيناه تنظران إليها فى دهشة ساخطة :

— إلى أين ؟

وقالت مبتسمه وبلا اهتمام وربما بلا احترام :

— سأذهب إلى ماما .. إنى لم أرها منذ تركتنا فى كندا .. وقد أرسلت أمس ابن خالتى ليكون فى انتظارى بالمطار وهى فى انتظارى اليوم ..

قال فى حدة كأنه صاحب حق عليها :

— ولكنك وصلت أمس وقد يأتى بقية الأقارب لزيارتك ..

قالت وبين شفتيها ابتسامتها المفتعلة :

— لن أتأخر .. لينتظرونى ..

وقال وصوته يضج بالغيظ :

— ولماذا لم تقولى لى . على الأقل لأعد لك سيارتى ..

قالت وهى تتركه مبتعدة وتسحب معها البنتين :

— لا أريد أن أتعبك .. وأفضل أن أعتمد على نفسى .. هكذا تعودنا فى كندا ..

وركبن سيارة تاكسى .. وكانت تطلب إلى السائق أن يسرع .. ليس بدافع الشوق إلى أمها أو إلى عادل فحسب .. ولكن بدافع الشوق إلى مصر الجديدة نفسها .. وأخذت تتطلع إلى كل شارع تمر به .. وتتذكر أيام صباها وشبابها .. بل إنها طلبت من السائق أن يمر بها أمام مبنى مدرسة الساكركير .. واتسعت ابتسامتها حتى ضحكت وهى تتذكر أيامها فى الساكركير وتحكى لابنتيها ..

ولم تبق طويلا مع أمها .. وقامت تقف أمام المرآة لتطمئن إلى ما سيراه عادل منها .. وابتسمت .. يخيل إليها أنها أصغر وأقرب للشباب وأجمل مما كانت فى كندا .. وأبرزت وضع السلسلة الذهبية فوق صدرها .. ثم تركت الابنتين مع أمها وهى تقول :

— لن أتأخر ..

ولم تكن تدرى إذا كانت ستتأخر أم لا .. لم تكن قد حددت كم تبقى هناك ومتى تعود .. إنها مستسلمة لكل ما يمكن أن يحدث .. مستسلمة لفرحتها ..

وصعدت سلم العمارة دون أن تحس بغربة .. بل حتى دون أن تحس بأنها تعيش ذكرياتها .. إنها تحس كأنها كانت هنا بالأمس فقط .. لم تغب عن هذا البيت كل هذه السنوات .. ووقفت تضغط على جرس الباب بيد ليست غريبة عن هذا الجرس ..

وفتح عادل ..

إنه هو ..

لم يتغير ..

ربما أصبح شعره كله له لون رمادى .. ليس أبيض .. إن اللون الرمادى يكسبه رجولة أقوى وشخصية أهدأ .. وربما جد تحت عينيه خيطان رفيعان .. ووجنتاه أقل اكتنازا .. ولكنه كما هو .. كل قطعة من وجهه تبتسم هذه الابتسامة الدائمة الهادئة .. وقامته ممتدة أمامها فى رشاقة كأنها تدعوها إلى صدره .. وعيناه تطوفان بوجهها فى فرحة صامته .. ثم تركزت نظراته فوق السلسلة الذهبية .. واتسعت ابتسامته ومد أصابعه يتحسس السلسلة كأنه اطمأن إلى أنه وجد نفسه فيها ..

وقالت هامسة :

— إنى لم أرفعها أبداً منذ وضعتها على صدرى .. كنت أنام بها وأصحو معها ..

وقال وهو يمسك يديها بين يديه :

— وأنا لم أنس أبداً يومها .. يوم جمعتنا السلسلة ..

وجذبها إلى الأريكة الطويلة العريضة وجلس ملتصقاً بها .. كل منهما يحس أنه ليس فى حاجة إلى الكلام .. إنهما فى حاجة إلى ما هو أكثر من الكلام ..

ومد ذراعيه واحتضنها إلى صدره .. إنه يضمها بكل حيويته كأنه يريد أن يدخلها فى صدره .. فى قلبه .. وأنفاسه تطوف بكل وجهها .. وأصابعه تغوص فى شعر رأسها .. إلى أن احتضنت شفتاه شفتيها .. وأصابعه تفك أزرار ثوبها .. وهى مستسلمة فى نشوة .. وعيناها مغمضتان .. ولكنها لا تحلم كما كانت أحيانا تتعمد أن تحلم وهى مع زوجها .. ولا تفتح عينيها لتتفرج كما كانت تتفرج عندما يحتضنها رئيسها كيرك .. إنها تعيش الواقع الذى حرمت منه طوال هذه السنوات .. واقع النشوة .. واقع الهيام مع جسدها وجسده ..

إلى أن أصبحت وليس على جسدها إلا السلسلة الذهبية المدلاة فوق صدرها .. وكما حدث فى المرة الأولى بدأت دموعها تنزلق فى رفق وفى صمت على وجنتيها .. دموع المنتهى .. منتهى النشوة .. ومنتهى العطاء .. ومنتهى الأخذ .. ومنتهى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان جسداً وروحا ..

* * *

وقامت إلى بقية غرف الشقة تتنقل بينها بلا إحساس بالغربة .. كأنها فى بيتها .. البيت الذى عاشت فيه بخيالها العمر كله .. وأعادت ارتداء ثيابها وساوت من نفسها وعادت إليه لتجلس ملتصقة به وقال وهو يريح ذراعه فوق كتفيها :

ــ لقد عشت معك كل أيامك فى كندا .. حتى عندما كنت تنقطعين عن كتابة الخطابات كنت أعيش فى الخطابات السابقة لأتصور حياتك يوما بيوم ..

وقالت وكأنها تلومه :

ــ وأنا لم أعش معك إلا بخيالى فلم أكن أعرف شيئا يمكن أن يكون قد طرأ عليك .. ما أخبار خديجة ..

ورفع ذراعه من فوق كتفيها كأنه إذا جاء ذكر خديجة فيجب أن يتفرغ لها حتى لا تغضب ، وقال فى صوت خفيض .

ــ خديجة انتهت .. انتهى كل ما بيننا ..

وقالت نجوى فى دهشة لا تخلو من رنة الفرحة :

ــ منذ متى ؟

وقال بصوته البعيد :

ــ منذ أكثر من عشرة أعوام .

وقالت وكأنها تلح :

ــ لماذا ؟

وقال كأنه مستسلم لمصيره :

ــ لنفس السبب دائما .. كانت لا تريد أن تستمر إلا إذا تزوجنا ..

وقالت وهى لا تدرى إن كانت تعبر عن حقيقة اقتناعها أم تقول مجرد كلام :

ــ لها حق .. لماذا لم تتزوجها ..

وقال مبتسما ابتسامة مسكينة كأنه يشفق بها على نفسه :

ــ ربما لأننا عشنا معا سنوات طويلة بلا زواج فلم نعد نستطيع أن

نعيش كأزواج .. ثم إننى لا أحتمل مسئولية ضياع بيت قائم .. قد لا يهمنى الزوج .. زوجها .. ولكن يهمنى أولادها .. لم أكن أستطيع أن أحمل مسئوليتهم معها ولا أستطيع أن أتركهم بعيدا عنها .. المهم .. لقد استطاعت أن تستغنى عنى وإن كنت أنا قد تعذبت طويلا حتى تعودت على الاستغناء عنها ..

وسكتت نجوى .. لعله على حق .. إنه لا يريد أن يقيم سعادته وسعادتها على شقاء الآخرين .. والتفت عادل إليها وأعاد ذراعه فوق كتفيها وقال وفى عينيه لمحة رجاء :

ــ نجوى .. صدقينى أن ليس فى حياتى الآن أى امرأة .. وإذا دخلت حياتى امرأة فلن تكون إلا أنت .. هل تدخلين حياتى ..

وابتسمت ابتسامة كبيرة وقفزت واقفة وهى تقول :

ــ إنى لم أتعود أن أقرر شيئاً خاصا بك .. ولكنى مستسلمة لك .. فدعنا نستسلم للاستسلام .. ويجب أن أذهب الآن .. تأخرت على البنتين ..

وقال وهو واقف ملتصقا بها :

ــ إن من حقك الآن أن تأخذى مفتاح الشقة .. ولكنى لن أعطيه لك إلا إذا طلبتيه حتى أحس بأنك أحسست بأن بيتى هو بيتك ..

قالت وهى فرحة :

ــ دعنى إلى أن أطلبه منك ..

ثم قفزت وقبلته فوق خده وجرت نشوانه خارجة من الباب ..

• • •

٩

كانت نجوى فى منتهى الفرحة وهى تعود إلى بيت أمها وتأخذ ابنتيها وتعود بهما إلى الدقى .. فرحتها بإحساسها بأنها تبدأ من جديد .. تبدأ منذ صباها .. كل ما فات كأنه لم يكن .. إنها هى هى لم تتغير .. وعادل كما هو لا يزال فى قمة رجولته وقمة شخصيته .. إنه ليس عجوزا .. أو ربما كانت هى التى لا تحب ولا تشتهى إلا الرجل العجوز .. وفرحتها تطير بها .. حتى نيفين سألتها ضاحكة بلغتها الإنجليزية ولهجتها الكندية وهى فى السيارة :

ــ ما كل هذه السعادة والفرحة التى تبدو عليك ..

وقالت نجوى ضاحكة :

ــ لقد التقيت بشبابى ..

وقالت نيفين فى خبث ساخر :

ــ هل كان لك شباب قبل أن تتزوجى بابا ..

وقالت نجوى كأنها تحلم ..

ــ شباب حلو .. رائع .. وكنت عاقلة ولست مثلك مجنونة ..

إنها لم تكن عاقلة ولكن عادل فرض عليها العقل .. من يدرى لو كانت قد أحبت فى صباها رجلا غير عادل ماذا كان يمكن أن يحدث لها .. وماذا كان يمكن أن يكون مصيرها ..

ولكن نجوى كانت كلما عادت إلى شقة الدقى تحس بأن شبابها الذى

استعادته يتخلى عنها .. إنها لن تستطيع أن تحتفظ بإحساسها بهذا الشباب وهذا الصبا .. إنها ليست شابة .. إنها زوجة وحيدة .. وأم مسئولة .. وهى غريبة فى هذا البلد .. إنها لا تعرف مصر .. ليست هذه هى مصر التى تعرفها .. كل شىء تغير .. كيف تستطيع أن تدير بيتها فى هذا البلد الغريب .. وكيف تستطيع أن تنظم حياة ابنتيها وهما رافضتان أو لا تستطيعان أن تعيشا هذا المجتمع الجديد .. إنهما من الأجانب .. من الخواجات .. وفى كل يوم عشرات المشاكل .. وهى المسئولة وحدها عن كل مشكلة .. إنها وحدها .. وتفضل أن تكون وحدها وقد تعمدت أن تقاطع إبراهيم وزوجته .. لم تعد تحتملهما ..

ولكنها كانت تقاوم ..

حتى لو ضحت باطمئنانها على بيتها وابنتيها ..

لا يمكن أن تضحى بحبها وتهرب من إحساسها بأنها استكملت كل شبابها وكل أنوثتها وكل فرحتها بنفسها .. ولم تطق المقاومة أكثر من يومين وفى اليوم الثالث ذهبت إليه .. اتفقت معه على أن تتناول معه طعام الغداء .. وحملت معها قطعا من الجبن كانت قد جاءت بها من كندا وعلبا من اللحم المحفوظ ليس فى مصر مثلها وذهبت بالابنتين وتركتهما مع أولاد خالتها ليذهبا معهم إلى النادى وإلى السينما ..

وفتح لها الباب ووجهه ينبض بفرحته الهادئة ..

وقبلته قبلة خاطفة وجرت سريعا إلى المطبخ وفتحت الثلاجة ووضعت فيها ما تحمله .. ثم أخذت تقلب فى كل شىء وتفتح كل الأدراج .. ثم خرجت تطوف بكل الحجرات .. إنها فى بيتها .. وهو يتتبعها بفرحته ثم وقفت تعد له طعام الغداء .. وبعدها قال لها وهو يحاول

أن يجذبها إلى غرفة النوم :

ــ تعودت أن استريح بعد الغداء .. تعالى ..

وقالت مبتسمة وهى تلقى بنفسها ممدة فوق الأريكة الواسعة :

ــ لتسترح اليوم هنا ..

وقال وهو يرقد بجانبها :

ــ لقد تعودت على هنا .. إنك هنا ضيفة ولكنك هناك ست بيت ..

قالت وهى تبدأ وتلف ذراعها حوله :

ــ ليس لأنى تعودت بل لأنى سأطلب منك تغيير الفراش .. أريد فراشا لم تلتق عليه بأحد قبلى .. سنشترى غرفة نوم كاملة جديدة .. لك ولى ..

وقال وشفتاه تقتربان من شفتيها :

ــ هذا حقك .. كل عروسة لها حق فى جهاز جديد ..

ومضت ساعات وهما فى قمة النشوة .. قمة الوصول .. وقامت قبل أن تخرج تعد البيت وتساويه كأنها أصبحت مسئولة .. ووقف قبالتها قائلا :

ــ ألم تنسىْ شيئا ..

وقالت ضاحكة وهى تفتعل النسيان :

ــ فعلا نسيت .. نسيت أن أطلب منك المفتاح ..

ومال وفتح درجا قريبا أخرج منه مفتاح البيت ثم رفع يدها يقبلها ووضع فيها المفتاح ثم قال :

ــ بقى أن نتفق على المهر ومصروف البيت ..

إنه يريد أن يعطيها نقودا .. لماذا .. ثمنا لجسدها .. لا .. لا يمكن .. إنها ليست من هذا النوع من النساء .. ليست محترفة .. وقالت وكأنها تلومه :

ــ لا تقل هذا يا عادل ..

وقال فى بساطة كأنه لم يكن يعنى ما فهمته :

ــ أنا رجل البيت .. دعينى أحس بأنى مسئول عن البيت وعنك ... وأول ما يهم الرجل المسئول هو أن يحدد ميزانية البيت ..

قالت وهى تضحك ضحكة خافتة خجولة :

ــ سأعفيك من ميزانية البيت ..

قال فى بساطته :

ــ ولكنى سأطلب منك أن تشترى ..

قالت ضاحكة :

ــ ساحاسبك على كل ما أشتريه للبيت .. واعلم أنى صعبة فى الحساب .. لا أتنازل عن مليم .. وأعطى لنفسى الحق فى مغالطتك ..

ثم فتحت حقيبتها وأخرجت منها سلسلة فضية عريضة كأنها سوار ثم أمسكت بمعصمه ولفت حوله السلسلة وهى تقول من خلال رنات الحب :

ــ إنى لم أخلع السلسلة الذهبية منذ وضعتها حول عنقى .. حتى أنى تعودت أن أستحم بها .. عدنى أن لا تخلع أنت هذه السلسلة مهما حدث .. لقد قلت لى مرة إن ما بيننا لن ينتهى أبدا .. وهو لن ينتهى مادامت سلسلتك حول عنقى وسلسلتى حول معصمك ..

وقال وهو يحتضنها :

ــ أبدا لن ينتهى ما بيننا ..

* * *

وما كادت تصل إلى بيتها حتى أحست أنها هوت من القمة إلى الواقع .. واقع المشاكل .. إن الحياة هنا ليست كالحياة فى كندا .. هناك تقوم الحياة على أن يخدم كل فرد نفسه .. لم تكن تعتمد فى كندا على خادمات ولكن كل الخدمات كانت متوافرة سهلة فى يد الفرد .. لم تشعر هناك بحاجتها إلى خادمة .. أما هنا فالفرد لا يستطيع أن يخدم نفسه .. لا تستطيع أن تتحمل وحدها مسئولية البيت .. كل شىء صعب حتى مجرد شراء رغيف العيش .. وقد حاولت أن تستعين بالخادمات ولكنها تعبت أكثر وفضلت أن تبقى وحدها فى خدمة البنتين .. تكنس وتمسح وتغسل وتطبخ وتنزل إلى السوق .. وتنزل إلى المكاتب لتحل المشاكل الخاصة بها وبابنتيها .. والابنتان تعيشان فى البيت كأنهما فى فندق .. ليستا مسئولتين عن شىء .. ولا تستطيع أن تحملهما مسئولية .. إنهما لا تريدان تحمل أى مسئولية فى هذا البلد .. إنهما ليستا من مصر .. إنهما من كندا .. وقد استطاعت أن تلحقهما كطالبتين فى الجامعة الأمريكية .. حتى الجامعة الأمريكية فى مصر غيرها فى أى بلد آخر .. أصابتهما كل متاعب المجتمع المصرى .. ليس لها قواعد محددة لتلحق بها ابنتيها وسعت طويلا حتى استطاعت أن تصل إلى شخصية توسطت لها حتى تقبل الجامعة ابنتيها .. كل شىء فى مصر يحتاج إلى واسطة حتى الالتحاق بالجامعة الأمريكية ..

وهى تترك لكل بنت حريتها .. إنها هى وزوجها محمود منذ هربت

نيفين من البيت وهما مستسلمان لحرية كل بنت حتى لا تهرب .. ليس هذا فقط .. إنها هى نفسها ترتاح مع حرية البنتين .. تخف عنها مشاكلهما .. وقد استطاعت كل بنت أن تعيش فى مجموعة من الصديقات والأصدقاء معظمهم من الأجانب .. ومعظم أصدقائهما الأجانب من الأمريكان .. ربما لمجرد التقارب فى الشخصية الاجتماعية بين كندا وأمريكا .. وكل منهما لا تزال منفصلة بشخصيتها عن الأخرى لم يقرب بينهما انتقال حياتهما إلى مصر .. نوال كما هى .. صامتة .. لا تثير المشاكل .. وتحرص على ما تتعهد به .. إنها تعود فى الساعة المحددة .. وتتناول غذاءها فى ساعة محددة .. وتقضى كل أيامها فى روتين واحد .. ونيفين مجنونة .. وتعلن جنانها بصراحة .. لا تدرى متى تعود إلى البيت .. ولا متى تطلب أن تتناول الغداء .. ولا ماذا ستفعل اليوم أو غدا .. ولكن نجوى لا تزال مطمئنة على ابنتها نيفين أكثر من اطمئنانها على نوال .. إن نيفين تقول كل شىء حتى عدد القبلات التى تتبادلها مع الشبان .. ونوال لا تقول شيئا حتى عن كلمة جرت بينها وبين شاب ..

وكانت نجوى تعيش فى مقاومة دائمة لهذه المشاكل حتى تعيش حبها لعادل .. وكانت قد قررت بينها وبين نفسها أن تكون له ثلاثة أيام فى الأسبوع .. الجمعة .. والأحد .. والأربعاء .. إنها تحب تنظيم حياتها حتى تتمكن من تأدية مسئولياتها .. ثلاثة أيام لعادل وباقى الأسبوع لمشاكلها ومشاكل الابنتين .. ولكنها لم تستطع أن تستمر طويلا فى هذا النظام .. إن مشاكلها لا تسمح بثلاثة أيام لعادل .. ليكونا يومين فقط .. يوم الجمعة ويوم الأحد .. ولكنها لم تكن دائما تستطيع الوفاء

بهذين اليومين .. إنها تحس بأنها لا تستطيع أن تعطى عادل كل ما يريده منها .. لا تستطيع أن تكون ست بيت آخر .. بيته .. وقد مضى الآن أكثر من ستة شهور و لم تستطع شراء غرفة النوم الجديدة التى اتفقت مع عادل على شرائها .. لقد عهد إليها بأن تقوم هى بالشراء .. إنه كأى رجل شرقى يتمتع بأن تكون المرأة فى خدمته ، وإن كان قد قال لها إنه يريدها أن تشترى بنفسها حتى تحس بأنها هى صاحبة هذا الفراش ولأنه يؤمن بذوقها فى الاختيار .. ورغم ذلك فهى لا تستطيع أن تجد الفراغ الذى يتيح لها أن تشترى .. وقد استسلمت للفراش القديم .. الفراش الذى كان يجمعه مع صديقته خديجة .. وليس معنى هذا أنها لم تكن تشترى .. اشترت أشياء كثيرة .. فى كل مرة تذهب إليه كانت تشترى فى طريقها شيئا .. اشترت أغطية جديدة للسرير .. واشترت كثيرا من أدوات المطبخ .. وجعلت من الشقة حديقة صغيرة مزدحمة بأصص الزرع الأخضر ..

ولكن لماذا يكون لقاؤها بعادل دائما بالنهار .. ربما كانت هذه هى عادة العشيقة المتزوجة .. ولكنها ليست كباق المتزوجات .. إن زوجها بعيد عنها وهى حرة .. لماذا لا تستغل الحرية التى تتركها لابنتيها وتعطى نفسها نفس الحرية وتقابل عادل فى الليل حتى ولو بقيت معه طوال الليل .. إنها فى الليل ترتاح من مشاكلها وتستطيع أن تعطيه أكثر .. وبدأت فعلا تترك ابنتيها فى الليل تفعل كل منهما ما تريد وتذهب هى إلى لقاء عادل .. بل إنها خرجت معه مرات تتناول العشاء فى الخارج .. حتى فى المطاعم الكبيرة المزدحمة .. لا يهمها .. زوجها ليس هنا .. ولا أحد يعرفها فى مصر .. ولكن عادل لا يحب لقاءها فى الليل حبه للقاء

النهار .. إنه يقول لها إنه فى النهار يحس بها كأنها ملكة .. كأنها فعلا ست البيت .. ولكنه فى الليل يحس بها كأنها امرأة غريبة اصطادها واصطادته اللقاء متعة .. وربما كان متأثرا فى تلك بحياته مع خديجة .. إنها تحس كأنه يريد منها نفس ما كانت تعطيه خديجة .. كأنه لا يزال يحبها ويتمنى أن يعيش أيامها ..

ورغم ذلك فهى تحبه ..

إنه الحب الذى استكملت به كل شخصيتها وتعيش به كل أنوثتها ..

ولكن ما مصير هذا الحب ؟

إن زوجها محمود سيعود إليها قريبا .. فهل تستطيع أن تعيش معه وهى تعيش مع عادل .. إنها لم تسأل نفسها هذا السؤال عندما كانت تعطى جسدها فى كندا لرئيسها كيرك .. لم يؤثر ذلك فى إحساسها بزوجها لأنها لم تكن تحب كيرك .. ولكنها تحب عادل ..

هل تصارح زوجها بكل شىء بعد أن يعود وتطلب منه الطلاق ؟!

قد يقبل زوجها أن يطلقها ..

ولكن ..

ماذا بعد الطلاق ؟!

إن عادل لن يتزوجها .. إنه يقول صراحة إنه لا يتزوج .. فهل تبقى هى وحدها بلا زواج .. ونيفين ونوال ماذا يكون مصيرهما .. هل تكونان معها أو مع أبيهما .. إنه قد يصمم على الاحتفاظ بهما وقد يتركهما لشقيقه ليتحكم فيهما .. وقد يعود بهما إلى كندا وتحرم منهما إلى الأبد ؟!

وتهز نجوى كتفيها .. إنها لا تدرى .. وتقوم وتشغل نفسها بأى

شىء حتى تهرب من تساؤلها وحيرتها .. لقد تعودت الاستسلام .. فلتبق كما هى مستسلمة للقدر ..

وأحيانا يخطر على خيالها زوجها محمود .. وتبتسم ابتسامة مسكينة .. غريبة .. إنها فى شوق إليه .. ربما كانت فى شوق إلى ما تعودته منه .. هذه الاستهانة بها .. وقلة الاحترام لكيانها .. واعتبارها كأنها مجرد شىء فى البيت لا يستحق أن يكون أكثر من مجرد شىء .. إن هذه المعاملة كانت تعفيها من المسئولية .. كانت تعفيها من الحاجة إلى كل ذكائها حتى تشترك فى مواجهة مشاكل الحياة .. كانت معه كأنها طفلة وكانت أحيانا تتمتع بهذه الطفولة التى يمنحها لها عندما تنسى أن من حقها أن تكون امرأة ناضجة كاملة .. والآن وهى وحدها .. إنها تحمل المسئولية كلها .. وتعيش شخصية كاملة .. وهى غارقة فى متاعب المشاكل .. متاعب كان يحملها عنها زوجها محمود ..

واتسعت الابتسامة المسكينة بين شفتيها وهى تنكر شوقها إلى محمود ..

ورفعت سماعة التليفون تتحدث إلى عادل ..

• • •

كانت الساعة حوالى التاسعة مساء ذات يوم عندما سمعت نجوى طرقا على الباب .. وفتحت ..

إنه شاب أجنبى يحمل بين ذراعيه ابنتها الصغرى نوال ..

ونوال تضحك ضحكات كالصراخ وهى تحاول أن تتملص من بين ذراعى الشاب ..

إنها سكرانة ..

• • •

١٠

فوجئت نجوى بأن التى تعود إليها سكرانة هى ابنتها نوال .. لو كانت نيفين لكانت المفاجأة أخف فقد سبق أن مرت أيام على نيفين فى كندا كانت تشرب فيها الخمر وكانت تدخن سجائر المارجوانا .. سجائر الحشيش .. وإن كان لم يحدث أبدا أن فقدت وعيها .. أما نوال فلم تتوقع أن تجدها يوما وهى سكرانة .. لقد كانت فى كندا تشرب أحياناً شفطتين من النبيذ الذى كان والدها يشربه مع طعام العشاء أو كانت تشرب معه شفطة من خمر « الجين » مخلوطة بعصير « التونيك » .. ولكنها لم تعلم عنها أبدا أنها يمكن أن تشرب الخمر خارج البيت ..

والتفتت نجوى متسائلة إلى الشاب الأجنبى الذى يحمل نوال .. إنه جونى .. أمريكى ابن أحد كبار العاملين الأمريكان الذين يقيمون فى مصر .. وهو طالب فى الجامعة الأمريكية ومن أصدقاء نيفين ونوال .. إنها تعرفه .. وقد سبق أن مر على البيت أكثر من مرة ليصحب نيفين أو نوال إلى إحدى الدعوات أو لمجرد قضاء الوقت .. وقال جونى بلهجته الأمريكية وهو يضع نوال على الأرض ويناولها لأمها :

ــ لقد أفرطت قليلا فى الشراب ..

وقالت نجوى وعيناها تشتعلان بثورة غاضبة :

ــ دعها .. شكرا ..

ثم أغلقت الباب وشدت ابنتها إلى الحمام ووضعت رأسها فوق

الحوض وفتحت الحنفية حتى آخرها وتركت المياه تنهال عليها .. وهى لا تكف عن الكلمات العنيفة الغاضبة تصبها على ابنتها .. ثم سحبت نوال إلى غرفة النوم وأرقدتها على الفراش وأخذت تدلك رأسها بالكولونيا تدليكا عنيفا كأنها تريد أن تحطم هذا الرأس .. وقالت وقد بدأت تهدأ :

— لماذا فعلت هذا ؟

وقالت نوال وهى تسترخى كأنها بدأت تعود من رحلتها التى حملتها إليها الخمر ..

وإن كانت كلماتها الإنجليزية لا تزال تترنح بين شفتيها :

— لقد كنت زهقانة وأردت أن أجرب أى شىء فجربت الويسكى .. شربت الزجاجة كلها ..

وقالت نجوى فى حدة :

— إن الخمر لا تريح من الزهق ولكنها تؤدى إلى الانتحار ..

وقالت نوال وهى تضحك ضحكة مخمورة :

— لم أفكر بعد فى الانتحار ..

وأخذت نجوى تخلع ثياب ابنتها وهى راقدة على الفراش .. واتسعت عيناها فى دهشة وهى ترى فوق صدرها بقعة زرقاء .. وصاحت كأنها تولول :

— ما هذا ؟

وقالت نوال فى برود :

— ماذا ؟

وعادت نجوى تولول :

— هذه البقعة الزرقاء فوق صدرك ..

ورفعت نوال صدرها ونظرت فيه ثم قالت بلهجة ساخرة :

— إنهم .. هنا يحبون العض .. كالكلاب ..

وقالت الأم وهى ترتجف :

— من هم ؟

وقالت نوال ساخرة :

— أولاد مصر ..

وقالت الأم كأنها تلهث :

— وماذا حدث بينك وبين هذا الذى عضك ؟

وقالت نوال بلا مبالاة :

— لا شىء أكثر من الطبيعى ..

وأخذت نجوى تخلع بقية ثياب ابنتها بأيد عصبية وهى تقلب فى جسدها كأنها تبحث فيه عن شىء أخر .. عن عضة أخرى .. أو عن أثر لرجل أخر .. وركزت عينيها فوق الساقين .. وهى تتساءل .. من يدرى .. ثم التفتت إلى ابنته وقالت فى حدة :

— نوال .. هل مازلت عذراء ؟

وقالت نوال فى صوت نائم :

— لماذا تسألين ؟

وقالت الأم صارخة :

— إنى أمك .. ومن حقى أن أعرف .. هل مازلت عذراء ؟

وقالت نوال فى برود :

— طبعا لا ..

وانهارت نجوى .. أحست بكل ما فيها ينهار .. وألقت بنفسها

جالسة فوق الفراش وهى تهمس :

ــ منذ متى ؟

وقالت نوال فى بساطة :

ــ من زمان .. منذ كنا فى كندا .. منذ عامين تقريبا ..

وابتسمت نجوى فى مرارة .. كأنها ابتسامة وداع .. ابتسامة فناء .. إن نوال فى الخامسة عشرة من عمرها أى أنها فقدت عذريتها وهى فى الثالثة عشرة .. نوال الهادئة الصامتة .. إنها كانت دائما لا تطمئن عليها ولا تطمئن إلى هدوئها وصمتها .. وقالت كأنها تحادث نفسها :

ــ ولكنك لم تخبرينى أيامها ..

وقالت نوال وهى تتقلب على الفراش :

ــ لم يكن هناك داع لأخبرك ..

وقالت الأم وكأنها تتعلق بأمل ينقذها من انهيارها :

ــ إن أختك لا تزال عذراء .. وحريصة على أن تبقى عذراء ..

وقالت نوال وهى تعود وتتقلب على الجانب الآخر ..

ــ إنها لا تريد .. أما أنا فقد كنت أريد ..

وسكتت نجوى .. وقامت وألبست ابنتها ثياب النوم وهى تتجنب أن تسقط عينيها على هذه البقعة الزرقاء فوق صدرها .. وغطتها .. وخرجت من الغرفة وأغلقت وراءها الباب .. وانهارت على مقعد دون أن تسعفها دموعها لتخفف عنها ..

ليس من حقها أن تثور أو تغضب .. إن ابنتها لم تخطىء .. لم ترتكب إثماً .. لقد ولدت وعاشت فى مجتمع يطلق للبنت حرية التصرف فى جسدها منذ أن تشعر بأنوثتها .. بل إن الأمهات فى كندا يحثن

بأنفسهن عن أولاد يصادقون بناتهن ويصحبوهن كل يوم سبت وأحد .. الأم التى لا تجد لابنتها صديقا تلطم خديها وتبكى على ضياع مستقبل البنت .. وهى لم تكن تبحث لابنتيها عن أصدقاء ولا تتمنى أن يكون لأى منهما صديق لأنها مصرية .. والمجتمع فى مصر يفرض أن تكون الصداقة بين البنت والولد سرا لا تدرى به ولا تعترف به العائلة ولا المجتمع .. وهم هناك فى كندا يفرقون بين الجنس والزواج .. الجنس شىء .. والزواج شىء آخر .. و البنت حرة جنسياً إلى أن تتزوج .. الزواج هناك لا يشترط أن تكون الزوجة بكراً .. إن الزواج هناك ليس مجرد عملية بيع وشراء ويشترط الشارى فى البضاعة ألا تكون مستعملة .. ألا يشترى فتاة « سكند هاند » .. ولكنهم فى مصر يعطون للزوج حق المشترى وحق فرض الشروط على البضاعة التى يشتريها .. وأولها أن تكون الفتاة عذراء .. بكرا .. حتى لو كان هو قد عاش حياته كلها فى طين الجنس .. وقد عاشت ابنتاها فى المجتمع الآخر .. عاشتا طبيعة هذا المجتمع وتقاليده وأسسه .. فلماذا تلوم ابنتها نوال لأنها فرطت فى بكارتها ؟ ولكنهم الآن فى مصر .

لسن فى كندا ..

من يرضى فى مصر أن يتزوج فتاة ليست عذراء ؟

ماذا تستطيع أن تفعل ؟

إنها هى السبب لأنها طول حياتها لا تستطيع أن تفعل شيئا .. إنها دائما مستسلمة للقدر يفعل بها ما يشاء دون أن تحاول أن تفعل هى شيئا .. أن تفرض إرادتها .. لم يكن لها أبداً يد تستطيع أن تمسك بها مصيرها ومصير من حولها ..

ورفعت يدها أمام عينيها وخيل إليها أنها لا ترى إلا أصابعها .. أصابع بلا يد .. أصبع تقول إنها زوجة ولكن لم يكن لها أبداً اليد التى تمسك بزوجها .. وأصبع تقول إنها أم .. و لم يكن لها أبداً اليد التى تمسك بها بابنتيها وتنشئهما وتحدد مصيرهما كما تريد .. وأصبع تقول إنها ذكية ولكن لم يكن لها أبداً اليد التى تستطيع أن تجمع فيها ما يعطيه ذكاؤها .. وأصبع تقول إنها تستطيع أن تعمل وتكسب .. ولكن ليس لها اليد التى تستطيع بها أن تخلق شخصية المرأة العاملة .. وهذه الأصبع .. إنها أصبع تقول إنها عاشت طول عمرها تحلم بعادل وأنها تعطى لعادل ما يريد .. ورغم ذلك فهى لم تمسك أبداً بعادل .. ليس لها اليد التى تمسكه بها ..

يجب أن تخلق لنفسها يدا تحقق بها ما تريد ..

يجب أن تغير شخصيتها وتقاوم فى طبيعتها هذا الاستسلام ..

ماذا تريد ؟

وربما كان أول ما تريده هو أن تعود إلى كندا .. إنها تائهة فى مصر .. لا تستطيع أن تعيش فيها كما تعيش فى بلدها .. إن بلدها كندا .. إن المجتمع هناك فرض عليها نفسه حتى أصبحت كندا هى بلدها والبنتان تعيشان فى مصر كأنهما غريبتان .. فشلت كل المحاولات التى بذلتها لإدماجهما فى المجتمع المصرى .. حتى عندما كانت إحداهما تصادق شابا مصريا كانت تتبادل معه التعامل كغرباء .. هى تعاملة كغريبة وهو يعاملها كأنها سائحة من بلد آخر .. ربما كان هذا هو السبب فى أن نوال لم تستطع أن تتقى عضة صديقها المصرى .. لم تكن تعلم أن الرجال المصريين يعضون ..

ودخلت عليها ابنتها نيفين وقد عادت متأخرة .. لا يهم .. إنها

حرة ..

وقالت نيفين بعد أن قبلت أمها :

ـ ماذا قال بابا فى خطابه الأخير ..

وقالت نجوى وهى لا تزال تائهة فى أفكارها :

ـ قال إنه سيأتى لقضاء أجازته معنا خلال هذا الشهر .. ولكنه لم يحدد يوم ولا موعد وصوله ..

وقالت نيفين وهى ترفع عينيها فى إصرار :

ـ عندما يأتى سأطلب منه أن نعود إلى كندا .. وإذا لم يستطع فسأعود وحدى .. سأقيم هناك وحدى وأعمل وأكسب .. وأريدكم أن تعلموا ذلك ..

نيفين أيضا قررت العودة إلى كندا ..

ولكن لماذا تتمنى هى العودة .. وماذا يمكن أن يضعفها حتى لا تعود ؟!

ربما كان ما يضعف كل شخصيتها هو أنها تهرب دائما إلى خيالها .. ومن المسئول عن هذا الخيال ؟!

ما الذى عودها على أن تعيش خيالها هربا من واقعها ؟!

لا شك أنه عادل .. تقصد حبها لعادل .. إنها منذ أحبته وهى صبية فى السادسة عشرة من عمرها وهى معه بخيالها حتى كانت تكتب له خطابات دون أن تنتظر عليها ردا .. لا .. إنها لم تكن تعيش هذا الخيال ولكنها كانت تهرب إليه .. تهرب من ضعفها أمام زوجها أمام ابنتيها وتختبى فى خيالها مع عادل حتى لا تحاول أن تكون لها يد تمسك بها الزوج والبنتين .. حتى بعد أن جاءت إلى مصر .. جاءت إلى عادل وأصبح

واقعا قائما فى حياتها .. أبداً إنه ليس واقعا .. إن كل ما بينهما خيال .. تتخيل أن كلها له وكله لها .. وتتخيل أنها ست البيت الذى يجمعهما .. وتتخيل أنها تشترى لوازم هذا البيت وتوفر الحياة له داخل هذا البيت .. تتخيل .. وتتخيل .. وليس لها اليد التى تستطيع أن تمسك بها هذا الخيال .. اليد التى تمسك بها عادل .. لأنها ليس لها يد .. لها أصابع بلا يد ..

ربما كان أول ما يجب أن تبدأ به حتى تملك القوة التى تحقق بها إرادتها هو أن تتخلص من خيالها .. أن تتخلص من عادل ..

لا ..

لا يمكن ..

إنها تحس بشخصيتها كاملة وهى تعيش معه .. حتى لو كانت تعيش فى خيال .. وتحس بواقع لا يمكن أن تستغنى عنه .. واقع أنوثتها .. واقع النشوة التى تلفها وهى بين أحضانه ..

ولكنها يجب أن تقرر ..

يجب أن تختار ..

إنها لن تستطيع أن تعيش مع زوجها وهى تحب عادل .. ولن تستطيع أن تعيش مع عادل لو طلقت من زوجها ..

وهى لن تستطيع أن تتفرغ لإعداد مستقبل البنتين وهى تائهة عنهما بخيالها ..

يجب أن تقرر .. يجب أن تثور على الاستسلام ..

وقضت أياماً طويلة وهى حائرة .. وحيرتها تفتت أعصابها وتقرص فى خلاياها حتى كانت تتأ لم وتحس أنها مريضة وتقوم وتجرى إلى الحمام

ـفياً ..

وقد تعمدت فى هذه الأيام ألا تتصل بعادل ولا تحادثه فى التليفون ..

ـب أن تكون من القوة بحيث تتخذ القرار أولا :

— ولأول مرة فى حياتها تنتصر على الاستسلام وتتخذ القرار لنفسها .. لن تكون لعادل .. وستبتعد عنه حتى تبتعد عن كل خيالها ..

ولكن كيف ؟

ستصارحه .. ستقول له كل شىء ..

وذهبت إليه .. ولم تحس وهى تدخل بأنها ست البيت .. لم تحس خيالها .. إنها تدخل وهى تحس أنها غريبة .. واختارت أن تجلس على مقعد بعيد عن الأريكة الطويلة العريضة ..

وقال عادل ووجهه كله يبتسم هذه الابتسامة الهادئة :

— لقد تأخرت طويلا .. أين كنت ؟

وقالت وهى لا تنظر إليه كأنها لا تستطيع أن تواجهه بصراحتها :

— لقد تعمدت أن أتأخر .. وتعمدت ألا أتصل بك .. فقد كنت فى معركة ..

وقال عادل من خلال ابتسامته :

— أى معركة ؟

وقالت وهى تحاول أن تكون لهجتها جادة :

— معركة بينى وبين نفسى .. أنا لا أستطيع أن أستمر يا عادل ..

وقال عادل حائرا :

— تستمرين فى ماذا ؟

وقالت فى صوت خافت :

ـــ أن أستمر معك ..

وقال عادل ودهشة المفاجأة تمزق صوته :

ـــ لماذا ؟

وقالت نجوى فى صوتها الخفيض :

ـــ لأنه لا أمل ..

وقال فى لهجة غاضبة :

ـــ إن الأمل فى مجرد الاستمرار .. استمرارنا معا .. أنت وأنا ..

قالت وهى تنظر إليه فى رجاء ألا يغضب :

ـــ الأمل لا يكون إلا إذا كنت لك وحدك ..

وقال وصوته يرتفع على هدوئه :

ـــ لقد كنت لى قبل أن تتزوجى .. وكنت لى بعد أن تزوجت وقبل أن تسافرى .. وعدت من السفر لتكونى لى ..

وقالت فى أسى كأنها ترثى نفسها :

ـــ قبل أن أتزوج كنت لك بخيالى .. وقبل أن أسافر كنت لك فى لحظة وداع .. وسافرت فعدت إلى خيالى وعشت فيه سنوات طويلة .. والآن أنا لك فى حالة تجربة جديدة .. ولا أعتقد أن التجربة يمكن أن تستمر .. إنى أحبك يا عادل .. ولأنى أحبك فقد أصبحت متأكدة أنى لن أحتمل زوجى بعد أن يعود وأنا لك .. وسيعود بعد أيام .. ويجب أن أختار بينك وبينه حتى تستمر بى الحياة ..

وقال وهو ينظر إليها كأنه يتهمها :

ـــ هل تريدين أن نتزوج ..

وقالت بسرعة كأنها تستغيث :

ـــ لا .. لا .. لم أفكر أبداً فى أن نتزوج .. منذ أحببتك وأنا أعلم أننا لن نتزوج .. أحببتك بطبيعة شخصيتك التى تحرم عليك الزواج .. ثم إنه ليس زوجى وحده الذى يقيد حقى فى أن أعيش الحب .. إنهما البنتان أيضاً .. وقد سبق أن قلت لى إنك ترفض أن يصل الحب إلى حد التضحية بالأولاد ..

ووقف أمامها حائراً كأنه غير مقتنع بما تقوله ولا يدرى ما ألم بها ، ثم قال كأنه اكتشف خيطاً جديداً :

ـــ إنى أعلم السبب .. لقد حملتك كل مسئوليات البيت ومطالبى لا تنتهى .. إنى أنانى .. ولكنها أنانية الحب .. وأنت معذورة فى أن تضيقى بهذه المسئولية بجانب مسئوليتك عن بيتك وابنتيك وأنت وحدك .. اسمعى .. من اليوم أنت لست مسئولة عن البيت .. سأكتفى بك كست بيت فى إحساسى بك .. ولن أطلب منك شيئاً أبداً ..

وقالت وهى تبتسم ابتسامة رثاء :

ـــ لقد كنت أعيش مسئوليتى عن بيتك .. بيتنا .. وكانت أمتع لحظاتى عندما أشترى لك .. وكان ما يعذبنى أنى لم أستطع حتى اليوم أن أشترى غرفة النوم الجديدة .. ربما لأن الله كان يعلم أننا لن نستمر حتى تكون لنا غرفة نوم أو جهاز عروسة كما كنت تقول ..

واقترب منها أكثر ووضع ذراعيه حولها وقال :

ـــ لقد كنا نقول إن ما بيننا لن ينتهى ..

وقالت وهى مستسلمة بين ذراعيه :

ـــ إنه لن ينتهى .. لن ينتهى إحساسى بك .. إنه إحساس العمر كله ..

وركز عينيه على السلسلة الذهبية المعلقة على صدرها .. إنها لم تخلعها .. إنها لا تزال له .. وانحنى بشفتيه يحتضن شفتيها .. ومد أصابعه يمسح على شعرها .. ثم أخذ شفتيه إلى عنقها .. وبدأت أصابعه تفك أزرار ثوبها .. وهى مستسلمة .. ولكن .. غريبة .. إنها لا تستطيع أن تهيم وتنسى نفسها كما تعودت .. إنها لا تحس بالنشوة التى تتسلل فى عروقها حتى ترتفع بها إلى القمة .. بل إنها لا تريد أن تغمض عينيها كعادتها .. إنها ترى فى خيالها ابنتها نوال .. وترى العضة الزرقاء فوق ثديها .. إن نوال ليست عذراء .. وأزاحته عنها برفق قبل أن يخلع ثوبها .. وقامت واقفة تعيد أزرار ثوبها وتساوى شعرها وهى تقول :

ـــ لا يا عادل .. لا أستطيع .. لا تغضب منى ..

وقال وهو يبتعد عنها وبين شفتيه ابتسامة هادئة :

ـــ لن أغضب .. ولكنى لا أستطيع إن أقاوم الحسرة .. وأنت تعلمين أنى فى حاجة إليك ولكن حاجتى لا يمكن أن تتحقق إلا إذا التقت مع حاجتك .. وأنت رائعة .. فقد عبرت بصراحة عن حاجتك ..

وشبت على قدميها وقبلته قبلة سريعة على خده وقالت :

ـــ ستسمع عن أخبارى .. ودعنى أسمع أخبارك ..

وخرجت من الباب ووضعت نفسها فى المصعد ..

عجبا ..

إنها سعيدة ..

ربما كانت سعيدة بإحساسها بقوتها .. قوتها على نفسها ..

ومدت أصابعها إلى عنقها وخلعت السلسلة الذهبية .. وأطالت إليها النظر .. لقد ظلت هذه السلسلة معلقة حول عنقها وفوق صدرها

عشرين عاما .. أكثر .. كأنها نزعت من حول عنقها عمرها كله ..

إنها اليوم تستطيع أن تعيش عمراً جديداً ..

تعيش الواقع بلا خيال ..

وكانت تسير فى خطوات قوية سريعة كأنها تجرى لاستقبال زوجها محمود ..

* * *

١١

كانت نجوى وهى فى انتظار وصول زوجها تحاول أن تعيش الشخصية الجديدة التى قررتها لنفسها .. شخصية ست البيت والأم المتفرغة تفرغاً كاملاً بكل فكرها وبكل إحساسها للبيت وللبنتين .. ولم تكن تتعمد أن تفرض هذه الشخصية فرضاً على ابنتيها .. ولكنها بدأت تشاركهما حياتهما أكثر .. حياتهما خارج البيت .. فتتعمد أن تذهب معهما كثيراً إلى النادى .. وتذهب لزيارتهما فى الجامعة كلما وجدت مناسبة لزيارتهما .. وتحاول أن تقنعهما بأن تدعُوَ كل منهما أصدقاءها وصديقاتها إلى البيت .. وتقف هى بينهم مرحة ضاحكة تعد لهم الشاى وأحياناً زجاجات البيرة ..

كان كل ما يهمها أن تعرف هؤلاء الأصدقاء والصديقات معرفة شخصية ثم تحاول أن تعرف عائلاتهم معتقدة أن هذا هو الطريق الوحيد للاطمئنان على ابنتيها .. وأكثر من ذلك .. لقد استطاعت أن تلتحق هى نفسها بالجامعة الأمريكية لدراسة إدارة الأعمال .. ولم يكن يهمها الدراسة ولكنها كانت تريد أن تكون قريبة من ابنتيها .. وهى كالعادة مطمئنة على نيفين مع جرأتها وصراحتها أكثر من اطمئنانها على نوال .. وقد وصلت نيفين بحيويتها إلى حد أنها وجدت بجانب دراستها عملاً لنفسها فى مكتب تابع لإحدى شركات البترول الأمريكية .. ووافقت نجوى على أن تعمل نيفين ولكنها أخذت تتسلل حتى عرفت أصدقاءها فى

هذا المكتب وعرفت الصديق الذى اعتمدت عليه حتى حصلت على العمل .. ولم يكن هذا صعباً فنيفين صريحة تقول كل شىء .. ونوال كما هى .. هادئة صامتة .. لا تراها بجانبها إلا وهى تقرأ .. فإذا ابتعدت عنها لا تعلم عما تفعله شيئاً .. حتى أصبحت تتعمد ألا تبتعد عنها .. فإذا قالت لها إنها ذاهبة إلى سينما النادى أجابتها وهى تفتعل المرح .. إنى أتمنى أن أشاهد هذا الفيلم .. وتذهب معها فعلا .. وقد لا تجلس بجانبها وتتركها لأصدقائها وصديقاتها . ولكنها مطمئنة إلى نوال ما دامت تشعر بوجودها فلن تختفى مع شاب لتنام معه وتعود معضوضة كما حدث .. إلى أن اضطرت يوماً أن تصارح نوال بأنها تتعمد أن تراقبها وتحميها من نفسها ..

كانت نيفين قد أعلنت أنها ستذهب فى رحلة إلى الإسكندرية مع أصدقائها وصديقاتها وقد تغيب ليلتين أو ثلاثاً .. ووافقت نجوى .. وبعد أسابيع جاءت نوال لتعلن أنها ذاهبة فى رحلة إلى الإسكندرية أيضاً .. ورفضت الأم .. لا يمكن .. إذا أصررت على السفر فسأسافر معك .. وثارت نوال على غير طبيعتها الهادئة الصامتة .. وصاحت :

— لماذا يكون من حق نيفين أن تسافر وليس من حقى السفر ..

واضطرت نجوى أن تصارحها قائلة :

— إنى أطمئن على تصرفات نيفين ولا أطمئن على تصرفاتك ..

وقالت نوال فى غيظ :

— لأنك تحبينها أكثر ..

وقالت نجوى فى حدة :

— لا .. ولكنها لا تمرمط نفسها وتمرطنى وتمرمط العائلة كلها

معها ..

وقالت نوال ساخرة :

ـ لأنها عذراء .. أليس كذلك .. أنا لم أمارس حريتى فى الإسكندرية ولا فى القاهرة .. لقد كنت هناك فى كندا .. والحرية ليس لها بلد .. وما يمكن أن أفعله فى الإسكندرية يمكن أن أفعله فى القاهرة وفى هذا الشارع بل فى هذا البيت .. أنت جاهلة يا أمى .. لا معنى لأن تخافى علىّ لمجرد أنى أريد أن أذهب مع أصدقائى فى رحلة ..

وطال النقاش .. ونجوى تعلم أن المجتمع فى كندا لا يمكن أن يحرم بنتا من الذهاب فى رحلة مع بعض الشبان خوفا عليها من الاتصال الجنسى .. إن كل شيء متروك فى هذا المجتمع لإرادة البنت .. المجتمع الذى ولدت وعاشت فيه نوال ..

واضطرت نجوى أن تستسلم وأن تترك نوال تذهب وحدها مع أصدقائها إلى الإسكندرية .. ربما خافت أن تذهب رغما عنها أو تهرب كما سبق أن هربت أختها .. وعندما عادت لم تسألها شيئاً ولكنها افتعلت كأنها تساعدها فى خلع ثيابها لتكشف عن جسدها ولتطمئن إلى ما يمكن أن يكون قد حدث به وأنه لا يحمل عضة أخرى .. وابتسمت ابتسامة حزينة كأنها ترثى نفسها .. إنها لا تستطيع أن تتخلص من أصلها .. أصل المجتمع المصرى لتعيش مع ابنتها بإحساس وتقاليد المجتمع الكندى .. إلا مضطرة ..

وكانت نجوى تجلس أحياناً وحدها وتتحسس صدرها ولا تجد السلسلة الذهبية .. إن عادل ليس على صدرها ولكنه لا يزال داخل قلبها .. وترفع سماعة التليفون وتحادثه .. وتجد كل حديثها معه ينصب

[عـ]ـل أخبارها وأخبار ابنتيها وعلى متاعبها فى إدارة بيتها .. وربما تحس بزهق [عـ]ـادل من هذا الحديث .. إن البنتين ليستا ابنتيه وبيتها ليس بيته وأخبارها أصبحت منفصلة عنه .. ولكنها لا تستطيع أن تحدثه فى شيء آخر .. لا [تـ]ستطيع أن تحدثه عما تعده له لأنها لم تعد له شيئاً .. أو عما تريد أن [تـ]شتريه لبيته لأن بيته لم يعد بيتها .. ولا تستطيع حتى أن تتحدث عن ذكرياتها معه لأنها تهرب من هذه الذكريات .. وكان ينهى حديثه سائلا [فـ]ـى هدوء :

ـ متى أراك ..؟

كان يقولها فى يأس كأنه يجاملها بهذه الكلمة .. مجرد مجاملة :

وتجيبه وهى أيضاً مجاملة :

ـ سأقول لك عندما أستطيع ..

ولم تستطع أبداً ..

قررت ألا تستطيع ..

إلى أن وصل زوجها محمود ..

وذهبت تستقبله فى المطار ومعها ابنتاها وأخوه إبراهيم وبقية أفراد عائلته .. وكانت فرحة .. ليست فرحة به .. ولكنها فرحة كأنها وجدت بوصوله راحتها ونهاية كل مشاكلها ..

لم يقبلها محمود وهى فى استقباله وإن كان قد قبل ابنتيه .. ولم تهتم .. إنه لم يتعود تقبيلها حتى عندما ينام معها .. وانحدف كله إلى أخيه وأفراد عائلته الذين لم يرهم منذ سنوات طويلة ..

وبدأت نجوى تحس بعد وصول زوجها بأنها تعيش فى مصر فعلا كأنها لم تصل إلى مصر إلا معه .. فالدعوات تلاحقهم كل يوم للاحتفال

به .. دعوات من أفراد عائلته ومن أفراد عائلتها .. وأصدقائه .. إنه مصمم على أن يستعيد كل أصدقائه القدامى الذين عاش معهم قبل أن يهاجر إلى كندا .. وهو يقبل الدعوات أو يقرر أن يدعو دون أن يستشيرها .. إنها لا تزال بالنسبة له مجرد شيء رغم ما تبذله لتفرض عليه شخصيتها الجديدة .. وتستسلم له وتخرج معه كل يوم وهي تحس أنها ترى العائلات المصرية من جديد .. ترى العائلات وتسمع الأحاديث والكلمات والعقلية التي كانت قد ابتعدت عنها وهي في كندا ولم تحاول أن تستعيدها عندما عادت إلى مصر وحدها .. ولم تستطع مع عودة زوجها أن تستمر في مقاطعة أخيه وزوجته .. وبالعكس .. انفتحت الأبواب بين الشقتين وأصبح أخوه وعائلته عندهم أو هم عندهم .. وتحملت .. استعانت بكل ما تطيقه أعصابها من نفاق ومظاهر كاذبة حتى لا تتسبب في مشكلة بين الأخوين ..

وكانت تعيش في انتظار المناسبة التي تفاتح فيها زوجها بإصرارها على العودة للإقامة في كندا .. وكانت تنتظر أن يشبع من فرحته بالعودة إلى مصر حتى يكون في حالة يسهل معها إقناعه .. ولكن ابنتها نيفين سبقتها وقالت في بساطة وهي تبتسم كأنها تدلله بابتسامتها :

— بابا .. إلى متى تستمر إجازتك ؟!

قال باهتمام :

— الإجازة شهران ..

قالت في مرح :

— وبعد الإجازة ..

قال وهو يحتضنها بعينيه :

— سأعود إلى نيجيريا طبعا ..

وقالت بسرعة :

— ونحن ..

قال وكأنه يتعجب :

— ستبقون هنا طبعا ..

قالت وقد اختفى مرحها في لهجة جادة :

— أفضل أن نعود إلى كندا .. يجب أن نعود ..

قال في دهشة :

— لماذا ؟

قالت في حدة كأنها تهم بالبكاء :

— لأني لا أستطيع أن أعيش هنا . إني هنا غريبة ومهما حاولت سأبقى غريبة .. ولن أجد نفسي إلا هناك ..

وقال أبوها وقد بدأ هو الآخر يحتد .

— ماذا ينقصك هنا .. ماذا تريدين ..

قالت وصوتها ينطلق بعنادها :

— لا ينقصني شيء ولا أريد شيئا .. ولكني مصممة على العودة ..

وصرخ أبوها :

— لن تعودي .. حياتنا أصبحت هنا .. وكل ما تريدينه ستجدينه هنا ..

وصرخت نيفين :

— إذن سأعود وحدي .. إني لم أعد في حاجة إلى الاعتماد عليكم .. سأذهب وحدي .. وأعيش وحدي .. وأعمل وأكسب وحدي .. هل

تعرف لماذا التحقت بالعمل فى هذا المكتب الذى أعمل فيه الآن .. لأدخر ثمن تذكرة الطائرة إلى كندا إذا اضطررت أن أسافر وحدى ..

وتردد الأب برهة كأنه تذكر أيام هربت نيفين من البيت فى كندا وعاشت وحدها أكثر من أسبوعين .. ولكنه عاد يصرخ :

— لن تستطيعى السفر وحدك .. لن تستطيعى الهرب مرة أخرى .. لا تنسى أننا فى مصر وأنى مازلت مصريا .. وفى مصر يستطيع الأب أن يمنع ابنته من السفر ..

وقالت نيفين ساخرة :

— أنا لست مصرية .. أنا كندية .. وجواز سفرى كندى ..

وصاح الأب :

— يكفى أن أباك مصرى ..

وقالت نيفين وهى تبتعد عنه وتختفى :

— سأجد وسيلة للسفر وأسافر وحدى .. إنى فقط أردت أن تعلم أننى قررت السفر ..

وألقى محمود رأسه بين يديه كأنها سقطت من ثقل الصداع الذى قذفته به ابنته .

وقال هامسا :

— لا أدرى كيف أتعامل مع هذه البنت ؟

وقالت نجوى ضاحكة كأنها تخفف عنه :

— إنها قطعة منك .. وفيها كل ما فيك .. الجرأة والمغامرة وإن كانت أحياناً تبدو مجنونة .. لا شك أنك كنت تتعب أباك أكثر مما تتعبك نيفين .. ومع ذلك فهى على حق ..

وقال فى سخط :

— أى حق ؟

وقالت مبتسمة :

— حقها فى أن تعود إلى كندا .. كلنا نريد العودة .. أنا ونيفين ونوال .. كلنا تعيش هنا كغرباء ..

وقال وهو ينظر إليها فى استهانة كعادته ويقوم مبتعداً عنها :

— اسكتى أنت .. إنك لا تفهمين شيئا ..

وتحملت استهانته بها وهى سارحة مع أفكارها .. هل تقول له لماذا تريد العودة إلى كندا .. هل تقول له إن ابنته نوال ليست عذراء .. هل تقول له إنها تريد أن تعود بها إلى مجتمع لا يشترط عذرية البنت ولا تفقد البنت أمامه شيئا لو فقدت عذريتها .. هل تقول له إنها تريد أن تعود بها إلى مجتمع يتم فيه الزواج دون أن يشترط الزوج أن تكون من يختارها بكرا .. إنها تريد أن تتزوج نوال هناك حتى لا تعودها على الكذب والخداع إذا أخذتها لطبيب ليضع لها عذرية كاذبة إذا تزوجت فى مصر ..

لا لن تقول له شيئا عن نوال .. إن محمود رغم مظهر شخصيته وعقليته لا يزال مصريا قحا .. وقد يصدم عندما يعرف أن ابنته ليست عذراء حتى يجن أو يجننها ..

ولكن حديث العودة إلى كندا لم يتوقف .. الثلاثة يثيرونه معه فى كل مناسبة .. حتى نوال الهادئة الصامتة تتكلم وتلح فى العودة إلى كندا ..

وقالت له نجوى يوما :

— اسمع يا محمود .. إننا نستطيع أن نؤجر هذه الشقة مفروشة إذا

سافرنا .. وسنحصل على إيجار لا يقل عن خمسة آلاف دولار فى السنة .. ونستطيع أن نخصص هذه الدولارات لنشترى بها تذاكر طائرة نعود بها لزيارة مصر كل عام،أو مرتين فى العام ..

وقال محمود وهو ينظر إليها كأنه دهش من أنها تعطى لنفسها الحق فى تخطيط حياتها :

ـــ إنى قررت الإقامة فى مصر نهائياً .. لقد درست الأسواق هنا وتحادثت مع كثير من الأصدقاء واقتنعت أن كل شىء فى مصر يتغير وأصبحت فرص المشاريع واسعة .. وسأبقى فى نيجيريا عاما آخر ثم أعود إلى مصر وأبقى إلى الأبد ..

وقالت نجوى وهى تغريه بابتسامتها :

ـــ إن المشاريع فى كندا لا تنتهى أيضاً .. وأصدقاؤك فى كندا أكثر من أصدقائك فى مصر .. ثم إن بيتنا لا نزال نملكه هناك فالحياة سهلة .. ونطمئن أكثر على البنتين ..

وقال محمود وكأنه يحلم :

ـــ تحقيق المشاريع فى مصر أسهل من تحقيقها فى كندا .. إنك لا تعلمين ماذا يحدث فى مصر .. بعض الذين أعرفهم أصبحوا من أصحاب الملايين .. وملايين الدولارات لا ملايين الجنيهات ..

وقالت نجوى كأنها تتوسل إليه :

ـــ دعنا نعد إلى كندا ونقيم هناك عاما واحدا إلى أن تنتهى من عملك فى نيجيريا ثم نقيم كلنا فى مصر ..

وقال محمود مستهيناً بها :

ـــ دعينى أفكر لعلى أقتنع .. وستبقون فى مصر إلى أن أقتنع ..

* * *

وعاد إليها محمود يوما ووقف أمامها ينظر إليها نظرة ساخرة ثم ملأ لنفسه كأساً من الكونياك وجلس يشرب إلى أن فاجأها قائلا :

ـــ هل تعرفين رجلا يدعى عادل .. عادل مسعود ؟!

وارتجت نجوى وأحست برأسها يشتعل حتى رفرفت جفونها فوق عينيها ثم جمعت كل أعصابها لتركز حول ذكائها هل تفكر ..

* * *

١٢

كانت نجوى قد سكتت برهة تائهة مع ذكائه لتجد ما تقوله .. وعاد زوجها محمود يسألها فى برود :

ــ هل تعرفين رجلا اسمه عادل مسعود ؟

وقالت وهى تفتعل ابتسامة تعلقها بين شفتيها :

ــ أعرف ..

وقال محمود والرنة الساخرة فى كلماته :

ــ كيف عرفتيه ..

وقالت وهى تدعى البساطة :

ــ عرفته منذ كنت طفلة .. إنه يسكن بجوار بيت أمى .. إنه رجل كبير ..

وقال من خلال ابتسامة أقرب إلى ابتسامة احتقار :

ــ ماذا بينك وبينه ..

ونظرت إليه نجوى وكأنها قررت أن تغير موقفها وقالت بحدة :

ــ ماذا تقصد ؟

قال ساخراً :

ــ أقصد ماذا بينك وبينه .. صداقة عائلية .. أم صداقة شارع .. أم صداقة فراش ..

وقالت وهى أشد حدة وكأنها قررت أن تكون فى قمة قوتها :

ــ ما الذى يجعلك تسأل وتقول هذا الكلام ..

قال فى برود :

ــ سمعت أن لك عشيقاً اسمه عادل مسعود ..

وقالت وهى لا ترخى عينيها عنه :

ــ سمعت ممن .. من قال لك هذا الكلام ..

قال وهو ينظر إليها فى احتقار كأنها لا تستحق حتى أن يكون لها عشيق :

ــ لا يهم من قال .. المهم ما تقولين أنت ..

وقالت صارخة :

ــ إنى أستطيع أن أقول لك أى كلام .. ولكنى لن أقول لك شيئاً إلا إذا عرفت من قال لك .. إننا نسمع الكثير ولكننا لا نستطيع أن نصل إلى شىء إلا إذا عرفنا ممن نسمع .. ولن نستطيع أنا وأنت أن نصل إلى شىء إلا إذا قلت لى ممن سمعته ..

وأخذ ينظر إليها كأنه يحاول اكتشافها ثم قال كأنه تخلص من تردده :

ــ سمعت من أخى إبراهيم ..

وعبرت سحابة سوداء أمام عينيها .. لم تكن تنتظر أن يصل إبراهيم إلى هذا الحد من السفالة .. لقد كان يراقبها دون أن تدرى .. وربما كان يتعقبها عندما كانت تذهب إلى عادل .. هل تقول لزوجها ماذا حاول أخوه معها عندما انفرد بها فى باريس منذ عشرين عاما .. لا .. إنه لن يصدقها .. ربما لو كانت قد قالت له أيامها أى فور وصولها من كندا لصدقها .. أما الآن وبعد أن سكتت كل هذه السنوات فسيعتقد أنها تتهم أخاه حتى تنفى التهمة التى يوجهها أخوه لها ..

وافتعلت الاستهانة وقالت وهى تلوى شفتيها قرفا :

ـــ ماذا قال لك إبراهيم ..

وقال وهو يهز كتفيه كأنه لا يبالى :

ـــ قال إنك على علاقة بهذا الرجل وإنه رآك مرة تذهبين إليه فى بيته وتبقين طويلاً ..

وقالت وهى تفتعل ابتسامة :

ـــ هذا صحيح .. لقد قلت لك إن عادل يسكن فى مصر الجديدة بجوار بيت ماما .. وأنا أعرفه منذ كنت صغيرة .. قبل أن أتزوجك بسنوات .. كل بنات الحى يعرفنه .. وكنا نتردد أحياناً على بيته لنلعب معه ونشرب زجاجات الكازوزة .. وقد قابلنى بالصدفة بعد كل هذه السنوات عندما كنت فى طريقى لزيارة أمى واتفقنا على أن أتناول معه الغداء كذكرى لأيام طفولتى .. هذا كل ما بيننا .. لو كان بيننا شىء كما يقول أخوك لما طلبت منك العودة إلى كندا لأن هذا الرجل فى مصر وليس فى كندا ..

وقال محمود فى برود :

ـــ ولماذا يكذب أخى .

وصاحت نجوى :

ـــ لأنه يكرهنى .. يكرهنا كلنا .. إنه يغار منك بسببى لأن زوجته جاهلة وقبيحة ودمها ثقيل .. صدقنى منذ تزوجنا وأنا أحس بكراهيته .. وبعد أن عدت من كندا بدأنا مشاجرات منذ اليوم الأول وقاطعته هو وزوجته .. ولم أتسامح معهما إلا بعد عودتك ومن أجل خاطرك وسأعود من اليوم إلى مقاطعتهما .. وأحب أن أقول لك إن السبب الذى يدعونى إلى الإلحاح عليك فى العودة إلى كندا هو أن أبتعد

من بلاوى أخيك وزوجته ..

وقال محمود فى برود :

ـــ ما بينك وبين أخى وزوجته لا يمسنى .. أنت حرة فى إحساسك حتى لو اختلف مع إحساسى بهما ..

وصرخت :

ـــ إنى لو بقيت فى مصر بعد مدة أجازتك فلن أبقى فى هذه الشقة .. سأقيم مع أمى فى مصر الجديدة حتى أبتعد عن وجه أخيك وزوجته .. وإذا أردت أنت أن تقيم فى مصر فإما أن تبقى معى عند أمى أو نبحث عن شقة أخرى غير هذه الشقة ..

وقال محمود وهو يرفع الكأس إلى شفتيه :

ـــ اعتبرى الموضوع منتهياً ..

وعادت نجوى تصرخ :

ـــ إنه لن ينتهى إلا إذا تركنا هذا البلد ..

وقال وهو يقوم ويتركها :

ـــ إنى لم أقتنع بعد بأن نترك مصر .. قلت لك إنك والبنتين تحت رحمة اقتناعى ..

وجلست وحدها تائهة بين الحيرة والغيظ الحيرة من زوجها والغيظ من أخيه إبراهيم ..

هل انتهت فعلا قصة عادل بالنسبة لمحمود .. نسيها .. لن يهتم بها .. إنها لم تحس أبداً بأنه يغار عليها .. ربما تطور فى كندا إلى أن اعتبر أن الزوجة حرة فى كل ما تريد مادامت لا تهمل واجبات الزوجية .. وهى تذكر موقفه من صديقها كبيرك فى كندا .. إن أحدا لم يحدثه عما كان

بينها وبين كيرك وربما لم يخطر على باله أن زوجته نامت مع هذا الصديق وأعطته جسدها ولكنه كان متساهلاً جداً مع كيرك وهو يبتذل فى التعامل معها أمامه إلى حد أن يشد شعرها ويلمس فخذيها .. بل كان يوصيها بأن تتقرب إليه أكثر لأنه رئيسها وقد تصل به إلى مزيد من العلاوات وارتفاع المرتب .. هذا هو الواقع .. إنه لم يكن يغار عليها أبداً فى حين أنه يغار بجنون على ابنتيه .. إنه يحس بها كزوج كندى متطور ويحس بأولاده كأب مصرى قح ..

ولكن ..

كيف استطاع شقيقه إبراهيم أن يكشف حكايتها مع عادل ..

ربما كان يتتبعها بسيارته وهى فى طريقها إلى مصر الجديدة دون أن تلحظه .. ربما رآها فى إحدى المرات التى كانت تخرج فيها مع عادل وتتناول طعام العشاء أو الغداء فى المحلات العامة .. إن ابنه نبيل وهو شاب فى التاسعة عشرة من عمره طلب منها مرة أن تصحبه معها فى سيارتها وهى ذاهبة إلى مصر الجديدة وكانت قد قالت إنها ذاهبة لزيارة أمها وقال هو إنه ذاهب لزيارة أحد أصدقائه .. ولكنه بقى معها إلى أن وصلت فعلا إلى بيت أمها ثم تركها .. ولعله وقف يومها بعيدا مختبئا إلى أن رآها تذهب إلى بيت عادل .. وربما انتظر أيضاً مختبئا حتى تركت عادل وعادت إلى البيت .. ثم نقل كل ذلك إلى أبيه .. إن إبراهيم سافل حقود إلى حد أن يسلط أولاده عليها لمراقبتها ..

ماذا تفعل الآن ..؟

هل تذهب إلى إبراهيم وتثير زوبعة فى وجهه وتهدده بأن تقول لزوجها ولزوجته ما حاوله معها فى باريس منذ عشرين عاما .. أم تذهب

إليه وتتوسل إليه أن يحفظ سرها ويرحمها من شره ؟

لا ..

إن هذا هو ما يريده إبراهيم .. أن تثير زوبعة لعلها تهدم بيتها .. لعله يتمنى أن ينتهى إلى أن يطلقها زوجها .. أو لعله يتمنى أن تتوسل إليه حتى لا يستمر فى فضحها فيفرض عليها ما يريده .. إنه لا يزال يريدها .. يريد جسدها .. يريد أن تكون له كما هى لأخيه ..

إن الطريق الوحيد حتى تفتك به وتغيظه هو أن تتجاهله .. كأنه لم يقل شيئاً لزوجها .. أو كأن ما قاله لم ينته إلى شيء .. كأن ما دفعه إليه حقده وسفالته لم يصل إلى قدميها ..

وتحسست صدرها كأنها تبحث عن سلسلة عادل .. إنها لم تواجه أى مشكلة عندما كانت تحمل هذه السلسلة .. لم تبدأ المصائب إلا بعد أن خلعتها من حول عنقها .. كأن سلسلة عادل كانت تحميها .. هل تعيدها .. هل تتصل بعادل فى التليفون كما تعودت أن تتصل به أو كما كانت تكتب له كلما صادفتها مشكلة .. لا .. لقد قررت أن تعيش حياة جديدة .. حياة بلا سلسلة ذهبية حول عنقها وبلا عادل ..

وبدأت تتعمد أن تبدو طبيعية أمام إبراهيم وزوجته وأولاده .. وهى تلمح الغيظ ينطق من كل خلجات وجهه كلما ضحكت أو ابتسمت أو قالت أى كلمة .. بل إنها تعمدت أن تكثر من دعوته إلى الغداء والعشاء فى شقتها .. وتلمح نظراته المحرضة يوجهها إلى أخيه كأنه يحثه على أن يفتح الموضوع .. موضوع الخيانة الزوجية .. ولكن زوجها محمود لا يفتح الموضوع .. وإن كان لم ينسه .. وقد كانت خارجة يوماً من البيت عندما قال لها ضاحكاً :

ـــ ما كل هذه الأناقة .. إلى أين أنت ذاهبة بأناقتك .. إلى مصر الجديدة ؟

وفهمت ما يقصده .. لقد قيل له إنها كانت تقابل عشيقها فى مصر الجديدة ..

وتجاهلت ما فهمته وقالت فى بساطة :

ـــ إنى ذاهبة إلى السوق لأشترى .. تعال معى ..

قال وهو لا يزال يضحك وصوته يقطر بالسخرية المرة :

ـــ ظننتك ذاهبة لزيارة أمك ..

قالت وهى تفتعل ابتسامة :

ـــ ذكرتنى .. تعال معى نزور أمى ..

قال من خلال ضحكته الساخرة :

ـــ لا .. إن أجمل ما فى الحرية التى أتركها لك هو أنها تعفينى من زيارة حماتى ..

قالت وهى تخرج وكأنها تريد أن تقول له إنها تفهم ما يقصده :

ـــ وبما أنى حرة فقد قررت ألا أزور أمى إلا معك ..

* * *

والحديث عن العودة إلى كندا لا ينتهى .. ومحمود لا يريـد أن يقتنع .. إلى أن جاءت نيفين مرة وجلست مع أمها وفتحت حقيبة يدها وأخرجت منها تذكرة طائرة وقالت فى صوت ينبض بجرأة شبابها :

ـــ لقد حجزت تذكرة الطائرة .. سأسافر بعد خمسة أيـام .. وحدى ..

ونظرت نجوى إلى داخل حقيبة ابنتها ورأت فيها جواز سفرها الكندى

فقالت صارخة :

ـــ ما الذى أعطاك هذا الجواز .. لقد كنت أحتفظ به فى درجى مع بقية الأوراق ..

وقالت نيفين فى برود :

ـــ لقد أخذته .. خفت أن يحتفظ به بابا ويحرمنى منه ..

وصاحت نجوى ..

ـــ لقد سرقتيه ..

وقالت نيفين وهى تبتسم كأنها تشفق على أمها :

ـــ إن الإنسان لا يسرق ما يخصه وما يمتلكه ..

وكتمت نجوى صراخها وقالت وهى تحاول ألا تبكى أمام ابنتها :

ـــ سأقول لأبيك .. ولا أدرى ماذا سيفعل .. وقالت نيفين بجرأتها وصراحتها ..

ـــ إنه حر فيما يفعل .. وأنا حرة .. سأسافر ..

وعندما قالت نجوى لزوجها محمود سكت .. وظل طول الليـل ساكتا .. لعله حائر فيما يمكن أن يفعله .. لعله يفكر فى أن يمسك بابنته ويضربها حتى يغمى عليها ثم يرميها فى غرفتها ويغلق عليها الباب بالمفتاح ولا يتركها إلا بعد أن تعدل عن السفر .. عن الهرب أو ربما يفكر فى الوسيلة التى يمكن أن يحرم بها ابنته من السفر .. لقد قال إن القانون فى مصر يعطى الأب حق منع ابنته من السفر ..

والبيت كله ساكت معه فى انتظار أن يتكلم ..

وفى الصباح نادى نيفين إليه والتفت حوله نجوى ونوال .. وقال وكل كلامه موجه إلى نيفين كأنها وحدها المسئولة .. هى الأهم :

ـــ لقد فكرت طويلاً وانتهيت إلى قرار .. إنى سأعود إلى عملى فى نيجيريا بعد عشرة أيام وسأبقى هناك عاما كاملا .. وقد قررت أن تعودوا إلى كندا .. لقد تعودتن على الحياة هناك .. وبعد أن ينتهى العام سنقرر من جديد أين نقيم ..

وانطلقت الفرحة على وجه الأم وابنتيها .. وانحدف الثلاثة يقبلونه ..

وقال دون أن يشاركهم فرحتهم وهو لا يزال يوجه كلامه إلى نيفين :

ـــ لا تعيدى تذكرة الطائرة .. ولكن عدلى موعد السفر حتى تسافرى مع أمك .. فإنى لست على استعداد لأن أشترى لك تذكرة مادمت قد سبقتينى واشتريت لنفسك تذكرتك .. ثم هناك وعد وأريده منك قبل أن أتخذ إجراءات السفر .. عدينى ألا تتخذى أى خطوة قبل أن تحاولى إقناعى وتتركينى أحاول إقناعك .. وبعد أن نعيش فى كندا عاماً إما أن تقنعينى بأن نبقى أو أن أقنعك بأن نعود إلى مصر .. أريد دائما أن تكونى ابنتى وأن أكون أباك ..

وقفزت نيفين وألقت نفسها فوق صدر أبيها وانهالت عليه بقبلاتها وهى تقول بفرحتها :

ـــ أعدك يا بابا .. أعدك ..

وسبقهم محمود بالسفر إلى نيجيريا .. وانتهت نجوى من إعداد كل شىء حتى إنها وقعت عقداً بإيجار الشقة مفروشة لمدة عام .. من يدرى ربما لن تعود إليها بعد عام ولا بعد العمر كله ..

وجلست سعيدة هادئة ليلة السفر .. يجب أن تحادث عادل .. ورفعت سماعة التليفون وسمعت صوته الحلو الهادىء .. وقالت :

ـــ غدا سنطير عائدين إلى كندا ..

قال وهو يضحك ضحكة خافتة :

ـــ سأنتظرك عشرين سنة أخرى .. لعلى التقى بك فى الجنة ..

قالت وكأنها تتنهد :

ـــ إنى مؤمنة بأننا نستحق الجنة .. هل سوارى لا يزال فى معصمك ..

قال فى رنته الحلوة :

ـــ وهل سلسلتى لا تزال فوق صدرك ..

قالت فى صوت حزين :

ـــ لقد خلعتها حتى أجرب أن أعيش وأنت بعيد عنى ..

قال فى هدوء :

ـــ إن ما يربطنا ليس السلسلة ولا السوار .. إن ما يربطنا لا ينتهى ..

قالت :

ـــ إنى أحاول أن أحيل ما يربطنا إلى ذكريات لا أعيشها ..

قال :

ـــ إن الإنسان لا يعيش ذكرياته عندما يكون له مستقبل يشغله عنها أما أنا فقد وصلت إلى سن الذكريات .. ليس لى مستقبل يعوضنى عن ذكرياتى ..

قالت :

ـــ إن أقسى ما أعانيه الآن هو أنى أقاوم أن آتى إليك لأراك ..

قال :

ـــ إن لقاءاتنا كانت عابرة ولكننا عشنا العمر كله معا فى خيال ..

قالت :

— إن خيالى كان دائما أقوى من واقعى .. وخيالى يعيش الآن فى لقياك .. وما أقاومه هو خيالى حتى لا يأخذنى من واقعى ..

قال وهى تتصور ابتسامته وسط وجهه المبتسم كله :

— سنلتقى .. فى الجنة ..

وبكت وهى تودع أمها .. إنها لا تريد أن تعدها بأن تزورها فى كندا .. ولا تدرى هل ستراها ثانية أم أنه وداع إلى الأبد .

ووقفت فى المطار تصافح إبراهيم وزوجته وهى تبتسم كأنها صفحت عنه وعنها .. وهو لا يرفع إليها عينيه ووجهه متجهم كأنه لا يطيق الهزيمة .. وطارت بهم الطائرة .. ونوال جالسة بجانبها هادئة صامتة تقرأ فى كتاب .. ونيفين استطاعت أن تكسب صداقة أحد الركاب .. وهى قد أرخت رأسها على مسند الطائرة وخيالها يأخذها إلى مستقبلها لا إلى الذكريات .. وتحس أن أصابعها قد تجمعت فى يدها .. أصبحت لها يد تمسك بها حياتها ..

* * *

كانت تجرى وراء طفولتها

١

جلست هدى أمام المرآة تتزين والزهق يشع من عينيها ويقفز فوق كل ملامح وجهها .. إنها زهقانة .. زهقانة .. وشفتاها مقلوبتان فى قرف كأنها زهقانة حتى من شكلها الذى ينعكس أمامها فى المرآة .. هذا الوجه الغارق فى السمار .. والعينان الواسعتان الغامقتان يطل سوادهما من خلال بياض ناصع ومن تحت حاجبين عريضين ثقيلين كأنهما مظلتان تحميان عينيها من نور الشمس ووهج الحسد .. وشفتاها المكتنزتان ترقد إحداهما فوق الأخرى فى ملل كأنهما شفتان عاطلتان لا تجدان ما يثير شهيتهما لتتحركا .. لتعيشا حياة الشفاه .. وتذكرت سنتها الضائعة .. وألقت المشط من يدها ومدت أصابعها إلى كوب صغير موضوع أمامها والتقطت سنة صناعية واحدة ركزتها فى أسنانها الأمامية فى مقدمة فكها الأسفل .. وابتسمت وهى تتذكر يوم فقدت سنتها .. كانت فى العاشرة من عمرها وكانت تلعب هى وأخوها عبد الله حول الساقية .. وسقطت فوق خشبة الساقية وكسرت سنتها .. ومن يومها وهى تطوف كل عام على أطباء الأسنان بحثا عما يعوض سنتها إلى أن وصلت أخيرا إلى هذه السنة الصناعية التى تغرزها بين أسنانها فتبدو كأنها سنة طبيعية .. لا يعرف ولا يلحظ أحد أبدا أن لها سنة ضائعة .. ومدت يدها والتقطت المشط وعادت تمشط شعرها الأسود اللامع فى عنف كأنها تريد أن تنزع هذا الشعر من فوق رأسها .. كأنها مغتاظة .. إنهم

لا يقولون عنها إنها جميلة ولكنهم يقولون إنها جذابة .. خفيفة الدم .. ولكن .. لعل الجاذبية وخفة الدم لا تكفيان ليخرجا بها من هذا الزهق ولتجد ما أو من يملأ هذا الفراغ .. ربما لو كانت بيضاء وشعرها أصفر لضجت الحياة من حولها .. كل الشقراوات تضج من حولهن الحياة .. أما هى .. لنها سمراء غارقة فى سمارها ..

ودخل زوجها وهو يرتدى حلته الكاملة وقال فى لهجة باردة وهو ينظر فى الساعة المعلقة فى يده :

— تأخرنا يا هدى ..

وقالت هدى وهى تتنهد كأنها تنفث أنفاس الضيق :

— دقيقة واحدة يا عزيز ..

ثم قامت ووقفت بطولها أمام المرآة ، واستدارت دورتين ثم تقدمت زوجها إلى باب الخروج .. دون أن تلتفت إليه أو تسأله رأيه فى زيها .. إنه ابن خالتها .. ومنذ أن ولدت وبعد أن تزوجته وهى لا تحس به إلا أنه ابن خالتها .. حتى وهى نائمة بجانبه لا تحس بأنها نائمة مع حبيبها أو مع زوجها .. إنها تحس أنها نائمة مع ابن خالتها وتتبادل معه الواجبات العائلية .. ربما لأنه لم يحدث بينهما أبدا ما يغير صفته بالنسبة لها .. لقد عاشت طفولتها وصباها مع عائلتها حول الأرض فى سنتريس .. وهو كان يعيش مع عائلته فى القاهرة .. وفى خلال الزيارات القليلة التى كانت تلتقى به خلالها فى سنتريس لم يحدث بينهما ما يمكن أن يجمعهما فى إحساس واحد إلا أنه ابن خالتها .. فقد كان منذ طفولته وهو جاد هادئ قليل الكلام عزوف عن اللعب ، حتى لعب الأطفال .. وبعد أن انتقلت لتعيش مع أهلها فى القاهرة ظل ما يجمعهما لا يتغير .. إنه ابن خالتها ..

إلى أن تقدم ليتزوجها .. ولم يكن فيه ما يمكن رفضه .. إنه ناجح ومهذب ومحترم .. لا يقال عنه ما يقال عن بقية الشباب .. وليس فى شكله ما يعيبه .. ربما لا يقال عنه إنه شاب جميل ولكن يمكن أن يقال عنه إنه وسيم .. وقد تخرج فى كلية التجارة واشتغل فى الأعمال الحرة واستطاع بسرعة أن يقفز إلى مراكز مهمة فى الشركات التى عمل بها .. ثم إن العائلة تفضله حتى تبقى الأرض الموروثة داخل العائلة ولا تخرج إلى غريب .. أما هى فلم تعارض فقد كانت تعيش أيامها فى فراغ .. قد يملأ الزواج هذا الفراغ .. والأمومة .. إنها ستنجب اثنين .. ولدا وبنتا .. لا .. ثلاثة .. أربعة .. تريد أن تغطى كل فراغها بالأطفال .. إن ابن خالتها يستطيع أن يحقق لها كل ذلك ..

وانتقلت لتعيش مع ابن خالتها .. حتى فى يوم زفافها لم تحس به إلا أنه ابن خالتها .. والأيام تمر والفراغ يزحف عليها من جديد .. إن زوجها جامد إلى حد البرود .. وكل فكره وإحساسه مع عمله .. لا شىء لها .. ولا لوجه الله .. لا يهم .. إنها فى انتظار المولود الأول .. وجاء ياسر .. وفرحت به .. ملأ حياتها .. بدد من حولها الزهق والملل والفراغ .. ثم جاءت علياء .. إن علياء لم تعطها الفرحة التى أعطاها لها ياسر .. تحس كأن تربية الأطفال أصبحت عملا روتينيا لا يأخذها كلها من فراغها ومللها .. كفى .. لا تريد مزيدا من الأطفال .

والأيام تمر .. ووقتها كله مشغول بالبيت وطفليها .. ولكن لا يكفى شغل الوقت إنها فى حاجة لأن تشغل إحساسها .. فى حاجة لأن تنسى نفسها فى إحساسها .. لماذا يستمع الناس إلى الموسيقى .. لماذا يذهبون إلى المسارح ودور السينما .. لماذا يرقصون .. لماذا .. لأن كل هذه

عوامل تشغل الإحساس بعيدا عن النفس . عوامل ليهرب بها الإنسان من نفسه .. إن الإنسان لا يسعد ولا يرتاح إلا إذا وجد ما يأخذه من نفسه .. وزوجها عزيز لا يؤمن بكل ذلك وليس فى حاجة إلى الهروب من نفسه .. إنه يعيش الأربع والعشرين ساعة داخل نفسه .. ونفسه هى عمله .. حتى الحفلات التى يدعى إليها أو يقيمها كلها حفلات عمل .. ورغم ذلك فهى تحتمل .. إنها لا تحاول أن تهرب من نفسها لأنها اكتشفت أن الطريق الوحيد لتهرب من نفسها هو أن تهرب من ابن خالتها .. من زوجها .. وهى لم تجد ما يضعفها إلى حد الهرب ..

وكانا فى طريقهما إلى حفلة عمل .. حفلة استقبال .. كوكتيل ..

وهدى جالسة بجانب عزيز فى السيارة فى استرخاء كأنها مستسلمة لقدرها .. إنها تعرف ما سيكون عليه حالها عندما تصل إلى الحفل .. حفل الكوكتيل .. ستعلق على شفتيها ابتسامة دائمة .. وستمد يدها مصافحة لكل من يقترب منها سواء كان رجلا أو امرأة وسواء كانت تعرفه أو لا تعرفه .. وستسمع أسماء جديدة .. ثم ستقول أى كلام كلما وقفت بجانب أحد .. والكلام يبدأ عادة بحالة الجو .. أو بالسؤال عن الصديقات لو كان اللقاء مع شخصية سبق أن عرفتها .. إنهم يقولون إن المرأة التى تنجح فى حفلات كوكتيل هى التى تستطيع دائما أن تجد موضوعا تتكلم فيه .. وتستطيع أن تختار الموضوع الذى يهم من تتحدث إليهم .. إنها مهمة صعبة .. إن الرجال قد يجدون كلاما فى مشاريع الأعمال ،أما النساء فلا يجدن إلا الكلام الفاضى .. وهى قد تعودت على مثل هذه الحفلات .. ولا تعتبر نفسها ناجحة فيها .. ربما لأنها لا تجيد اختلاق النجاح .. أو ربما لأنها تنتظر أن يبدأ الطرف الآخر

بالكلام .. أو ربما لأنه ليس لها مصلحة خاصة فى هذه اللقاءات .. إن الذين يذهبون كل منهم يريد أن يلتقى بالآخر أو يتعرف بالآخر ويكسب من هذا اللقاء أو هذا التعرف .. أما هى فليس لها أى مصلحة فى لقاء أحد أو التعرف إلى أحد .. إنها مصالح زوجها وحده وهى مجرد منظر يكمل بها زوجها هيئته ..

وقالت هدى وهى مسترخية فى السيارة :

ـ لمن يقام هذا الحفل ..

وقال عزيز فى وقار :

ـ لمندوب الشركة البلجيكية .. لقد وصل منذ يومين .. وأعتقد أنه سيقيم معنا طويلا فالشركة تريد التوسع فى عملياتها معنا ..

ولم تهتم هدى بما يقول .. لا يهمها لمن يقام أى حفل من هذه الحفلات المملة .. وصلا إلى هناك ..

وعلقت هدى ابتسامتها فوق شفتيها ووقفت مع زوجها عند مدخل صالة الاستقبال تتطلع حولها .. ووصلت عيناها إليه .. لا بد أنه هو .. المحتفى به .. إنه واقف يستقبل المدعوين وبجانبه من يقدمهم إليه .. ولكنه لا يبدو عليه أنه بلجيكى ولا حتى أجنبى .. إنه أسمر فى سمرته هدوء مريح تزغرد فوقه ابتسامته .. وهو طويل القامة وفى قوامه المتسق خشونة لا تجدها فى الأجانب .. كأنه بسمرته وقوامه من مصر .. مصرى .. وبقيت عيناها مرتبطتين به .. كأنها تعرفه .. كأنها تحاول أن تتذكره .. ثم قالت لزوجها وهى تشير بنظرتها إلى الرجل :

ـ هل هو المحتفى به ..

وقال عزيز :

ـ إنه هو .. تعالى إليه ..

قالت :

ـ ولكنه لا يبدو بلجيكيا ولا أجنبيا .. وقال زوجها وهو يشدها من ذراعها إليه :

ـ إنه جريكى .. يونانى ..

وارتعشت رموش هدى فوق عينيها كأنها بدأت تتذكر .. وسارت بجانب زوجها إليه .. وقدمها الصديق الواقف بجانبه باللغة الإنجليزية :

ـ عبد العزيز أبو الفضل .. طبعا تعرفه .. وحرمه ..

ومدت يدها إليه ودون أن تتعمد وجدت نفسها تقول :

ـ ياسو ..

لا تدرى كيف قفزت إلى لسانها هذه الكلمة اليونانية ..

ودهشت عندما رد عليها بالعربية وبلهجة مصرية :

ـ تشرفنا ..

دهشت إلى حد أن ارتعشت يدها فى يده ..

وابتعدا عنه هى وزوجها ليتركا المجال لطابور المدعوين .. وقالت لزوجها فى لهفة :

ـ ما اسمه .. هل تعرف اسمه ..

وقال عزيز بلا اهتمام :

ـ بنايوتى قسطنطين كراند ينوبولوس .. أو شىء كهذا .. إن الأسماء الجريكى تحتاج إلى نصف ساعة لترددى الاسم كله ..

وقالت هدى وهى لا تزال تحس فى داخلها بشىء يرتعش :

ـ ولكنه يتكلم بالعربى ..

قال عزيز وهو يدور بعينيه باحثا عن صفقة من صفقات العمل :

ـ سمعت أن أصل عائلته من مصر ..

واشتدت ارتعاشة هدى ..

ووجدت نفسها وعيناها معلقتان بالرجل الطويل الأسمر تعود إلى بعيد .. إلى صباها .. إلى طفولتها .. إلى تاكى .. وانطلقت ابتسامة حلوة على شفتيها كأنها تبتسم لذكرياتها .. لتاكى .. وعيناها معلقتان فوق بنايوتى ..

* * *

لقد قضت صباها فى القرية القريبة من بلدة سنتريس .. كان أبوها متفرغا لعزبته .. خمسون فدانا .. بين أكثر من مائتى فدان تملكها العائلة كلها .. وكانت العائلة كلها تقيم هناك .. كان لهم بيت فى القاهرة ولكنهم لا يذهبون إليه إلا مرتين أو ثلاثا فى العام .. وكان من عادة أبيها بين يوم وآخر أن يركب الكارتة ويقود الخيل بنفسه ويأخذها بجانبه بينما يجرى عبد العاطى الخفير خلف الكارتة حاملا البندقية .. إلى أن يصلوا إلى فرع النيل القريب حيث يترك الكارتة ويأخذها إلى مركب يعبر بهم إلى الشاطئ الآخر حيث يقع دكان خريستو البقال تحت مجموعة وارفة من أشجار الجميز ..

لقد بدأت ذكرياتها وهى لا تزال طفلة فى الثامنة من عمرها .. وكان أبوها يحبها ويدللها أكثر من كل أخواتها .. ربما لأنها البنت الوحيدة بين ثلاثة صبية ولأنها الصغرى .. آخر العنقود .. إنها حليته ولعبته .. وكان لا يستطيع أن يستغنى عنها بعد أن يعود من الطواف بالحقول وطالما كان فى البيت .. وكانت العضو الوحيد فى العائلة الذى يملك حق الجرأة

عليه .. كانت تقول له أى شىء ويضحك لكل كلمة تقولها .. وتطلب أى شىء فيلبى طلبها .. بل كانت أمها وأخواتها يسلطونها عليه كلما أرادوا شيئا قد يرفضه لهم ..

لذلك كان أبوها يأخذها معه وحدها كلما ذهب إلى خريستو .. وكانت تعتقد أن خريستو بقال يبيع لهم الجبن والزيتون والبسطرمة وعلب البولوبيف وأشياء كثيرة يشتريها أبوها ويحملها معه عند عودته إلى العزبة .. ولكنها بدأت تعرف أن دكان خريستو هو أيضا خمارة .. خمارة القرية .. وأن ما يشربه أبوها هو الخمر .. لم يكن يشرب كثيرا ولكنه كان يشرب .. وكان خريستو يستقبله دائما بالترحاب والتهليل ثم يمد له مائدة تحت شجرة الجميز ويجلس أبوها ويشرب .. وإما أن يجلس معه خريستو نفسه أو بعض من أصدقائه أعيان القرية .. وهى تتلفت باحثة عن تاكى ابن خريستو وأخته ستلا .. لم تكن تهمها ستلا .. إنها لا تحبها .. ولكنها تدور داخل الدكان وفى الحديقة التى تقع خلف الدكان إلى أن تجد تاكى .. كان أكبر منها بعامين أو ثلاثة .. وكان يستقبلها بلا كلفة وبلا تهليل .. فقط ابتسامة صغيرة .. كأنها شىء عـادى فى حياته .. ويتركها بجانبه طوال مدة وجودها .. ويعاملها كأنه الرجل الكبير الذى يفهم كل شىء وهى لا تفهم شيئا .. وكان كأنه يعلمها كل شىء .. يعلمها الحياة .. وهو دائما يعمل شيئا .. قد يعمل فى الدكان ويتركها تعمل معه ويأمرها كأنه سيدها .. ضعى هذه الزجاجة هناك يا هدى .. اغسلى هذا الكوب .. ليس هكـذا تغسل الأكـواب .. هكذا .. ثم قد يخرج بها إلى الحديقة ويتسلق معها الشجرة .. إنه يعلمها أيضا كيف تتسلق الشجرة .. ثم يعلمها كيف تنط الحبل .. ثم يجلسها

أمامه ويحكى لها حكاية بلهجته العربية الجريكية .. تعودت هـذه اللهجة .. أصبحت تسمعها كأنها اللهجة التى تريد أن يتحدث بها كل الناس .. كل من لا يتكلم باللهجة الجريكية ليس راقيا .. ليس تاكى .. بل إنها تعلمت كثيرا من الكلمات الجريكى وعرفت أسماء بعض الأصناف التى يبيعها دكان خريستو حتى أسماء الخمر .. إلى أن ينتهى أبوها من جلسته ويدور خريستو يبحث عنها إلى أن يجدها مع تاكى ويعيدها إلى أبيها .. ويحمل عبد العاطى الخفير المشتروات ويركبون المركب ليعبروا النهر إلى الكارتة التى تحملهم إلى العزبة ..

وأصبحت هدى تنتظر موعد ذهاب أبيها إلى خمارة خريستو كأنها فى انتظار موعدها مع تاكى .. بل إنها كانت تحاول أن تغرى أباها بالذهاب إلى هناك أكثر .. إنه يذهب مرة أو مرتين فى الأسبوع .. لماذا لا يذهب كل يوم .. وفى مرة قرر أبوها أن يذهب وحده .. لا .. لا تتركنى .. وبكت .. وجرت وراء الكارتة وهى تصرخ .ضعف قلب أبيها وعدل عن رأيه وأخذها معه .. إنها لا تستطيع أن تحرم تاكى ..

وكبرت هدى .. إنها فى العاشرة .. وتاكى فى الثانية عشرة .. ولقاؤهما أصبح أكثر هدوءا .. إنهما يطيلان جلستهما فى الحديقة .. ويتكلمان أكثر مما يلعبان .. لماذا لا يأتى تاكى ويزورها فى العزبة .. إنه يستطيع أن يتعرف إلى أخواتها وتستطيع أن تراه كل يوم .. وينظر إليها تاكى من خلال ابتسامة ساخرة .. إنها لا تعلم شيئا ولا تفهم شيئا .. إن الجريكى من السهل عليه أن يعمل مع الفلاحين أصحاب الأرض ولكن من الصعب أن يكون صديقا شخصيا لهم .. إنهم ناس وهؤلاء ناس .. عالم وعالم آخر .. وقد ولد تاكى فى هذه القرية وكل أعيانها من زبائن

أبيه ورغم ذلك فليس له صديق واحد من الزبائن أو من أبناء الزبائن .. ولم يعرف بنتا واحدة مثلما عرف هدى .. إنه يعيش داخل عائلته وحدها والعائلة كلها فى عزلة اجتماعية ولا تستطيع الخروج من هذه العزلة إلا بزيارة العائلات الجريكية التى لها أعمال فى طنطا أو فى الإسكندرية أو فى القرى القريبة ..

ورغم ذلك فقد زار تاكى هدى فى العزبة .. كان أبوه فى حاجة إلى لقاء أبيها ربما ليطالبه بما عليه من ديون .. وذهب إليه فى العزبة وصحب معه ابنه تاكى .. كانت مفاجأة مفرحة لهدى .. ولكنها لم تكن تستطيع أن تنفرد بتاكى .. تخاف إخوتها .. ودخل خريستو وانفرد بأبيها .. والتف إخوتها حول تاكى يتحادثون وهم ينظرون إليه كأنهم يتفرجون على مخلوق عجيب . إنهم يعرفونه ولكنها المرة الأولى التى يجدونه بينهم فى بيتهم .. وهدى واقفة بعيدا وعيناها مملوءتان بتاكى بينما هو لا ينظر إليها .. إنه هو الآخر يخاف من إخوتها .. وجذب الإخوة تاكى ليلعب معهم الكتشينة .. الكومى .. وبعد فترة بدءوا يتصايحون .. ثم سمعت أخاها توفيق يشتم تاكى .. أنت يا ولد يا جريكى .. لا تغش .. واشتد التصايح . ثم قامت خناقة .. وكان المفروض أن توفيق وأخاها الثانى طلعت يتشاجران مع تاكى وأخيها الثالث محمود الذى كان شريكا معه فى اللعب عندما بدءوا يتضاربون . لم يضرب إلا تاكى ضربا حتى اضطر أن يجرى فى الحديقة .. وهدى تصرخ .. وخرج أبوها مع خريستو واستطاعا أن يهدئا الأولاد .. ثم تصافحا وهما يتضاحكان كأن الموضوع لا يتعدى شقاوة عيال .. وأخذ خريستو ابنه المضروب وابتعد .. وهدى تبكى ..

وانتظرت هدى على نار أياما طويلة حتى صحبها أبوها فى رحلته إلى خريستو .. واندفعت تجرى داخل الدكان تبحث عن تاكى .. ووقفت ملتصقة فى الحديقة والدموع فى عينيها وهى تنظر إلى آثار الكدمات التى لا تزال على وجهه .. لا تغضب يا تاكى .. هذه طبيعة إخوتى .. إنهم شرسون مع كل الناس وليس معك أنت بالذات .. وتاكى يطوف على وجهها بعينيه وهو يبتسم ابتسامة أحست أنها لم ترها من قبل .. ثم فجأة شدها إليه وهما واقفان تحت أشجار الحديقة .. وقبلها .. وقبلها على شفتيها .. قبلة طويلة .. وهى مستسلمة .. وهو لا يريد أن ينتهى .. إنه يأكل فى شفتيها .. ثم فجأة تركها .. ابتعد ودخل الدكان دون أن يقول كلمة ..

هل قبلها كأنه يريد أن ينتقم من إخوتها بالاعتداء عليها .. بالاستيلاء على أختهم .. إنها لا تدرى ..

وأنفاسها مبهورة .. وعيناها هالعتان تجرى وراءه كأنها تستغيث به ألا يتركها تغرق ..

كانت أول قبله على شفاه هدى ..

قبلة تاكى ..

وقد حاولت يومها أن تستعيد القبلة .. خذنى تحت الشجرة .. ولكن تاكى يتعمد الهرب منها .. وهى تلف وراءه بين أرفف الدكان وتخرج وراءه إلى الحديقة ويخرج إلى الطريق فتخرج وراءه .. إلى أن صرخ فى وجهها .. ابعدى عنى .. لا أريد أن أراك .. ثم صاح ينادى على أخته .. ستلا .. ستلا .. كأنه يستغيث بها لتنقذه منها ..

واستسلمت هدى لستلا وخرجت معها إلى الحديقة وجلست تحت

الشجرة تبكى.إنها الطفلة التى تريد القبلة الثانية .. قبلة على شفتيها ..

ولم تعرف يومها لماذا يهرب تاكى منها بعد قبلته الأولى .. لعله خشى أن يعرف إخوتها فيضربوه مرة ثانية .. ربما خشى أن تعرف عائلتها فيهدموا الدكان على رأس أبيه وعلى رأسه ويطردوهم من القرية .. إن الجالية اليونانية محكوم عليها بالعزلة .. وقد نشأ فى عالم آخر لا يضم الفلاحين ولا بنات الفلاحين ..

وعندما عادت مع أبيها إلى البيت كانت شفتاها ترتعشان بقبلة تاكى .. ستعود إليه فى المرة القادمة .. ولعله يعطيها القبلة الثانية .. إنها تحبه .. تحبه .. حب طفلة فى الحادية عشرة ..

ولكن أباها سقط مريضا عقب القبلة الأولى .. وطال مرضه .. إنه لم يعد يذهب إلى خمارة خريستو .. وهى تكاد تجن .. وقد أرسلوا يوما عبد العاطى الخفير إلى خريستو ليشترىَ بعض احتياجات البيت فجرت وراء عبد العاطى .. ستذهب معه .. ولكن عبد العاطى رفض أن يصحبها وأعادها إلى البيت لتتلقى شتائم أمها .. وفى مرة قررت أن تذهب وحدها .. إلى تاكى .. هربت من البيت .. ولكن ابن عمها التقى بها فى الطريق الزراعى وعاد بها إلى البيت .. وضربتها أمها .. إنها تبتسم الآن عندما تتذكر علقة أمها ولكن يومها ظلت تبكى أياما وليالى طويلة وترفض أن تأكل وترفض أن تخرج من حجرتها .. ولم تكن تبكى غضب أمها وإخوتها وآثار العلقة التى تلقتها ولكنها كانت تبكى شوقها إلى تاكى وحلمها بالقبلة الثانية .. ومرت شهور طويلة وهى لا ترى تاكى ..

ومات الأب .. ورغم الأسى والحزن الذى يفتتها لموت أبيها فقد

وقفت تبحث بعينيها بين المعزين لعلها ترى تاكى .. ولكن خريستو جاء للتعزية ولم يكن معه ابنه تاكى ..

وقررت الأم أن تنتقل هى والعائلة إلى القاهرة لتعيش بجانب إخوتها .. وكان عليهم أن يعبروا النيل إلى الضفة الأخرى ليركبوا السيارة التى تحملهم إلى القاهرة .. ستمر أمام خمارة خريستو .. وقد رأت الخمارة .. وشجرة الجميز .. والحديقة التى شهدت قبلتها الأولى .. رأت كل ذلك من بعيد .. ولم تر تاكى .. وعادت والدموع تنهمر من عينيها تروى ذكرى أيام أبيها وأيام تاكى ..

عاشت فى القاهرة .. عاشت ذكرى بلا أمل .. ولا تزال القبلة الوحيدة التى لامست شفتيها هى قبلة تاكى ولا تزال الخفقة الوحيدة التى ينبض بها قلبها هى خفقة حبها لتاكى .. ومرت أكثر من أربع سنوات بعيدا عن القرية إلى أن قررت أمها أن تذهب لتشترك فى نزاع مع بقية أفراد العائلة حول الأرض .. وصحبتها معها .. وملأت الفرحة قلب هدى كأن الأمل تحقق .. سترى تاكى .. إنها تستطيع أن تتفق معه على حياة جديدة .. إنه يستطيع أن يأتى إلى القاهرة ليلقاها .. إنها الآن كبيرة .. فى الخامسة عشرة .. إنهما فى سن تتيح لهما أن يمارسا الحياة .. أن يعيشا الحب .. وستتصل به هناك بأى وسيلة حتى لو ضربت علقة أخرى .. ووصلت السيارة إلى شجرة الجميز على ضفة النهر .. أين دكان خريستو .. إنه حطام مغلقة .. وسألت .. لقد ترك خريستو الدكان وهاجر هو والعائلة .. إلى أين .. لا أحد يدرى .. لعله هاجر إلى اليونان ..

وابتسمت ابتسامة مسكينة تعزى بها نفسها .. ولم تبك .. إن

الدموع قد أصبحت باليه .. لم تنهمر .. وبعد عام واحد تزوجت عبد العزيز لمجرد أنه ابن خالتها .. وقد أنجبت ياسر وعلياء .. لمجرد أنها يجب أن تنجب .. إنهما الآن فى سن الحادية عشرة والعاشرة ..

• • •

مرت كل هذه الذكريات فى خيال هدى وهى تجرى بعينيها وراء بنايوتى وهو يتنقل بين المدعوين كما كانت تجرى وراء تاكى وهو يتنقل بين أرفف الدكان .. ووصل بنايوتى إليها .. وقال لزوجها كلمة لم التفت إليها وهو يغرقها بكل عينيه ويصب عليها ابتسامة مهذبة رشيقة وقال :

ــ هل تسمحين أن أقدم لك كأسا ..

قالت وهى تحاول أن تهرب من عينيه :

ــ أفضل شرابا خفيفا ..

قال بلهجته المصرية :

ــ برتقال .. أم ليمون ..

قالت وهى تبتسم فى خفر :

ــ اختر لى ..

ولم تكن تريد عصير البرتقال ولا عصير الليمون ولكنها كانت تريد أن يبقى واقفا معها برهة .. مد بنايوتى ذراعه إلى المائدة القريبة والتقط كوبا من عصير البرتقال وقدمه وهو يقول ضاحكا :

ــ أوصيك بعصير البرتقال .. إنه أقل تعرضا للغش من عصير الليمون ..

وقالت وهى تمد يدها إلى الكوب وأصابعها مرفوعة كأنها تخشى أن

المس أصابعه :

ــ إيفاريستو ..

قالت شكرا باليونانية .. وقد تعمدت هذه المرة أن تقولها كأنها تريد أن تقول له إنها قريبة منه .. وقال فى دهشة وبلهجته المصرية :

ــ إنك تتكلمين اليونانية ..

قالت وهى تبتسم ابتسامة أكثر جرأة :

ــ بضع كلمات تعلمتها وأنا صغيرة .. ولكنك تتكلم وكأنك مصرى ..

وقال فى مرح كأنه يتفاخر :

ــ لقد ولدت فى مصر ..

وقالت وهى تعود إلى كل ذكرياتها كأنها تريد أن تتأكد أنه ليس تاكى :

ــ أين .. فى أى مكان فى مصر ؟..

قال بمرحه :

ــ فى طنطا .. كل العائلة كانت هناك .. كان أبى يعمل فى تجارة القطن ..

وقالت بلهفة :

ــ هل تعرف تاكى ..

وقال فى دهشة :

ــ تاكى من ..

قالت دون أن تفقد لهفتها :

ــ تاكى ابن خريستو . كان يملك دكان بقالة عند سنتريس ..

وضحك قائلا :

ــ إن الملايين يحملون اسم خريستو والملايين من اليونانيين يملكون محال بقالة .. ثم إنى تركت مصر وأنا صغير قبل أن يكون لى فيها أصدقاء ..

وأرخت هدى عينيها كأن أملها خاب ، ثم عادت ورفعتهما إليه بسرعة كأنها خشيت أن يبتعد عنها .. وقبل أن تتكلم جاء بعض المدعوين والتفوا حول بنايوتى والتفت إليها قائلا :

ــ آسف .. ولكن أرجو أن نتم حديثنا.ثم ابتعد مع بقية المدعوين ..

وقال زوجها بعد قليل ..

ــ ألا ننصرف ..

قالت وهى تجرى بعينيها وراء بنايوتى :

ــ انتظر قليلا ..

قال فى دهشة :

ــ عجيبة .. إنك دائما تشكين من الزهق فى هذه الحفلات ..

قالت دون أن تلتفت إليه :

ــ إنى أهرب من الزهق فى البيت ..

وكان المدعوون يتناقصون حتى كاد الحفل يفرغ منهم .. وتقدمت هى وزوجها لمصافحة بنايوتى وهو واقف عند الباب يودع المدعوين ..

وقالت له ويدها فى يده :

ــ كالينيختا ..

لم تقل مساء الخير ، ورد عليها هذه المرة باليونانية :

ــ كالينيختا ..

وأحست عندما رد عليها باليونانية كأنه يدعوها إلى صداقته .. وأحست بأصابعه تضغط ضغطة خفيفة على يدها كأنها همسة يهمس بها إليها ..

* * *

وقضت هدى ليلتها لا تنام .. كلها مع بنايوتى .. لونه الأسمر .. وقامته الطويلة .. وعينيه اللتين تغرقانها فى داخلهما .. وشفتيها ترتعشان بقبلة تاكى .. هل تتصل به .. لا .. هذا جنون .. مالها وماله .. إنه غريب .. وجريكى .. لقد كان تاكى مجرد سذاجة أطفال .. وهى الآن ليست طفلة ..

وفى اليوم التالى رفعت سماعة التليفون واتصلت بفندق شيراتون ..

* * *

٢

لم تكن هدى تذكر الاسم كاملا وهى تتحدث إلى عاملة تليفون فندق شيراتون .. بنايوتى .. ولم تكن تعرف رقم الغرفة التى يقيم فيها .. واضطرت أن تقول اسم وظيفته حتى تبحث العاملة فى دفاترها إلى أن أحالتها إليه .. ولم تكد تقول « آلو » فى سماعة التليفون حتى سمعت صوته ينطلق متحدثا باليونانية .. إنه صوته .. وفى كلامه رنة فرح .. ولكنها لا تفهم ولا كلمة مما يقوله .. وقاطعته قائلة بالعربية :

ـــ هل أستطيع أن أتحدث إلى مستر بنايوتى :

ـــ وقال بالعربية ورنة الفرحة لا تزال تنطلق مع صوته :

ـــ إنه أنا .. وكنت أقول لك إنى فى انتظارك وكنت متأكداً أنك ستتصلين بى .. كنت أعتقد أنك تتحدثين اليونانية ..

وقالت وابتسامتها تسقط فى سماعة التليفون :

ـــ لا .. بضع كلمات فقط .. ولكن هل تعرفنى ..

وقال فى حماس :

ـــ طبعا أعرفك .. قلت لك إنى كنت فى انتظارك ..

قالت وابتسامتها تتسع :

ـــ من أنا؟!

قال وصوته يتلجلج من حيرته :

ـــ لم يقدمنى أحد إليك باسمك .. ولكنى على الأقل أذكر أنك مدام

عزيز ..

قالت ضاحكة :

ـــ أنا فعلا مدام عزيز .. ولكن ما الذى جعلك تنتظر أن أتحدث إليك ..

قال كأنه يلقى كلمة شاعرية :

ـــ أحسست بالوعد فى عينيك ..

قالت كأنها تحادث نفسها :

ـــ أنا لم أعدك .. ولم أعد نفسى .. ولكنى لم أستطع أن أقاوم محادثتك .. لقد أحسست منذ رأيتك كأنى أعرفك منذ زمن طويل .. أحسست كأننا أصدقاء الطفولة ..

قال فى صوته الشاعرى وبلهجته العربية التى تتكسر بينها رنات يونانية :

ـــ لقد أحسست وأنا ألتقى بعينيك كأن القدر جمعنا ولن يفرقنا .. متى أستطيع أن أراك ..

قالت كأنها فوجئت :

ـــ ترانى .. لماذا ؟

قال وحاجباه يرتفعان فوق سماعة التليفون كأنه دهش من هذا السؤال :

ـــ حتى نجدد صداقة الطفولة ونستجيب للقدر ..

قالت بعد أن هامت مع خيالها برهة :

ـــ أراك أين ؟

قال بسرعة وفرح :

— كما تريدين .. وأفضل أن نلتقى هنا .. فى الصالون .. إنى أقيم فى جناح كامل من الفندق ..

قالت كأنها أفاقت لنفسها :

— لا تنس أنى متزوجة ..

قال فى لهجته الشاعرية :

— لا تنسى القدر ..

قالت كأنها ترجوه :

— دعنى أفكر .. سأتصل بك ..

قال كأنه يرجوها هو الآخر :

— لا تضيعى الأيام والساعات ..

قالت وهى تتنهد :

— انتظرنى ..

قال كأنه يستوقفها :

— إننا رغم هذا العمر الطويل لم نتبادل الأسماء .

وقالت وكل ما فيها يبتسم :

— هدى ..

قال وكأنه يردد أغنية .

— هدى .. هدى .. أنا بنايوتى ..

قالت ضاحكة :

— أنت يوتى ..

وألقت سماعة التليفون من يدها ، وألقت بنفسها فوق السرير وضحكتها لا تزال مرسومة فوق شفتيها .. ووجدت نفسها هائمة فى

طفولتها .. سنتريس .. وخمارة خريستو .. وشجرة الجميز .. وهى جانب والدها فوق الكارتة .. وعبد العاطى الخفير يحمل بندقيته ويجرى جانبهما .. وهى تجرى داخل دكان خريستو تبحث عن تاكى .. وتاكى يرفعها لتسلق الشجرة .. وتاكى يشدها إليه ويقبلها .. أول قبلة فى حياتها .. وآخر قبلة .. حتى زوجها ابن خالتها لم يتعود أن يقبلها مثل هذه القبلة ..

وأحست بشفتيها ترتعشان كأنها لا تزال تعيش هذه القبلة .. ورفعت أصابعها تتحسس شفتيها كأنها تريد أن تتأكد أن ليس فوقهما قبلة ..

ثم عادت إلى الواقع .

هل تذهب إلى يوتى ..

لا .. لا يمكن .. هذا جنون .. إنها لا تعرفه .. إنه مجرد وهم .. ثم لماذا تذهب إليه .. ماذا تريد منه .. لا يمكن أن تريد منه ما كانت تريده من تاكى ..

وأخذت تتقلب فوق السرير .. ثم قامت تمشى فى غرفتها كأنها تضرب الأرض بقدميها بدلا من أن تضرب نفسها .. تضرب ما فى داخل نفسها .. ونظرت إلى المرآة .. إنها لم تعد طفلة .. ولكن سمرتها الغامقة تؤكد لها أنها فلاحة .. سنتريس .. خمارة خريستو .. وخرجت تجرى إلى المطبخ .. وصرخت فى وجه نفيسه الخادمة .. وكادت تحرق يدها فى نار البوتاجاز .. وعادت تجرى إلى غرفتها .. ورفعت سماعة التليفون وطلبت بنايوتى وقالت وهى تلهث كأنها عادت من مشوار طويل قطعته جريا :

— غدا .. الساعة الحادية عشرة .. هل تستطيع ..

وقال متسائلاً :

ــ صباحا ..

وقالت فى غيظ .. غيظ من نفسها :

ــ طبعا صباحا ..

قال فى رقة :

ــ أستطيع أن أؤجل موعدى مع رئيس مجلس الإدارة .. ولن أراجع التلكس .. وسأنتظرك ..

قالت وكأنها تهم بالبكاء :

ــ كيف أصل إليك ..

قال وهو يحس بأزمتها :

ــ الدور العاشر .. رقم ستة .. على يمين المصعد .. افرحى فرحتى بك ..

ووضعت سماعة التليفون دون أن ترد عليه ..

وجدت نفسها قد هدأت بعد أن تخلصت من ترددها .. وكأنها تخلصت من صداع كان يضج فى رأسها .. كأنها وضعت قدمها على أول السلم وقررت أن تصعد وترتاح .. ولكنها لم تكن تدرى إلى أين هى صاعدة .. لم تكن ترى نهاية هذا السلم .. ولا تفكر فى النهاية .. إنها فقط ستركب الكارتة وتذهب لتلتقى بتاكى تحت شجرة الجميز .. إنه ليس تاكى .. إنه يوتى .. وضحكت . لماذا يكون يوتى بعد تاكى .. ربما كان فى عروقها خيط يربطها باليونانيين .. ربما كانت من سلالة كيلوباترا .. وانطلقت تمرح مع ابنها وابنتها .. وتضحك مع نفيسه وتقول لها كلمات حلوة تمسح بها صرخاتها التى كانت قد أطلقتها

عليها .. وعندما عاد ابن خالتها .. زوجها .. استقبلته بفرحة .. كأنه جاء يزورها فى سنتريس قبل أن تذهب للقاء تاكى .. إنهما مدعوان هذه الليلة أيضاً إلى حفل استقبال .. كوكتيل .. لا لا تستطيع .. حتى لو كان يمكن أن ترى بنايوتى هناك .. تريد أن تحتفظ بنفسها كلها للغد .. غدا تبدأ فى صعود السلم .. وتمايلت على ابن خالتها فى رقة حتى يعفيها من مصاحبته إلى الحفل ..

ولكن مع الليل بدأت فرحتها تنكمش وراء حيرتها .. ماذا تريد من بنايوتى .. ماذا يمكن أن يحدث بينهما .. إنها لا تدرى .. لا تريد أن تدرى .. لا تريد أن تواجه نفسها بما يمكن أن يحدث .. إنها فقط تريد أن تقف معه تحت شجرة فى الحديقة خلف خمارة خريستو ..

ولم تنم ..

وبدأ الصباح وهى ساهمة .. وودعت زوجها إلى عمله وابنها وابنتها إلى المدرسة وهى ساهمة .. ثم جلست أمام المرآة تطل على وجهها الأسمر الغامق .. وجه الفلاحة .. وابتسمت وهى تساوى شعر رأسها .. إنها تعقصه على نفس النمط الذى كانت تعقصه به وهى طفلة .. لا .. لقد كبرت الآن .. وبدأت تعيد عقص شعرها .. ولكن هكذا أجمل .. عندما كانت صغيرة .. فلاحة .. وتركت شعرها بعقصته القديمة .. ثم ابتسمت ابتسامتها وهى واقفة أمام دولاب ملابسها .. إنها تتذكر الثوب البسيط الذى كانت تلبسه فى القرية .. وعيناها تجوبان بين ملابسها كأنها تبحث عنه .. ولكن هذا الثوب لا يزال يتحكم فى اختيارها فاختارت ثوبا محتشما يغطى ذراعيها وصدرها ويتدلى إلى مـا تحت ركبتها .. لماذا اختارت هذا الثوب الذى لا تلبسه إلا فى الزيارات العائلية

الثقيلة .. إنها ذاهبة إلى بنايوتى .. وهو رجل عاش الحيـاة فى أرق مستوياتها وفى جميع عواصم العالم .. ويجب أن تختار له ثوباً يتجاوب مع آخر الموديلات الراقية الحرة .. ولكنها لا تستطيع .. كأنها تخاف أباها ويجب أن تبدوَ أمامه فى ثوب محتشم قبل أن تركب معه الكارتة إلى خمارة خريستو .. ووقفت تلقى على نفسها نظرة أخيرة أمام المرآة ووجدت وجهها ينكمش ودموعها تهم أن تنطلق من عينيها ..

لماذا تذهب إلى هناك .

لماذا تلقى هذا الرجل ..

لماذا لا ترفع سماعة التليفون وتعتذر ..

ووجدت نفسها تخطف حقيبة يدها وتجرى إلى الشارع .. كأنها تجرى من نفسها .. ثم ألقت بنفسها فى سيارة أجـرة تجرى بها إلى شيراتون ، وهى لا ترى شيئاً من الطريق أمامها .

* * *

ودخلت إلى بهو فندق شيراتون وهى لا ترى أحداً أمامهـا ولا حولها .. كأنها إذ لم تر أحداً فلن يراها أحد .. وعيناها معلقتان فى الهواء .. وخطواتها سريعة كأنها تهم أن تجرى .. ودخلت إلى المصعد وضغطت على رقم ١٠ وهى لا ترى أحداً ممن دخلوا المصعد معها .. ووجدت نفسها أمام الغرفة تضغط على جرس الباب .. وما كاد الباب يفتح حتى دفعت نفسها إلى الداخل دون أن تنظر إلى الوجه الذى فتح لها الباب وألقت نفسها على أول مقعد وهى تنهج وأنفاسها ترفع ثدييها وتخفضهما .. وهو واقف أمامها بقامته الطويلة الممشوقة وابتسامـة واسعة تزغرد بين شفتيه .. ولا يقول كلمة واحدة .. وهدأت قليلا

ورفعت عينيها إليه والتقت بوجهه الأسمر الذى ترتاح إلى سمرته .. وقالت وهى تبتسم ابتسامة حائرة من بين أنفاسها المتهدجة وقالت :

ــ تيكانس ..

لم تتعمد أن تقولها باللغة اليونانية ولكنها وجدت نفسها تقولها .. وقال باللهجة المصرية العادية وهو يجلس على مقعد بجانبها :

ــ ازيك انت .. إنك تلهثين كأنك صعدت السلم على قدميك ..

وقالت فى صوت تائه كأنها تحادث نفسها :

ــ إنى تعبة من نفسى .. هذه أول مرة أقوم فيها بمثل هذه الزيارات لا أدرى لماذا أنا هنا .

فعلا لماذا هى هنا .. وأدارت عينيها حولها كأنها تريد أن تكتشف لماذا هى هنا .. ماذا هنا حتى تأتى إليه .. إن غرفة الاستقبال ضيقة وفى صدرها باب يؤدى إلى غرفة واسعة .. غرفة النوم .. إنها ترى السرير .. وقد ترك باب غرفة النوم مفتوحا .. لماذا ترك الباب مفتوحاً .. إنها هنا لتدخل هذه الغرفة وتنام على السرير .. تنام له .. لا .. لا يمكن .. وسمعت صوته يقول من خلال ابتسامته المزغردة :

ــ إنك هنا لأن كلا منا وجد الآخر ..

وأحست بيده وقد امتدت ووضعها فوق يدها .. لا .. وسحبت يدها من تحت يده .. وبدأت تتكلم .. إنها تتحدث عن طفولتها .. وعن قريتها .. وعن خريستو .. وعن تاكى .. وقام وأعد لها كوبا من عصير البرتقال .. وهى لا تكف عن الكلام .. وهو لا يقاطعها كأنه لا يريد منها شيئاً ألا أن يسمعها تتكلم .. إلى أن لهثت .. من كثرة ما تكلمت . وسكتت وهى تنظر إليه كأنها تسأله ماذا يريد منها .. إنها كانت تتكلم

لتهرب منه .. ولكنها لم تعد تستطيع أن تتكلم أكثر .. ماذا بعد أن ينتهى الكلام ..

وتكلم هو .. إنه لا يقول لها ماذا يريد .. أنه يحكى أيضاً عن طفولته فى مصر .. وعن أيام هجرة العائلة إلى أثينا .. إن اليونانيين الذين هاجروا من مصر أصبحوا يعتبرون فى اليونان كأنهم أجانب .. كأنهم طائفة مصرية جاءت تضايق وتنافس أهل البلد .. إنهم يقاومونهم هناك .. هل تعلمين .. إننا هناك وكأننا فعلا لا نزال فى مصر .. بل أصبحت لنا لغة خاصة تتغلب عليهااللكنة العربية .. وعمه لم يهاجر من مصر .. وابنة عمه لا تزال هنا وهى تقيم فى مصر الجديدة .. اسمها فوتينيه ..

وكان وهو يتكلم قد مد يده مرة ثانية ووضعها فوق يدها .. وتركت له يدها .. تحس كأنها يد ليست غريبة .. وأصابعه تضغط على أصابعها .. وتحس كأنها تبادله الأصابع .. هو يأخذ أصابعها وهى تأخذ أصابعه ..

وقالت وهى ترخى عينيها عن عينيه :

ــ أحب أن أصادق ابنة عمك .. فوتينيه .. حتى أعرفك أكثر ..

وقال فى فرحة :

ــ إنها ستكون سعيدة .. إنى أعتبرها مسئولة عنى فى مصر .. ستكون مسئولة عنا .. أنت وأنا .. ورفع سماعة التليفون وطلب رقما من عاملة السنترال .. والتصق الرقم بذاكرتها .. وحادث ابنة عمه .. سيقدم لها أغلى ما وجد فى مصر .. ثم أعطاها سماعة التليفون ..

وحادثت ابنة عمه .. إن فوتينيه ليست دهشة وابن عمها يقدم لها صديقة .. امرأة .. لعلها تعودت أن يقدم لها صديقاته .. ولكنها

فرحة .. ربما كانت فرحة بفرحة ابن عمها .. وهى تتحدث إلى هدى بترحاب .. وتلح فى لقاء قريب .. وانتهت المحادثة على أن يعاودا الاتصال إلى أن تلتقيا ..

وتركت هدى سماعة التليفون وقامت واقفة .. كفى .. ستذهب ..

ووقف بنايوتى ملتصقا بها وهو ينظر إليها فى لوم ويدها لا تزال راقدة فى يده .. وتطلعت إلى شفتيه .. وأحست برعشة طفولتها تسرى فى شفتيها .. وانحنى بنايوتى وقبلها قبلة سريعة فوق عنقها وهو يهمس :

ــ لا تذهبى .. لا تضيعى عمرينا ..

وأحست بلمسة شفتيه فوق عنقها تسرى حتى ترتعش بها شفتاه .. إنها تريد .. ولكن لا .. يجب أن تقاوم .. إنها لم تكن تقاوم تاكى فى طفولتها لأنها لم تكن تعرف .. ولكنها الآن تعرف .. وباب غرفة النوم مفتوح .. إنها تحس أنها تريد أن يشدها إلى هذا الباب المفتوح .. لا .. لا يمكن .. هذا هو اللقاء الأول .. ربما غيرت رأيها .. ربما عدلت عن هذا الجنون ..

وشدت نفسها بعيداً عنه وهى تقول من خلال ابتسامتها الحائرة :

ــ سأراك .. إنك باق فى مصر ..

وقال وهو يخطو وراءها :

ــ إنى باق معك ..

ووقف عند الباب يجرى وراءها بعينيه وهى تجرى نحو المصعد الذى سيهبط بها ..

* * *

وعادت هدى إلى البيت وهى هائمة فى ابتسامة حالمة .. وسخونة

لمسة الشفتين فوق عنقها تجعلها تحس كأنها ولدت من جديد .. ولدت فى عالم عاشت تبحث عنه وتتمناه .. وأفاقت من هيامها عندما عاد زوجها .. ونظرت إليه كأنها تراه لأول مرة .. إنه زوجها .. لأول مرة تحس به كزوجها وليس ابن خالتها .. والزوج شيء آخر .. لا تدرى الآن ماذا تقول له .. بل لا تدرى كيف تنظر إليه .. وعيناها عاجزتان عن تحديد نظرتها حائرتان بين مواجهته والهرب منه ، وبين تحديه والخجل أمامه .. ويغلب على عينيها الهرب .. تهرب من أن تنظر إليه .. وتتلهى عنه بابنها وابنتها بأعمال البيت .. حتى ابنها وابنتها أصبحت تحس وهى معهما كأنها تسألهما ماذا تفعل .. ماذا تفعل مع بنايوتى .. وما رأيهما فيه .. هل يقبلانه فى حياتها ..

وحرصت ساعة النوم على ألا تدخل الفراش إلا وزوجها قد أغفى .. ورقدت بعيدة عنه فى آخر الفراش .. إنه زوجها وليس ابن خالتها حتى تحس الألفة بينه وبينها .. وهى تريد أن تكون وحيدة مع أحلامها ومع هذه اللمسة الساخنة فوق عنقها .. وتسرى اللمسة إلى أن تصل إلى شفتيها .. وتتذكر قبلة تاكى وتبتسم ابتسامة واسعة كأنها تريد أن تضحك فرحا بذكريات سنتريس ..

وفى الصباح وجدت نفسها تتعجل عزيز ليخرج إلى عمله .. وكانت تدلله أكثر .. وتقدم له من خدمات الصباح أكثر .. كأنها كانت ترشوه حتى يخرج من البيت .. وما كاد يخرج حتى التقطت سماعة التليفون وطلبت فندق شيراتون .. الدور العاشر .. الغرفة رقم ٦ .. بنايوتى قسطنطين .. إنه ليس موجودا فى غرفته ..

الساعة التاسعة صباحا وقد خرج من الفندق ..

ووضعت سماعة التليفون وكأنها تلومه .. لقد خرج دون أن ينتظرها .. وقبل أن يسمع صوتها ويقول لها صباح الخير .. ولكن .. لعله فى بهو الفندق مجتمعا ببعض من يعمل معهم ..

وعادت ورفعت سماعة التليفون وطلبت فندق شيراتون .. إنها تسألهم أن يبحثوا عن بنايوتى فى البهو .. وبقيت السماعة معلقة فوق أذنها أكثر من خمس دقائق .. لا .. غير موجود ..

وبقيت بجانب التليفون وهى تنظر فيه كأنها تسأله متى يسمعها صوت بنايوتى .. وتذكرت عندما كانت تقضى أيام طفولتها وهى تنظر فى عينى أبيها تسأله متى يذهب إلى خمارة خريستو .. وابتسمت فى أسى .. إنها دائما محتاجة .. لا تملك أن تفرض إرادتها .. كأن ما تريده معلق بارادة أبيها والآن أصبح ما تريده معلقا بإرادة بنايوتى .. وقد طلبت فندق شيراتون أكثر من خمس مرات .. والتليفون دائما بجانبها وأصابعها تتمرد لإدارة قرص الأرقام .. حتى بعد أن جاء زوجها .. إنه زوجها وليس ابن خالتها .. ونظرت إليه كأنه جاء ليقطع عليها انتظار التليفون .. جاء ليفسد أحلامها .. ولكنها قدمت له الغداء ثم تركته جالسا مع طفليه وسحبت آلة التليفون ودخلت بها إلى غرفتها وعادت تدير أرقام الفندق ..

وكانت الساعة قد وصلت الخامسة مساء عندما سمعت صوت بنايوتى .. وضغطت على أعصابها حتى لا يبدو على صوتها معاناة الانتظار الطويل .. وقالت فى صوت تحاول أن يكون مرحا طبيعيا :

ــ ياسو ..

وصاح منطلقا بفرحته :

— أخيرا .. لقد كدت أيأس .. لقد اتصلت بالفندق من الخارج وقالوا لى إنك اتصلت بى .. ولكننى لم أكن أعرف متى تتصلين مرة ثانية .

وقالت وابتسامتها تتسع وتترك نفسها لفرحتها :

— إنى لم أذكر اسمى .. لعلها امرأة أخرى .. وقال كأنه يلومها :

— لم أكن أنتظر إلا أنت .. ولولا العمل لبقيت فى انتظارك طول اليوم .. المهم .. متى أراك ؟

قالت كأنها تقاوم نفسها :

— سنتحدث فى التليفون ..

وقال بسرعة :

— لا .. لا .. أرجوك .. دعينى أعيش فى انتظار لقياك لا فى انتظار التليفون .. إن انتظار التليفون وهم نعيشه والموعد واقع ننتظره .. دعينا نعيش فى انتظار الواقع .. قالت وقد قررت الاستسلام :

— غدا .. الساعة الحادية عشرة ..

وتردد قليلا وقال فى رجاء :

— هل يمكن أن تكون الثالثة بعد الظهر .. إنى مرتبط بمواعيد عمل .. سأضحى بالعمل لو أصررت ..

وفكرت بسرعة .. وطاف كل يومها بخيالها فى لمحة برق .. ثم قالت :

— لتكن الرابعة بعد الظهر .. إلى اللقاء ..

وألقت سماعة التليفون وهى تسمعه يقول :

— فى انتظارك ..

لم تكن تريد مزيدا من الكلام معه .. ليس هناك كلام تقوله له أو

كلام تريد أن تسمعه منه،إن كل ما فى فكرها هو ماذا تفعل به وماذا يفعل بها ..

وهى تعلم ماذا سيحدث بينهما هذه المرة ستتركه يقبلها .. ستترك له شفتيها .. إنه سيحاول أكثر هذه المرة .. لن يتنازل حرصا على اكتساب ثقتها كما تنازل أول مرة .. وهى لن تستطيع أن تقاوم كما قاومت .. بل إنها تعرف أنها لا تذهب إليه إلا لتعطيه شفتيها وتأخذ شفتيه .

واستراحت فوق المقعد وعادت شفتاها ترتعشان بذكرى القبلة الوحيدة التى لا تزال تعيشها .. وابتسمت ابتسامة حلوة وكل جسدها يسرى فيه وهم المتعة .. ولكنها فجأة وجدت نفسها تبتلع ابتسامتها وتقوم تخطو فى أنحاء البيت خطوات عصبية .. لماذا تذهب إليه .. لمجرد أنها أعجبت بشكله .. ولمجرد أنه ذكرها بتاكى .. ما هذا الجنون .. من أدراها به.ربما يريدها لمجرد متعة عابرة ولكن هى ماذا تريد منه .. لا تدرى ولكن .. ماذا ستخسر .. إنها تريد أن يكون فى حياتها شىء يبدد هذا الزهق .. ولو ذكرى تضيفها إلى ذكرى طفولتها .

ومرت بها الساعات وهى فى حيرتها .. بين فرحتها بالمغامرة وجزعها منها .. وحيرتها تجعلها تهرب بعينيها من زوجها ومن طفليها .. كأنها تخاف أن يكشفوا سرها .. ورفضت أن تخرج مع زوجها هذا المساء أيضا .. ونامت فى مؤخرة السرير حتى لا يلمسها .. إنها تعيش بكلها فى انتظار اللحظة .

ووجدت نفسها فى صباح اليوم التالى تدخل الحمام وتهتم بكل قطعة من جسدها كأنها فى انتظار ليلة الزفاف .. وتضمخ كل جسدها بالعطر .. لا بد أنه يحب العطور .. ولكن لماذا تعطر جسدها .. إن

جسدها لن يكون من نصيبه .. مستحيل .. لا يمكن .. ولكنها تعود وتحك جسدها بالليفة حتى تنطلق اللمعة من سماره الداكن .. ثم تقف أمام المرآة وتطمئن على سنتها الصناعية المغروزة فى لثتها .. وتعيد غسل أسنانها .. أكثر من مرة .. ثم خرجت من البيت إلى الكوافير .. لا .. لا أريد هذه التسريحة الهشة .. أريد أن أضم شعرى أريد تسريحة فلاحى .

وعادت إلى البيت ودخلت وهى مطأطئة الرأس كأنها تشعر بأنها لم تعد نفسها لهذا البيت ..

والموعد يقترب ..

وجلست إلى مائدة الغداء بين زوجها عزيز وابنها ياسر وابنتها علياء وهى لا تأكل .. ولا تتحدث .. ولا تنظر إليهم .. ماذا بك .. لا شىء .. تعبانة .. وكلما قيلت كلمة تجاهلتها أو ردت بكلمة باردة .. وقامت بعد الغداء وارتدت ثوبا كانت قد اختارته من الصباح .. إنها اختارته أيضاً حشمة .. لا يكشف عن ذراعيها ولا عن صدرها .. ذوق فلاحى .. وعادت تضمخ وجهها وعنقها بالعطر .. ثم وضعت فى فمها قطعة من اللادن .. وبدأت تمضغه .. إن اللادن يضمخ أنفاسها برائحة حلوة .. وهى تعلم أنها ستعطيه أنفاسها من خلال شفتيها ..

وقالت لزوجها إنها ستطوف بمحلات الشوارع .. ولم يكن زوجها يهتم أين تذهب .. طوال كل هذه السنين لم يهتم أو على الأصح لم يشك .. ولكنه قال لها :

— ولكنك تقولين إنك تعبانة ..

وقالت وهى فى طريقها إلى الباب :

— قد أستريح بالطواف على الدكاكين .. وخرجت ..

وركبت سيارة تاكسى .. وقبل أن تصل إلى الشيراتون أخرجت قطعة اللادن من بين شفتيها ووضعتها فى حقيبتها .. لا يمكن أن يراها وأسنانها مشغولة بمضغ اللادن ..

ودخلت الفندق وخطواتها أهدأ من المرة السابقة ولكن عينيها فى الأرض .. لا تريد أن ترى أحداً وكأن أحداً لن يراها ما دامت لا تراه .. وصعدت المصعد .. ووقفت أمام باب غرفته وكل ما فيها لا يزال صامتا .. وضغطت على جرس الباب .. ودخلت دون أن تنظر إليه .. ووقفت وهو ملتصق بها دون أن تتكلم .. وانحنى وقبلها قبلة سريعة على خدها وقال من خلال ابتسامته :

— ياسو ..

ولم ترد عليه .. وابتعدت عنه .. وطافت بعينيها فى الغرفة ثم انتقت المقعد الذى جلست عليه فى المرة السابقة .. تعمدت ألا تجلس على الأريكة .. إن الأريكة تمكنه منها أكثر .. وجلس على المقعد الملاصق وهو ينظر .. إليها بدهشة كأنه لم يكن ينتظر أن تكون من هذا النوع التحفظ الخجول الذى لا ينطلق مع اللقاء .. وقال كلاما مفتعلا .. وردت بكلمات أكثر افتعالا .. كلاهما لا يدرى من أين يبدأ .. ومال على مقعده ولصق خده بخدها .. ثم زحف بخده حتى لمست شفتاه شفتيها .. وفتح عينيه إلى عينيها كأنه يسألها .. كأنه لايستأذنها .. وفتحت عينيها إلى عينيه .. وأحست كأنها كلها تغوص فى هاتين العينين .. فأغمضت عينيها .. وأحست بكل شفتيها فى كل شفتيه ..

إنها ليست كالقبلة القديمة .. قبلة تاكى .. ليس هذا العنف وهذا الخطف الذى تتذكره والذى جعلها تتصور أنه ينتقم من إخوتها فيها ..

هذه القبلة تتسلل إليها فى هدوء .. وهى تسرى من شفتيها وتكاد تحس بها فى عنقها .. فى صدرها .. فى كل جسدها .. والهدوء ينطلق .. لم يعد هدوءا .. وهى تشعر .. لا تزال تشعر .. لم تفقد وعيها أو إحساسها كأنها تشاهد القبلة وتتفرج عليها ..

ولكن القبلة تطول .. وقد ترك مقعده وجلس على ركبتيه تحت ركبتيها حتى يأخذ منها أكثر .. وذراعاه تلتفان حول خصرها .. ثم ترتفع يده وتمسح فوق شعرها .. وهى تحس أنها تضعف .. وتضعف .. تكاد تفقد الوعى .. لا .. وأبعدته برفق عن صدرها .. وأبعدت شفتيها عن شفتيه .. وقالت وهى تلهث :

— بونتى .. كفاك ..

وقال وهو ينظر إليها بشفتيه :

— لن أكتفى منك العمر كله ..

وقالت وهى تدير وجهها عنه :

— أرجوك .. إنى أحس كأنى أكاد أبكى ..

وقال وهو يبتسم لها كأنه يخفف عنها :

— تبكين دموع فرحة لقائنا ..

وقالت ودموعها تلمع بين جفنيها :

— لا .. دموع حيرتى .. لماذا جئت .. وإلى أين أسير ..

قال وقد اعتدل فى جلسته ويده ممسكة بيدها فى حنان :

— جئت لأنك أنت وأنا ملك القدر .. ولا أدرى إلى أين نسير .. ولكننا دائما نسير معا ..

قالت وكأنها تجهش كلماتها :

— إنك قد تسافر ..

وقال بسرعة وإصرار صادق :

— تسافرين معى ..

وقالت فى ذهول :

— كيف .. إنى متزوجة .. وأولادى ..

قال وهو يمد ذراعه حول كتفيها :

— لا أدرى كيف .. ولا أحس بك زوجة .. وأولادك أولادى لأنى أريدك كما أنت وبكل ما فيك حتى لو كان فيك أولاد .. هدى .. إن الحب لا يصلح للتخطيط .. إن الحب يفرض نفسه لحظة بلحظة .. وفى اللحظة التى نقرر فيها سنعرف كيف نسافر .. دعينا نعيش اللحظة ..

وهى ساهمة .. عقلها يهدأ .. إنه على حق .. لماذا تفكر فيما سيحدث .. لماذا لا تعيش ما يحدث فعلا .. وهذا هو ما يحدث ..

وأحست بشفتيه تقتربان من شفتيها .. تعال .. تعال .. تعال نعش لحظتنا .. إنها تحس بمزيد من التحرر .. ومدت ذراعيها حول عنقه .. وشدته إليها .. وأعطته شفتيها قبل أن يعطيها شفتيه .. تقبله مع قبلته .. وتهنأ بأصابعه تتخلل شعرها وتشده .. إنها كلها تعيش اللحظة .. وقام يشدها إلى الباب المفتوح .. إلى غرفة النوم .. إلى الفراش .. لا .. مستحيل .. وأحست كأن باقة الورد الأحمر ترفع من فوق عينيها ..

وقاومته فى رفق . إنها لن تدخل من الباب المفتوح .. إنها فعلا لا تريد ..

ونظر إليها دهشا كأنه فوجئ بأنها من هذا النوع من النساء .. النوع الذى يرفض .. النوع الذى يسلط عقله على جسده .. ما هو الجسد يا

عبيطه .. إنه أيضا ملك اللحظة .. وهذه هي لحظة الجسد ..

ونظرت إليه كأنها تبتهل :

ــ أرجوك .. لا تغضب مني .. ولكن .. ليس اليوم ..

وقال مبتسما وهو يرخي يده عنها :

ــ إن اليوم هو كل يوم ..

وقالت وهي لا تزال تبتهل :

ــ إنه اليوم الأول .. وأريد أن أقتنع أكثر .. إنك كل شيء في قلبي .. في عواطفي .. في أمنياتي .. ولكن بقي شيء في عقلي يحاول أن يصل إليك .. دعني إلى أن أكون لك بكل عقلي كما أنا لك بكل قلبي ..

وهدأت البرقة في عينيه كأنها انهارت .. وانكمشت ابتسامته فوق شفتيه كأنها عادت من العالم البعيد ، وقال وهو يبتعد بها عن الباب المفتوح :

ــ إني لست ملكا لقلبي ولا لعقلي .. وقد قلت لك إني ملك للقدر .. والقدر يفرض اللحظات .. وكانت هذه إحدى لحظات القدر .. ولا شك أن القدر لا يريد لنا اليوم أكثر مما أعطانا .. ومن يدري ماذا يريد لنا غدا ..

وقالت وهي تتعلق به :

ــ سأتصل بك غدا بالتليفون ..

وقال ضاحكا :

ــ لا .. إلا التليفون .. إن التليفون يستعبدني وأنا في انتظاره .

قالت وهي تمسح بخدها فوق خده :

ــ سأتصل بك في التاسعة صباحا .. وسأبقى طول اليوم أحاول أن أسمع صوتك .. وسواء سمعته أو لم أسمعه فسأكون لك بعد غد ..

ـة الحادية عشرة صباحا ..

وقال بعد أن فكر كأنه يستعرض أعماله :

ــ وتبقين معي طول اليوم .. سأكون لك طول اليوم وأنت لي ..

وقالت في فرحة :

ــ طول اليوم ..

ثم قفزت وقبلته سريعة وانطلقت خارجة بعد أن قالت هامسة :

ــ سأغابو .. أحبك ..

قالتها باليونانية والعربية كأنها قررت أن تجمع بين الاثنين ..

* * *

وعادت هدى إلى البيت وهي غارقة في قبلات توني .. وعقلها مزدحم بخيالها كأنها تحاول أن تنقذ نفسها من الغرق .. إنها تستطيع أن تسافر معه إذا سافر .. هذا ما قاله لها .. لم لا .. إنها حياة جديدة .. واسعة .. حلوة .. يفتحها لها القدر .. ستعيش معه متنقلة بين البلاد التي يشدها إليه عمله .. أثينا .. باريس .. لندن .. نيويورك ..

ولكن كيف ..

إنها ستترك زوجها عزيز .. ستطلب الطلاق من هذا الزوج .. وأحست برعشة تعصف في صدرها .. هل تترك عزيز .. لم لا .. إنها ستترك زوجها لا ابن خالتها .. سيبقى ابن الخالة قريبا عزيزا كما هو .. إنه هو نفسه لم يشعر بها طول عمره إلا كابنة خالته .. ولم يعطها أكثر مما يعطي بنت خالته ، وما زاد عن ذلك كان يعطيه لمجرد واجبات .. واجبات حريص على إعطائها لأنه تعهد بها لا لأنه يحسها واجبات الزوجية ..

ولكن هل يقبل عزيز الطلاق .. حتى لو رفض .. لا يهم .. إن المرأة التى تريد الطلاق تصل إليه رغم كل شيء .. رغم الأهل .. ورغم كل القوانين .. وهى تعرف حكايات كثيرة عن صديقاتها اللاتى أردن الطلاق .. وإلى أن يتم الطلاق ستكون معه .. مع بونتى ..

ولكن ..

ابنها وابنتها ..

وعادت الرعشة يعصف داخل صدرها .. لا يهم .. إن ابنها وابنتها لن يكونا سعيدين إلا بسعادة أمهما .. ستأخذهما معها إلى الحياة الجديدة .. الحياة الواسعة .. حياة الحب .. لقد قال لها بونتى إنه يريدها بكل ما فيها .. وطفلاها فيها .. وإلى أن تستقر مع بونتى ستترك ابنها ياسر وابنتها علياء مع أمها .. إنهما يحبان أمها أكثر منها بل إنها كانت تتندر دائما بغيرتها من أمها على ياسر وعلياء .. ولكن .. كيف تتزوج بونتى .. إنه مسيحى .. لا يهم مادام يريدها معه فلن يرفض أن يتزوجها .. ولكى يتزوجها سيعلن إسلامه .. إن العشرات .. الآلاف .. دخلوا الإسلام لمجرد الزواج .. مجرد إجراء قانونى لا علاقة له بالإيمان .. وابتسمت وهى تهيم بخيالها إلى المستقبل .. ستأخذه معها لزيارة الحسين وستذهب معه للتبرك بالكنيسة ..

وفى هذه الليلة تعمدت أن تنام فى حجرة الأولاد بعيدا عن فراش الزوجية .. لقد بدأ الطلاق ..

* * *

وفى صباح اليوم طلبت فندق شيراتون بالتليفون .. إن بونتى غير موجود .. وقضت اليوم كله وهى بجانب التليفون تنظر إليه كما كانت

تنظر إليه كما كانت تنظر فى عين أبيها كأنها تسأله متى يذهب إلى خمارة كريستو .. ولم تستطع أن تجد بونتى طوال اليوم .. إنها فقط تريد أن تسمع صوته .. وهمت أن تغضب منه .. لماذا يتعمد أن لا ينتظر تليفونها .. ولكنه قال لها إنه لا يستطيع أن يكون عبدا فى انتظار التليفون .. له حق .. إنه مزدحم بالأعمال ولا يستطيع أن يترك عمله ليجلس كما تجلس هى بجانب التليفون وكما يفعل الشبان التافهون .. ويكفى أن وعدها غدا بيوم كامل .. سيكون كله لها .. سيضحى بعمله من أجلها .. من أجل حبه لها ..

ولم تنم هذه الليلة التى قضتها أيضا فى غرفة الأولاد ، وخيالها يرتفع بها إلى السماء ويهبط بها الأرض .. وتعيش ابتسامة ثم تنهار فى دموعها ..

* * *

وجاء الغد ..

ودخلت الحمام .. وأمضت مدة أطول فى دعك جسدها بالليفة حتى يزداد لمعان سمرتها الغامقة .. وتضمخت بمزيد من العطر .. إنها تعرف ما ستعطيه اليوم .. ستدخل معه من الباب المفتوح .. وترقد بين ذراعيه على الفراش .. لن تستطيع أن ترفض هذه المرة .. يجب أن يكتمل بينهما كل شيء حتى تجربه ويجربها قبل أن يحددا مصيرهما ..

وابتسمت فى خفر .. إنها تريده كما يريدها .. إن سخونة قبلاته لا تزال مشتعلة فى كل أنحائها .. وفى داخلها ..

وقامت واطمأنت إلى سنتها المغروزة فى لثتها .. ثم انتقت ثوبا منفتحا .. ليس من الطراز الفلاحى .. إنه يكشف عن كل الأبواب التى يمكن أن يصل منها إلى ما تعطيه ..

ووضعت فى فمها قطعة اللادن ثم ذهبت إلى فندق شيراتون .. وكانت قد قالت لزوجها وطفليها إنها ستتناول الغداء خارج البيت ..

ودخلت الفندق فى بساطة كأنها تدخل إلى مكانها .. إلى بيتها .. ودخلت المصعد كأنها صاحبة ملك .. ووقفت أمام باب الحجرة تدق الجرس ..

الباب لا يفتح ..

وبقيت فترة وأصابعها على الجرس والباب لا يفتح ..

ربما كان جالسا فى البهو مع رجال جاءوه فجأة ..

ونزلت إلى البهو .. إنه ليس هنا .. وطافت بكل أبهاء الفندق .. إنها لا تجده ..

وانطلقت كالمجنونة إلى موظف الاستقبال وسألت بلهجة مرتعشة :

ـــ هل أستطيع أن أتصل بمستر بنايوتى قسطنطين ..

ورفع إليها موظف الاستقبال عينيه كأنه يحاول أن يتحقق من نوعها .. هذا النوع من النساء .. ثم قال فى برود :

ـــ لقد سافر مستر بنايوتى ..

وقالت كأنها تصرخ :

ـــ سافر .. متى ؟

وقال الموظف وهو ينظر إليها فى دهشة :

ـــ مساء أمس .. يبدو أنه كان على عجل .. لقد أبلغنا فجأة ..

واستندت بيدها على الحائط حتى لا تقع على الأرض منهارة .. ثم أخذت تطوف بأنحاء الفندق وهى ذاهلة .. كأنها لا تريد أن تترك هذا الفندق إلا مع بونتى .. وتذكرت ابنة عمه .. إنها لا تزال تتذكر نمرة

تليفونها .. وذهبت إلى عاملة التليفون وطلبت النمرة .. ولكن الاتصال بتليفونات مصر الجديدة مستحيل .. إنها تعرف ذلك ولكنها تعرف أيضاً أن تليفونات مصر الجديدة تعمل بين بعضها وبعض .. أى تستطيع أن تتصل بابنة عمه لو كانت فى مصر الجديدة .. واتخذت قرارها بسرعة .. وخرجت من الفندق وركبت سيارة تاكسى إلى مصر الجديدة ومن هناك استطاعت أن تتصل بالتليفون بابنة عمه وقالت بسرعة دون أن تستطيع أن تلقى التحية .

ـــ أنا هدى .. اين بونتى ؟!

وقالت فوتينية بعد أن ألقت تحية طويلة مرحة ترحب بها بهدى :

ـــ لقد سافر أمس .. جاءه تلكس عاجل اضطره أن يسافر فى المساء إلى نيودلهى .. إلى الهند .. وقد اتصل بى لأ تصل بك بالتليفون .. ولكنك تعرفين أن تليفونات مصر الجديدة مقطوعة عن بقية مصر ..

وقالت هدى وهى تضغط على أعصابها :

ـــ ألم يترك رسالة ..

وقالت فوتينية بدهشة كأن تبادل الرسائل ليس من تقاليد هذه العلاقات :

ـــ لا .. لماذا .. هل هناك شىء .. لقد طلب منى أن اعتذر لك عن الموعد ..

وقالت هدى كأنها بدأت تفيق إلى حالها :

ـــ متى يعود ؟

وقالت فوتينية وهى تضحك ضحكة كبيرة :

ـــ إنك لا تعرفين أبدا متى يظهر بونتى ومتى يختفى ..

وقالت هدى كأنها تلفظ أنفاسها :

ــ شكرا ..

وألقت سماعة التليفون وركبت سيارة الأجرة عائدة إلى البيت... وهى تحاول أن تطفئ النار المشتعلة فى أعصابها .. تحاول أن تنسى .. وابتسمت بينها وبين نفسها ابتسامة مسكينة .. إنها أيضا لم تجد تاكى أيام سنتريس عندما ذهبت إليه لتبقى معه ..

ودخلت البيت ..

وعندما التقت عيناها بعينى عزيز رأته كما تعودت أن تراه .. ابن خالتها لا زوجها .. لم يعاودها الإحساس بأنها أخطأت فى حق الزوج ..

ووقفت أمام المرآة تبحلق فى سمارها الغامق ووجهها الفلاحى .. ومدت يدها ونزعت سنتها الصناعية وبين شفتيها ابتسامة مسكينة تقطر بالحسرة .. من يدرى ربما لو كانت بيضاء شقراء لما تركها بنايوتى ..

* * *

والسنوات تمر وبنايوتى لا يعود .. وكلما مرت بفندق شيراتون تذكرت خمارة خريستو ..

أيام فى الحلال..

١

منذ اليوم الأول وكل منهما يعلم أن لا أمل له فى الآخر ..
أنه متزوج ..
وهى مخطوبة ..
ورغم ذلك فقد أحس كل منهما عندما التقيا بأنه كان يبحث عن الآخر ..

وكانت تعمل سكرتيرة لمدير مؤسسة الإنشاءات الكبرى وكل ما ألصق بها لقب سكرتيرة أنها كانت تجلس فى غرفة مكتب ملاصقة لغرفة مكتب المدير.. ولكنها فى الواقع كانت أكثر من سكرتيرة.. كانت تتولى كل أعمال الاتصالات الخارجية الخاصة بالشركة .. تكتب وتترجم التقارير والبرقيات وإشارات التلكس التى تتعامل بها الشركة .. وكانت تتحمل مسئولية استقبال المندوبين الأجانب .. وكان لها مساعدات ومساعدين من موظفى الشركة .. رغم أنها كانت لا تزال صغيرة لا تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها .. ربما كانت قرابتها للمدير هى التى سهلت لها تحمل كل هذه المسئوليات داخل الشركة .. إن المدير هو ابن عم خالها .. ولكنها استطاعت أن تكسب صداقة واحترام العاملين معها بشخصيتها لا بقرابتها للمدير .. إنها سمراء جميلة .. هذا الجمال الهادىء الذى يشدك دون أن يثيرك .. الجمال الذى يريحك وتحس أمامه كأنك تتنهد بعد مشوار طويل .. وربما كان أجمل ما فيها هو ذكاؤها .. إنه ذكاء

يلمع فى كل كلمة من كلماتها .. وفى كل ابتسامة تختار لها مناسبتها .. وفى الزى تختاره لنفسها .. وفى عقصة شعرها .. وفى الألوان التى توزعها على وجهها .. وهذا الذكاء هو الذى استطاعت به أن تقنع زملاءها بالاعتماد عليها فى عملهم ..

وهو يكبرها سنا .. إنه فى الثالثة والثلاثين .. وهو وسيم دون أن يبدو عليه أنه يحس بوسامته أو يحاول أن يستغلها .. وأبرز ما يقدم شخصيته هو ذكاؤه هو الآخر .. ولكنه نوع آخر من الذكاء .. إنه ذكاء مغامر مندفع يلمع فى عينيه وينبض فى نشاطه كأنه لا يستطيع أن يعيش إلا وهو يجرى .. وهو ضنين بابتسامته كأنه أقوى بذكائه من أن يستعين بابتسامة تقدمه لمن يتعامل معهم .. وكلماته سريعة حاسمة كأنه واثق من أنه انتهى من دراسة الموضوع الذى يتكلم فيه حتى لم يعد كلامه يستدعى المناقشة .. وكان أيامها يعمل فى مكتب للتصدير والاستيراد وقد جاء لمقابلة المدير .. ووقف قبالتها ومرت برهة وعيناه مركزتان على وجهها كأنه يكتشف شيئا جديدا ثم قال دون أن يبتسم :

ــ منذ متى وأنت هنا ؟

وقالت وهى تبتسم له الابتسامة الصغيرة التى تعودت أن تستقبل بها كل زبون ولو أنها أحست أن ابتسامتها تتعلق بصورة تعجب بها ..

ــ إنى هنا منذ عام ..

قال كأنه يلوم نفسه :

ــ إنى فعلا لم أتردد على هذه الشركة منذ شهور .. أين كنت قبل ذلك ؟.

قالت وابتسامتها تتسع كأنها ترحب بأن يعرف عنها كل شىء :

ـــ كنت فى الجامعة ..

وقال بسرعة كأنه يحاسبها :

ـــ هل تخرجت فى هذا العام ؟

ـــ قالت وهى تجاريه فى سرعته :

ـــ لا .. تخرجت منذ ثلاث سنوات .. وكنت أفكر وأجرب إلى أن قررت الاستقرار فى هذا العمل ..

قال فى لهجة طبيعية كأنه لا يرمى إلى شىء :

ـــ إنه عمل يجمعنا .. هل أستطيع أن أقابل المدير ؟

ولم ترد عليه .. عجز ذكاؤها عن الرد عليه .. وقامت صامتة وأدخلته غرفة المدير وعادت وجلست إلى مكتبها وهى تحس أنها فى انتظاره لتراه أكثر ..

وطالت غيبته فى غرفة المدير .. أو خيل إليها أنها طالت .. ثم خرج ووقف قبالتها يصافحها وعلى شفتيه ظل ابتسامة عابرة وقال وكأنه لا ينتظر ردا :

ـــ سأراك ..

ثم ابتعد خارجا دون أن يسمع صوتها ..

ووجدت نفسها تفتح الورقة التى تعودت أن تسجل عليها أسماء زوار المدير وتعيد قراءة اسمه .. مجدى عبد الحميد .. وابتسمت كأنها تتذوق هذا الاسم .. ثم اتسعت ابتسامتها كأنها تسخر من نفسها وتلومها لأنها تهتم بمثل هذه الخواطر .. خواطر المراهقات .. وألقت بالورقة بين بقية الأوراق التى تحمل أسماء الزوار وهمت أن تعود إلى عملها عندما استدعاها المدير ..

وقال لها المدير فى لهجة الأب الحنون وهو يناولها مجموعة من الأوراق :

ـــ هذا عرض قدمه مكتب التصدير .. احفظيه عندك حتى أطلبه منك ..

وفهمت توا أنه العرض الذى قدمه مجدى ووجدت نفسها تسأل :

ـــ هل سبق أن تعاملنا مع هذا المكتب ؟

وقال قريبها المدير وهو يبتسم ابتسامة رضاء :

ـــ إن مجدى رجل أعمال شاطر ذكى وقد سبق أن تعاملنا معه وحققنا صفقات رابحة ..

وقالت كأنها تبرر اهتمامها :

ـــ إنى أسأل لأنى لم أره هنا من قبل ..

وقال المدير ضاحكا :

ـــ هذا خير ما فى مجدى .. إننا لا نراه إلا وهو فى حاجة إلينا .. إنه لا يكلف نفسه حتى مجرد السلام ما دام ليس لديه مشروع يجرى وراءه ..

وحملت عدلية الأوراق وعادت بها إلى مكتبها وأخذت تقرأ فيها باهتمام شديد كأنها هى صاحبة المشروع .. كأنها أوراق مشروع بينها وبين مجدى ..

ووجدت نفسها بعد أن عادت إلى البيت تحادث أختها اعتماد عن مجدى كشخصية عجيبة التقت بها .. وأختها هى أقرب الناس إليها .. منذ نشأتهما وكل منهما تعيش فى داخل الأخرى .. كل منهما تفتح للأخرى كل آرائها وكل خواطرها وكل أحاسيسها .. وكل منهما تلمح

نوازع الأخرى حتى تستطيع أن تقول متى ابتسمت ومتى تاهت مع نفسها وكم ملعقة أرز أكلتها فى وجبة الغداء .. وهى فى مثل ذكائها .. ولكن اعتماد اتجهت بذكائها اتجاها آخر .. إنها لم تدخل الجامعة وحصرت ذكاءها فى اختيار الزوج ثم فى تربية الأولاد والإشراف على البيت .. ولا شك أنها بذكائها استطاعت أن تكون زوجة وست بيت ناجحة سعيدة ..

ومنذ توفى الأب وعدلية وأمها تعيشان مع اعتماد وزوجها وأولادها فى بيت واحد .. ليس الزوج هو الذى ينفق وحده على البيت ولكن الأم تساهم معه فى المصروف وربما تتحمل المسئولية الأكبر .. إن عدلية وأختها ورثتا الذكاء عن أمهما أما أبوهما فلم يكن فى مثل هذا الذكاء الواسع.. كان كل ذكائه محصورا فى أداء وظيفته الحكومية.. وقد وصل بها إلى درجة مدير عام ولكنه ظل دائما موظفا فإذا ابتعد عن المسئولية الوظيفية أصبح إنسانا متعبا متزمتا يمسك بالتقاليد والمظاهر القديمة ويعلقها فوق رأسه كأعلام المولد ولا يقبل أى نسمة تهز علما من هذه الأعلام .. ولولا ذكاء أمهما لما استطاعت العائلة أن تسير فى هذا السهل الواسع الذى حقق أحلام كل أفرادها ..

وأخوها الأكبر كريم ورث هو الآخر ذكاء أمها .. إنه منذ شبابه وهو يحسب خطواته ليحقق أهدافه .. وقد التحق بكلية العلوم واستطاع أن يحصل على بعثة دراسية إلى أمريكا بعد تخرجه .. وهناك تفوق فى دراسته حتى عين مدرسا فى إحدى الجامعات الأمريكية وقرر أن يقيم هناك .. لقد وجد هناك مجالا أوسع لاستغلال مواهبه .. وقد مضى أكثر من ثمانى سنوات وهو لا يعود إلى مصر .. ربما لأنه كان يخشى أن يطلب فى

التجنيد .. ولكن هذا لا يهم .. كان كل ما يهم عائلته هو التساؤل المستمر .. هل تزوج أمريكية .. لا .. إنه أذكى من أن يتزوج أمريكية .. إن الاحتفاظ بشخصيته كاملة يفرض عليه إن أراد أن يتزوج أن يتزوج من داخل شخصيته .. أى من مصر .. ولكن ذكاءه أيضا كان لا يمكن أن يدفعه إلى أن يرسل إلى أمه لتختار له عروسة وترسلها إليه هنا .. حتى ابنة خالته التى كان معروفا أنه معجب بها ويميل إليها لم يرسل فى طلبها كزوجة .. حتى لو قبلت ابنة خالته الذهاب إليه كزوجة فهو لا يدرى إن كانت ستتحمل المجتمع الأمريكى الذى يعيش فيه أم تضيق بهذا المجتمع حتى تهرب منه .. تهرب من المجتمع ومنه .. إن كثيرات من الزوجات المصريات هربن من الحياة فى أمريكا .. ولذلك انتظر طويلا دون أن يسعى إلى الزواج إلى أن التقى بفتاة مصرية ذهبت لتتم دراستها هناك .. ولا يعلم أحد ماذا تم بينه وبينها ولكنه أرسل إليهم خطابا فى كلمات قصيرة يقول إنه تزوجها .. وفى الخطاب صورة .. لم تكن صورة حفل الزفاف .. ولا صورة من الصور التقليدية التى تجمع عروسة وعريس ولكنها كانت صورتهما وهما يصطادان السمك على حافة إحدى البحيرات .. وقد كانت الأم تتمنى أن تذهب إلى هناك لتراه وتخمد لهفة شوقها إليه .. واشتدت هذه الأمنية بعد أن تزوج .. وقد كانت تريد أن تطمئن على رأيها فى هذه الزوجة قبل اطمئنانها عليه كعادة الأمهات .. ولكنها لم تسافر وهو لم يكن يلح فى إقناعها .. كأن بينهما نوع من العناد والتعالى بالذات وكل منهما يريد من الآخر أن يضعف أمام شوقه إليه ..

أما أخوها الأصغر حسام فلم يكن فيه شىء من ذكاء أمها الذى يشمل

كل نواحى الحياة .. إنه كأبيه يحصر ذكاؤه فى مجال واحد .. واختار أن يحصر ذكاؤه فى الألعاب الرياضية .. وفى نوع واحد من هذه الألعاب .. النوع العنيف .. استطاع أن يكون بطلا من أبطال المصارعة .. وكان يشترك فى بطولات البوكس والكاراتيه .. ويتحدى فى رفع الأثقال .. ولم يجرب أبدا الرياضة الهادئة .. لم يحاول أبدا أن يلعب التنس أو الجولف بل إنه لا يستطيع السباحة ويغرق فى شبر من ماء .. إنه يعتبر هذه الأنواع من الألعاب الرياضية قاصرة على الأولاد المدللين الذين يأخذون الرياضة لمجرد وسيلة لملء الفراغ أو التظاهر الاجتماعى ولا يؤمنون بأن قوة الرجل فى قوة جسده .. أن يضرب .. وأن يتحدى المستحيل .. وقد كان حسام فخورا متباهيا بقوة جسده .. وكان كل وقته حتى داخل البيت يقضيه فى الاهتمام بتدريب عضلاته كأنه لا يملك فى كل حياته سوى هذه العضلات .. يربيها ويدللها ويغذيها .. ويمشى كأنه يستعرض قوامه .. وهو قوام قد لا يجذب أغلبه البنات .. لأنه قوام طويل عريض تبرز عضلاته كأنها تصرخ .. وكان حسام يرضى غروره أن هذا القوام كان يفرض على كل رجل يلتقى به أن يحسب حسابه .. إن ضربة واحدة منه تنهى أى مناقشة وتسكت أى رجل .. وقد استعمل ضرباته فعلا واشترك فى كثير من الخناقات .. إنه الفتوة الذى يفرض إرادته على كل أفراد الشلة وعلى كل من يقترب من الشلة .. حتى أصبحت العائلة عندما تسمع عن أخبار المعارك التى اشترك فيها حسام لا تهتم كثيرا .. وعندما يعود إلى البيت ووجهه مخدوش أو عليه قطرة دم لا تجزع ولا تسأل .. وقد التحق حسام بالكلية العسكرية لا حبا فى العسكرية ولكن

لأنه قدر أن هذه الكلية تحتاج إلى عضلاته أكثر .. وقد اشتهر فعلا فى الكلية ببطولة الألعاب العنيفة ، وبعد أن تخرج عهد إليه بمركز يستطيع فيه أن يستمر فى ممارسة طبيعته والإشراف على ألعاب القوى ، بل إنه اكتسب إعجاب رؤسائه حتى عين فى مكتب قائد القوات .. وربما كمستشار .. ربما كسكرتير ربما كحارس خاص يحمى قائد القوات بعضلاته .. وبعد أن تخرج فى الكلية مباشرة طلب من أمه أن تبحث له عن زوجة .. لم تكن فى حياته قصة حب تدفعه للزواج .. بل لعله لم يحفل أبدا بما يسمى حب .. كما لم تكن فى حياته فتاة تغريه بالزواج حتى بلا حب .. ربما كان كل ما يدفعه إلى الزواج هو إحساسه بحاجته إلى تغذية عضلاته .. إن الزواج يصون العضلات .. ولم ينتظر حسام حتى تختار له أمه من يتزوجها بل تزوج شقيقة أحد زملائه الضباط وأقام حفلا كان أهم ما أحياه حضور قائد القوات .. وأقام مع زوجته فى شقة استطاع بنفوذه أن يجدها فى منشية البكرى ..

كانت هذه هى العائلة ..

ورغم التباعد بين أفرادها فقد كان ذكاء الأم يجمعهم دائما فى كل مشكلة تمر على العائلة .. حتى الأخ المقيم فى أمريكا كانت تبلغ له المشكلة ليقول رأيه فيها ..

وكانت عدلية تعيش مع أختها اعتماد وكل منهما فى داخل الأخرى ..

وقالت لها اعتماد بعد أن أطالت الحديث عن مجدى :

— يبدو أنه أثار اهتمامك .. إنك لم تهتمى بأحد منذ دخلت الشركة مثل هذا الاهتمام ..

وقالت عدلية ضاحكة :

— لقد أثار دهشتى لا اهتمامى .. لقد بدأ حديثه معى كأنه يعرفنى منذ زمن طويل .. وعمى شكرى بيه المدير يقول عنه إنه شخصية ناجحة فى عمله ..

وقالت اعتماد بلا اهتمام :

— إنى لا أطمئن لرجال الأعمال .. إن كلا منهم يعتبر كل من يقابله سواء قابل رجلا أو امرأة كأنه صفقة .. ويختار كلامه بقدر حاجته إلى هذه الصفقة ..

وابتسمت عدلية فى صمت .. إنها لا يمكن أن تكون صفقة بالنسبة لمجدى .. أو ربما كان قدم لها نفسه بهذا الأسلوب الذى يرفع بينهما التكلف لأنها سكرتيرة المدير الذى يسعى إلى لقائه .. ولكن هل أثار اهتمامها فعلا .. إنها لم تتعود الاهتمام بأحد .. إن ذكاءها كان يفرض عليها أن تهتم بنفسها فقط .. وكل من عرفتهم من الشبان فى الجامعة أو خارج الجامعة كان طريقا لشىء تريده .. لا لأن هذا الشاب يستحق المعرفة أو يثير فيها الرغبة فى معرفته .. حتى ابتسامتها كانت تخضعها لذكائها .. كانت تعطى ابتسامتها بمقاييس .. ابتسامة واسعة وابتسامة ضيقة حسب ما يحدد ذكاؤها حاجتها إلى هذه الابتسامة .. ربما كانت كما وصف عمها المدير .. إنها مثله لا تتحرك إلا عندما تحتاج إلى شىء تتحرك من أجله .. وقد نجحت كما نجح مجدى .. نجحت دائما فى دراستها لأنها كانت تريد أن تنجح .. ونجحت فى تكوين شخصية تحس دائما بأنها تثير الاحترام والإعجاب .. وقد تخرجت فى كلية السياسة والاقتصاد بتقدير جيد جدا وكان يمكن أن تقبل الوظيفة فى الشركة التى يديرها قريبها شكرى بيه منذ اليوم الأول ولكن ذكاءها دفعها إلى أن تبدأ

تجربة نفسها دون حاجة إلى واسطة .. واستطاعت أن تجرب العمل فى أكثر من شركة .. وكانت فى الوقت نفسه تدرس استعمال الآلة الكاتبة حتى أجادت الكتابة باللغة العربية والإنجليزية .. كما درست أكثر فى علوم الحسابات وإدارة الأعمال .. إلى أن جاءهم يوما قريبها المدير وقال لها إن مدحت يريد أن يتقدم لخطوبتها .. إن مدحت هو ابن شقيق شكرى بيه وهو يعمل فى مكتب محاسبات وهى تعرفه .. إنه شاب هادىء جاد وسيم .. ربما كان معتدلا فى طموحه وفى تصرفاته .. ولكن لا شك أنه كامل وقد أحست بالراحة فى المرات التى التقت به عائليا وتبادلا الآراء ونظراتهما فى الحياة .. وليس هناك ما يمكن أن يشغل عقلها عن تقدير ما يطلبه مدحت .. ثم إنها فى حاجة إلى الزواج .. إن الزواج استكمال لشخصية البنت واستكمال لوضعها الاجتماعى .. وعقلها مقتنع بالزواج من مدحت .. ومضت أيام وهى تراجع نفسها إلى أن أعلنت خطوبتها لمدحت .. وأحاطت أصبعها بالخاتم الذى يحمل اسمه .. ولكن حتى بعد الخطوبة ظل العقل هو الذى يجمع بينها وبين مدحت .. العقل المقتنع السعيد باقتناعه .. ووجدت ذكاءها يقنعها بعد أن تمت الخطوبة بأن تعمل فى المؤسسة التى يرأسها قريبها شكرى بيه .. إنها الآن فى حاجة أكثر إلى الاستقرار ..

ترى ما الفرق بين مدحت ورجل مثل مجدى ..

فرق كبير ..

إنه الفرق بين الاعتدال والطموح وبين الهدوء والاندفاع .. إنه الفرق بين الشخصية التى تقدم نفسها والشخصية التى تفرض نفسها ..

ولكن لماذا تقارن بينهما ..

لماذا تهتم به كل هذا الاهتمام ..

لا .. إنها لا تهتم إنها تتعجب ..

* * *

وفى اليوم التالى ذهبت إلى مكتبها فى الشركة وانشغلت فى عملها ولكنها وجدت نفسها وقد سنحت لها لحظات فراغ تفتح الدوسيهات وتخرج منها المشروع الذى قدمه مجدى للشركة وتبدأ فى إعادة قراءته من جديد .. لماذا تقرأه .. إنه ليس من اختصاصها .. وليس فيه ما تهتم به أكثر مما فى المشروعات الأخرى التى تقدم للشركة .. وابتسمت ابتسامة ساخرة تسخر بها من نفسها وطوت المشروع قبل أن تتم قراءته وألقت به بين الدوسيهات ..

وفى اليوم الذى بعده كانت كأنها قد نسيت اهتمامها بهذا الرجل .. وفجأة وجدته أمامها بوجهه الوسيم وعيناه الجريئتان اللتان تلمعان بذكائه .. وقال فورا فى لهجة عادية وشفتان مرتاحتان رغم أنهما لا تبتسمان .. ودون أن يلقى تحية وكأنه لم يتركها أبدا منذ التقى بها :

ـ هل اتخذ المدير أى أجراء خاص بالمشروع ؟!

وقالت وهى تبتسم ابتسامة أطلقها تعجبا منه :

ـ أى مشروع .

وقال فى بساطة :

ـ المشروع الذى قدمته إليه ..

وقالت من خلال ابتسامتها المتعجبة :

ـ لقد أعطاه لى لأحتفظ به إلى أن يطلبه .

وقال بسرعة وفى لهجته فرحة الحماس :

ـ هل قرأتيه .. هل فهمتيه ؟

قالت وهى تحس أنها بدأت ترتاح من تعجبها كأنها عرفته ولم يعد غريبا عليها : نعم قرأته .. وفهمته .

وقال فى حماس هادئ وكأنه يتباهى بنفسه :

ـ إنها عملية رائعة .. سنستورد معدات ألمانية ولكننا لن نستوردها من ألمانيا سنستوردها من إنجلترا .. هل تعرفين ماذا يعنى هذا .. يعنى توفير حوالى مائة ألف دولار وهو الفرق بين سعر الدولار فى ألمانيا وفى إنجلترا ..

وألقى نفسه على المقعد الملتصق بمكتبها واستطرد قائلا :

ـ هل ذهبت إلى لندن ؟!

قالت وهى تميل برأسها ناحيته كأنها لم تعد تحس بالكلفه بينه وبينها :

ـ لا ..

قال وهو يعلق عينيه بوجهها كأنه يحاول أن يكتشف أكثر :

ـ ولا إلى ألمانيا ؟!

قالت وقد سقطت عيناها على أصبع يده اليسرى :

ـ لا .. لم أترك مصر أبدا ..

ووجدت نفسها تعتدل فى جلستها وترفع رأسها بعيدا عنه .. إنه متزوج الدبلة فى أصبع يده .. وأحست كأنها ارتاحت .. وهو متزوج وهى مخطوبة كل منهما يستطيع أن يطمئن إلى معرفته بالآخر .. لم يعد بينهما ما يثير الحيرة .. وسمعته يتكلم مرتاحا ويقول كأنه معها هى وليس مع عمله فى مكتب عمل :

ـ إنى لا أحب لندن .. إنها بلد لا تشعرين فيها بأى إحساس .. كل

ما فيها ملل .. ولكن في برلين بألمانيا ؛ فرغم أن العمل هناك أوسع وأضخم منه في لندن إلا أنك هناك لا تحرمين من متعة الإحساس ..

وتكلم طويلا عن رحلاته وعن الدول التي تردد إليها .. ووجدت نفسها تنساق في الاستماع إليه .. ربما لأنه يزودها بمعلومات جديدة مثيرة .. ولكن لا .. إنها تحب الاستماع إليه .. إلى أن قال وكأنه أفاق من أحلام كان يعيش فيها :

ــ نسيت .. إني أريد أن أقابل المدير ..

قالت من خلال ابتسامة واسعة :

ــ أنا لم أنس .. مادمت هنا فلا شك أنك جئت لمقابلة المدير ..

وقال من خلال شفتيه الهادئتين اللتين لا تبتسمان :

ــ لا أدري ..

وقامت تدخل به إلى مكتب المدير وهي تحس بإحساس آخر .. إحساس أكثر هدوءا .. لأنها اكتشفت أنه متزوج ..

وغاب في مكتب المدير ثم عاد إليها وقال منصرفا دون أن يمد يده إليها :

ــ سأراك ..

ولم تستطع أن تتخلص من التفكير فيه .. إنه يشغلها أكثر .. وعندما عادت يومها إلى البيت وجدت نفسها تجلس مع أختها اعتماد وتروى لها كل كلمة قالها مجدى .. واعتماد تنظر إليها في ريبة تزيحها بثقتها في ذكاء أختها وثقتها في قوة شخصيتها .. لا يمكن أن يكون مجدى قد أثار في أختها ما لا يثيره رجل آخر ..

وفي اليوم التالي وجدت مجدى أمامها وقال لها بسرعة وهو يمد يده

إليها على غير عادته وتحس بيده تضغط على يدها :

ــ قولى للمدير إني في انتظار أن يتصل بي .. لن أستطيع أن أراه اليوم .. إني مرتبط بمواعيد عمل .. ثم ترك يدها وانصرف بعد أن قال :

ــ سأراك ..

وتركها وهي أكثر دهشة .. لماذا جاء مادام لن يقابل المدير .. وكيف تجرأ وضغط على يدها وهو يصافحها .. ولكن .. هل ضغط على يدها .. ربما كانت تتوهم أنه ضغط على يدها وهو وهم أثاره اهتمامها به وانجذابها إليه .. نعم إنها تعترف أنها مجذوبة إليه .. كأن في شخصيته قوة جذب لا تستطيع أن تقاومها .. ولكن .. قد تكون هذه هي طبيعته عندما يصافح أي إنسان .. أن يضغط على اليد التي يصافحها ..

وجاء اليوم التالي وأحست بنفسها في انتظاره .. بل وجدت نفسها تتعمد ألا تترك مكتبها لأى داع من دواعي العمل حرصا على أن يجدها عندما يأتي ..

ولكنه لم يأت ..

ووجدت نفسها تلوم وتعاتب نفسها .. ما هذا الجنون .. كيف تترك نفسها لهذه الأحاسيس إلى حد أن تحس بأنها تجلس في انتظاره .. إنها المرة الأولى في حياتها التي تتعرض فيها لمثل هذه الأحاسيس .. لمثل هذا الضعف .. أين عقلك .. أين ذكاؤك الذي تعودت أن تتباهى به ..

ووجدته أمامها في اليوم الذي يليه ..

وجلس على المقعد الذي يلاصق مكتبها وبدأ يتحدث .. يتحدث في أي شيء .. عن عمله .. وعن رحلاته .. وعن طفولته .. وهي لا تقاوم الاستماع إليه .. بالعكس .. إنها تستزيده من الحديث بأسئلتها

وبالتحدث عن نفسها .. إلى أن سقطت عيناه على الدبلة التى تحملها فى أصبعها وقال وكأنه صدم :

— هل أنت متزوجة ؟

قالت وهى تبتسم فى شماته كأنها ليست أقل منه فى وضعها :

— مخطوبة ..

قال كأنه يلومها :

— لقد تأخرت على طويلا ..

قالت وكأن كلاهما قد قرر مصارحة الآخر :

— أنت الذى تسرعت ..

قال وهو يتنهد كأنه يتحسر على نفسه :

— تقصدين أنى تزوجت .. اسمعى .. سأتكلم بصراحة .. إنى لا آتى هنا لمقابلة المدير .. إن معظم ما أحتاج إليه من مقابلة المدير يمكن أن أصل إليه بالتحدث معه فى التليفون .. ولكنى وجدت نفسى مندفعا إلى هنا كل يوم لأراك ..

وقالت فى صوت خافت وهى تبعد عينيها عن عينيه :

— لقد تعودت انتظارك ..

قال وقد علت شفتيه لأول مرة ابتسامة صغيرة كأنها ابتسامة رجاء :

— لنلتقى بعيدا عن هنا .. بعيدا عن المكتب وعن قوالب العمل ..

قالت وهى تنظر إليه دون أن يكون فى نظرتها رفض أو عتاب :

— لماذا ؟

قال وقد ضاعت ابتسامته :

— لا أدرى لماذا .. إلى الآن لا أدرى .. ربما لأنى أرتاح إليك

ولعلك ترتاحين إلى .. ونحن فى حاجة إلى الراحة بعيداً عن مكاتب العمل ..

قالت وكأنها تحادث نفسها :

— أنت متزوج وأنا مخطوبة ..

قال بسرعة وهو يبحث بعينيه عن عينيها :

— إنه لقاء لا يمس زوجتى ولا خطيبك .. كما نلتقى هنا نلتقى فى أى مكان ..

قالت وهى لا تزال ساهمة :

— لا أظن أنى أستطيع ..

قال وهو يهم واقفا :

— اسمعى .. إنى أعلم أنك تقيمين فى المعادى وسأنتظرك هناك يوم الجمعة القادم فى الساعة الحادية عشرة صباحا وأنا فى سيارتى أمام باب نادى الرماية .. وأمامك ثلاثة أيام لتقررى ما تستطيعينه ولن أغضب ولن أدهش إذا لم تأتى للقائى ..

وخرج دون أن يمد يده ويصافحها ودون أن يردد الكلمة التى تعود أن يودعها بها .. سأراك ..

٢

ظلت عدلية ساهمة بعد أن تركها مجدى .. وعندما عادت إلى البيت لم تهرع إلى أختها اعتماد لتروى لها كل شيء كما تعودت .. إنها لأول مرة تحس أن هناك شيئا خاصا بها وحدها .. كأنه سر ليس من حق أحد أن يطلع عليه ولا حتى أختها اعتماد ..

وقد عاشت حياتها كلها بلا أسرار .. كانت حياة عامة مفتوحة صريحة يمكنها اليوم أن تحس بأنه أصبح لها حياة خاصة ولها أسرار.. لماذا.. ما هو السر .. إن رجلا يطلب منها لقاء .. ليس فى هذا ما يمكن أن يكون سرا .. كل الرجال يطلبون لقاء كل النساء .. ولكن .. ربما كان سرا بالنسبة لها لأنه أول رجل فى حياتها يتجرأ ويطلب منها مثل هذا اللقاء . وهى التى جرأته وأتاحت له حق الطلب .. لا شك أنها هى التى جرأته .. كانت تستطيع منذ اللحظة الأولى أن تبعد كل ما يمكن أن يكون بينهما حتى مجرد التعارف الخاص أو الصداقة .. وقد عرفت منذ صغرها ما يمكن أن يدفع الرجل إلى التجرؤ على المرأة .. وتعمدت طول حياتها أن تضع حدودا لا يمكن أن يجتازها الرجل إليها حتى ولا بمجرد كلمة .. وشخصيتها عرفت بين كل الذين عرفتهم من الرجال بأنها شخصية محترمة جادة لا يمكن أن تحرض أى رجل على مغازلتها أو تجاوز الجدية والاحترام .. فلماذا تركت مجدى يتطور فى علاقته بها إلى أن يحدد لها موعد لقاء ..

واعترفت ..

إن مجدى أثار فيها إحساسا لم تحس به نحو أى رجل آخر .. ولكن .. لماذا يريد مجدى لقاءها .. لا يمكن أنه يريدها لمجرد اشباع متعة .. لا يمكن أن يكون كل ما بينهما هو أنها أنثى وهو ذكر .. وقامت ووقفت أمام المرآة وأخذت تبحث فى وجهها .. إنها حتى لو كانت جميلة فجمالها ليس من هذا النوع المفضوح الزاعق الذى يثير فى الرجل شهوته خصوصا إذا كان رجلا مثل مجدى يعيش حياة واسعة ولا شك أنه التقى بآلاف من النساء فى مصر وخارج مصر .. لا .. لا يمكن أن يكون كل ما أثارته فيه هو أنها أنثى وهو ذكر .. ولكن .. لماذا قال : إنه لن يغضب إذا لم تذهب للقائه فى الموعد المحدد .. هل يريد أن يقول إنه سيان عنده جاءت أو لم تجيء .. سيان عنده راها أو لم يرها هل يريد أن يقول إن إحساسى بها لم يصل إلى حد أن يثور وأن تدفعه ثورته إلى أن يجرى وراءها حتى يصل إليها .. لا .. لا يمكن أن يكون هذا هو ما يقصده مجدى .. لا شك أن كل ما يريد أن يقوله هو أنه يحترمها ويعتز بها حتى ولو خيبت أمله فى لقائها ..

وقضت الأيام وهى حائرة .. ورغم أن الحيرة تقلقها وتتعبها إلا أنها تحاول أن تهرب منها .. هناك شيء يربطها بمجدى حتى حيرتها معه .. ولكم ظلت مصرة بينها وبين نفسها على ألا تقول شيئا لأختها . ألا تقول لها إنها على موعد لقاء مع رجل .. ربما لأنها تعرف رأى أختها مقدما .. وربما لأنها تريد أن تحدد رأيها وحدها حتى تتأكد من قدرتها على التمسك بهذا الرأى .. هل تذهب أو لا تذهب ..

وفى الموعد المحدد وجدت نفسها تخرج من البيت .. لقد بذلت

مجهودا أكبر فى اختيار ثوبها وفى تجميل نفسها .. وهى تعلم أنها تعمدت أن تبذل كل هذا الجهد .. وقالت لأمها وأختها إنها ذاهبة تمارس رياضة السير على الأقدام فى النادى .. لقد كذبت .. وهى تعلم أنها اختارت الكذب .. وأحست وهى تسير فى شوارع المعادى أنها تحاول أن تتدارى وتختبىء .. لا تريد أن يراها أحد وهى فى طريقها إلى لقاء مجدى .. ولكن لماذا .. إنها ذاهبة للقاء صديق من أصدقاء العمل .. مجرد صديق .. ليس بينه وبينها أكثر من الصداقة البريئة اللطيفة المريحة .. ولكن .. قد يمر مدحت خطيبها بالصدفة ويراها .. وحتى لو رآها خطيبها فهى تستطيع أن تصارحه أنها تعمل ولها أصدقاء فى العمل تفرض عليها الصداقة لقاءهم، ولكن إذا كانت تستطيع أن تصارح خطيبها فلماذا لم تصارح أمها وأختها .. لماذا كذبت عليهما .. هذا خطأ وقع نتيجة نوبة اجتاحتها من نوبات الضعف .. وستصارحهما بكل شىء ..

ووجدت نفسها تشد قوامها وتلتقط أنفاسها كأنها تسترد كل شخصيتها قبل أن تضيع .. وبدأت تتعمد أن تسير فى أبرز ناصية من الشارع حتى تقنع نفسها بأن لا يهمها أن يراها الناس .. كل الناس ..

ورأته من بعيد جالسا فى سيارة صغيرة ١٢٨ بجانب الرصيف المطل على النيل .. إنها متأخرة عن الموعد خمس دقائق .. ربما دلتها غريزتها على أن المرأة يجب أن تتأخر عن موعدها مع الرجل خمس دقائق على الأقل حتى تحمله ثقل الانتظار بدلا من أن تعرض نفسها لهذا الثقل ..

وعندما وصلت إليه وجدت نفسها تفتح باب السيارة بحركة عصبية وبأسرع مما تفتح الأبواب ثم تلقى نفسها بجانبه دون أن تحييه كأنها تستريح من كل هذه العوامل النفسية التى تتفاعل فى داخلها .. وظلت

ساكتة كأنها تلتقط أنفاسها وهو ينظر إليها مبتسما ابتسامته الضنينه ويدير مفتاح السيارة قائلا :

ــ صباح الخير ..

ولم ترد تحيته ولكنها قالت كأنها تريد أن تريح نفسها :

ــ لقد ترددت كثيرا قبل أن آتى إليك ..

قال وهو يقود سيارته فى طريق حلوان :

ــ وأنا أيضا ترددت كثيرا قبل أن أطلب لقاءك .. ولكنى وجدت نفسى لا أستطيع أن أستغنى عن لقائك فى المكتب فأصبح من حقنا أن نلتقى خارج المكتب .. أو أن يكون لنا مكتب خاص بلقائنا .. إننا الآن فى مكتبنا الخاص ولا شك أنه أجمل من مكتب الشركة ..

قالت وهى تبتسم فى حسرة وقد بدأت تستعيد كل هدوئها كأنها بدأت تحس أنها فعلا فى مكتبها وهو جالس على المقعد الملاصق الذى تعود أن يجلس عليه :

ــ لن يصدق الناس أننا فى المكتب وهم يروننا فى سيارة ..

وقال بلهجته السريعة الحاسمة :

ــ لن يصدق الناس ما بيننا أينما رأونا ..

وقالت وهى لا تنظر إليه كأنها تحادث نفسها :

ــ ماذا بيننا ؟!

قال وهو متفرغ لقيادة سيارته كأنه هو الآخر يحادث نفسه :

ــ هذا ما يجب أن نكتشفه أنت وأنا .. إنى إلى الآن لا أدرى ماذا بيننا ولا ماذا يمكن أن يكون بيننا ..

وسكتت كأنها تاهت فى أفكارها وهى تطل بعينيها على النيـل

الواسع .. وتحس كأن السيارة تجرى بها فوق النيل لا فوق الشارع .. إنها لم تمر فى طريق حلوان إلا مرة واحدة عندما كانت صغيرة رغم أنها تقيم منذ ولدت فى المعادى .. و لم تكن تعرف أن الطريق يجمع كل هذا الجمال .. النيل .. الشجر .. وبيوت الفلاحين . وهذه المصانع التى كانت تسمع عنها ولا تراها .. ثم سجن طره .. وابتسمت وهى تمر أمام السجن .. إنها تتصور أنه تحفة أثرية مثيرة .. وقبل أن يصل بالسيارة إلى نهاية الطريق انحرف بها إلى طريق جانبى وصعد إلى كوبرى طويل عريض كأن كل نخلة تتعبد إلى الله .. ترتفع وهى ترفع ذراعيها إليه وتهادى بالسيارة فوق الكوبرى ثم انحرف بها إلى داخل الغابة وأوقفها ملاصقة لنخلة وفروعها تطل عليهما من فوق كأنها تحميهما من عيون الناس .. بالسيارة فوق الكوبرى ثم انحرف بها إلى داخل الغابة وأوقفها صفة لنخلة وفروعها تطل عليهما من فوق كأنها تحميهما من عيون الناس ..

واستدار مجدى إليها بعد أن أوقف السيارة وعلق عينيه بها دون أن يتبسم ثم مد يده والتقط يدها وقال :

ــ كل ما أعرفه مما بيننا هو أنى أحس بأنى فى حاجة إليك ..

قالت وقد تركت يدها بلا تعمد كأن هذا هو المكان الطبيعى الذى تستقر فيه يدها :

ــ ماذا تقصد .. ماذا تعنى بحاجتك إلى ؟

وقال وعيناه تطوفان بوجهها كأنه حائر فيه :

ــ لا أدرى .. ليست هناك حاجة معينة أستطيع أن أحددها .. إنى أحس الآن بالحاجة إلى أن أقبلك مثلا .. أو آخذك بين ذراعى فى أحضانى. ربما كان أضعف ما يقوم بين اثنين هو أن يجدا مقدما ما يريد كل

منهما من الآخر .. صدقينى إنى لا أحس بك كمجرد امرأة أريدها لتحقيق متعة رجل .. كل ما أحس به هو أنى أريد أن أكون بجانبك .. ولنترك كل شىء يتطور بنا من تلقاء نفسه .. بلا تعمد .. قد نجد أنفسنا بعد دقائق نعيش فى قبلة وقد نعيش العمر كله بلا قبلات .. إن يدك الآن فى يدى ولكن صدقينى إنى لم أتعمد مسبقا أن ألتقط يدك.. لم تكن هناك خطة مرسومة بأن أبدأ معك بأن أمسك بيدك أبدا .. صدقينى .. لقد وجدت يدى تمتد تلقائيا إلى يدك .. وهذا ما يجب أن يكون دائما بيننا .. لا تفكرى فيما أريده وفيما تريدينه .. ولا تحددى ما يمكن أن يحدث بيننا .. لنترك أنفسنا ملكا للقدر الذى يرمينا إليه إحساسنا بحاجة كل منا للآخر ..

وقالت ويدها لا تزال فى يده وهى تنظر فى عينيه كأنها تعود نفسها على الجرأة عليه :

ــ سأكون صريحة مثل صراحتك . أنا أيضا أحسّ بأنى فى حاجة إليك .. وأنا مثلك لا أستطيع أن أحدد هذه الحاجة .. لا أستطيع أن أكتشف ما أريده منك .. وأنت تقول إن كل ما نستطيعه هو الاستسلام للقدر الذى يقودنا إليه أحاسيسنا .. ولكننا لا نستطيع الاستسلام .. إن قدرنا يصطدم بجبل عال لا يستطيع أن يتعداه ..

وقال بسرعة :

ــ ما هو ؟

قالت فى صوت خفيض وقد سحبت عينيها من عينيه :

ــ زوجتك ..

وترك يدها تسقط من يده وابتعد عنها مستندا إلى باب السيارة

ومضت برهة وهو صامت ينقر على عجلة القيادة بأصابعه نقرات عصبية وعيناه سارحتان إلى الأفق ثم قال :

— لقد تزوجت منذ ثمان سنوات لأنى كنت فى حاجة إلى بيت .. لم أكن فى حاجة إلى هذه السيدة بالذات .. ولكنها أعطتنى البيت الذى كنت فى حاجة إليه .. وأعطتنى المجتمع الذى أريده .. وأسلوب الحياة الذى أرتاح إليه .. ولكن كان هناك دائما شىء ينقصنى .. واكتشفت ما ينقصنى عندما التقيت بك ..

وقالت وهى تبتسم ابتسامة هادئة كأنها تخفف عنه عصبيته :

— أنا أيضا قبلت الخطوبة لأنى كنت فى حاجة إلى أن أستكمل شخصيتى وكيانى الاجتماعى بالزواج .. وحتى لو كنت التقيت بك قبل الخطوبة لما كنت تستطيع أن تحقق لى هذه الحاجة إلى الزواج .. ورغم ذلك فإنى أحس بحاجتى إليك ..

وقال وهو يعود ويعطيها عينيه :

— لماذا نثير كل هذه الأفكار بيننا .. كأن كل منا يقرأ مستقبل الآخر، يقرأ له كفه أو يقرأ له فى الفنجال .. دعى المستقبل للمستقبل .. ودعينا نعيش حاضرنا .. واقعنا ..

وقالت فى صوت جاد ينبض بالتصميم :

— لا .. لا أستطيع أن أتجاهل مستقبلنا .. بل إنى أفضل أن نحدده الآن ..

وقال وهو ينظر إليها كأنه يلومها لأنها لا تكتفى بمتعة اللقاء :

— وكيف ترين المستقبل ؟

قالت فى لهجتها الجادة الهادئة :

— إن علينا أن نختار بين الاستسلام للقدر أو مقاومته .. وأنت تطلب الاستسلام وأنا أفضل المقاومة .. رغم أنى أعرف أن المقاومة ستكلفنى الكثير، ستكلفنى عذاب الحرمان .. الحرمان من حرية إحساسى بك ..

قال وهو يلوى شفتيه فى خيبة :

— وكيف تقاومين ؟

قالت وهى تبتسم كأنها ترجوه أن يساعدها :

— إن طريق المقاومة هو أن نبدأ بتحديد ما بيننا .. وأنا قد حددته .. إن بيننا صداقة .. يجب أن نحس بأنها مجرد صداقة .. إنى أعلم أن إحساسى أكبر من الصداقة ولكنى سأضغط عليه لأضعه فى قالب لا يخرج عنه .. قالب الصداقة ..

قال فى فتور :

— إن ما بيننا حتى الآن لم يتعد الصداقة ..

قالت من خلال ابتسامتها :

— إن لقاءنا اليوم يمكن أن يحرض الصداقة إلى التطور إلى ما هو أكثر ..

قال كأنه ساخط :

— ماذا تعنين ؟

قالت وهى تبعد عينيها عنه :

— أعنى ألا نلتقى مثل هذا اللقاء ..

وسكتت وهى تتنهد فى يأس ..

وعادت تقول :

ــ ليس معنى هذا ألا نلتقى .. ولكننا نحاول أن نقيم مجتمعاً نلتقى فيه .. هل تعلم أنى أفكر فى أن أقدم خطيبى إليك لتتعارفا ويتيح لنا هذا التعارف أن أراك وترانى ..

وقال فى برود :

ــ يشرفنى ..

قالت بسرعة مرحة :

ــ وهل تقدمنى إلى زوجتك ..

والتفت إليها فى عصبية وقال فى حدة :

ــ لا .. لا يمكن .. إن إحساسك قادر على أن يجعلك تتحملين الوقوف بينى أنا وخطيبك .. ولكن إحساسى أنا لن يطيق أن أقف بينك أنت وزوجتى .. صحيح إنه ليس بيننا ما يمس خطيبك أو زوجتى .. ولكنى أتكلم عن إحساسى .. لن أستطيع .. لن أستطيع أن أجد الكلام الذى أقوله لك وزوجتى معنا .. ولا أحس بحاجتى لأن أكون منافقا لمجرد أن أقف بينكما ..

قالت فى هدوء كأنها تشفق عليه :

ــ كما تريد .. ولكنى سأعرفك بخطيبى إذا شئت ..

قال وهو يدير موتور السيارة ويسير بها :

ــ إنى أحترم إرادتك .. وسأكون كما تريدين ..

واختار طريقا طويلا .. رأت أهرامات سقارة من بعيد .. ثم وجدت نفسها فى شارع الهرم .. ثم فى الشارع الذى يصل بها إلى المعادى .. وكل منهما سارح مع نفسه .. كلمات قليلة تبادلاها .. كأن كلاً منهما لا يوافق على ما اتفقا عليه .. وكل منهما يحاول أن يستعيد فكره ..

وعندما نزلت من السيارة قال وهو يعطيها ابتسامة من ابتساماته المسبنة مرددا الكلمة التى تعود عليها كأنه يؤكد لها أن لا شىء يمكن أن ينتهى :

ــ سأراك ..

* * *

وكان أول ما فعلته عدلية بعد أن عادت إلى البيت أن شدت أختها اعتياد ودخلت بها إلى غرفتها وأغلقت وراءها الباب وجلست تحكى لها كل شىء . إنها لا تريد أن يكون ما بينها وبين مجدى سرا .. تريد أن ترتفع بما بينها وبينه إلى مستوى العلاقات الطبيعية .. لقد قررت أن ما يمكن أن يكون بينهما هو الصداقة .. مجرد صداقة .. فلماذا تخفى هذه الصداقة خصوصا عن أختها التى تشاركها كل أسرارها .. لماذا لا تعلنها على كل الناس كباقى الصداقات ..

واستمعت إليها أختها وعلامات الامتعاض والقرف تشتد فى عينيها إلى أن قالت لها فى سخط :

ــ أنت مجنونة ..

وقالت عدلية فى ثقة بنفسها :

ــ لماذا .. إنى أحكم عقلى فى كل خطوة ..

وقالت أختها وهى تقلب شفتيها ساخرة :

ــ لو كان لك عقل لامتنعت منذ البداية عن أن تخطى أى خطوة ..

وقالت عدلية وهى تبتسم كأنها تحيى ذكرياتها :

ــ لقد قلت لك إنى أعجبت به منذ البداية ..

وقالت أختها وهى تنظر إليها فى لوم :

— إن الإعجاب هو بداية كل البلاوى وكل المصائب .. وكان يجب أن تبترى هذا الإعجاب منذ بدأت تشعرين به ..

وقالت عدلية فى حماس صادق :

— بالعكس .. لو كنت قد كتمت إعجابى به وأخفيته فى صدرى لظل يلح على حتى يتغلب على مقاومتى ويضعفنى أمامه .. ولا أدرى ماذا كان يمكن أن يكون مصيرى معه .. لذلك فضلت أن أعترف بهذا الإعجاب .. أعترف به حتى له .. ثم أواجهه .. أى أواجه الإعجاب حتى أستطيع أن أسيطر عليه وأحول بينه وبين الانقياد إلى ما هو أكثر من الإعجاب ..

وقالت أختها فى حدة :

— ما دام قد طلب لقاءك فمعنى ذلك أنه قرر أن يطور إعجابه إلى ما هو أكثر ..

وقالت عدلية فى بساطة :

— لقد قررت أن ألقاه حتى نتفق على مقاومة تطور إعجاب أحدنا بالآخر إلى ما هو أكثر ..

وقالت أختها فى غيظ ساخر :

— وهو متزوج ..

وقالت عدلية فى هدوء :

— لم نصل إلى حد أن يصبح موضوع زواجه مشكلة بيننا ..

وقالت أختها وهى غاطسة فى غيظها :

— وأنت مخطوبة .. ربما لو لم تكونى مخطوبة لاستسلمت له بسرعة ..

وقالت عدلية كأنها تحادث نفسها :

— لا أظن .. إن عقلى مصمم على التمسك بخطيبى مدحت حتى مع إعجابى بمجدى .. وسأقول لخطيبى عن كل شىء ..

وصاحت أختها :

— لا .. إياك أن تقولى له إنك ذهبت للقاء رجل آخر ..

وقالت عدلية فى إصرار :

— يجب أن أقول له كل شىء .. يجب أن أكون صريحة معه .. لا أريد أن أبدأ حياتى معه بالكذب عليه أو إخفاء شىء عنه ..

وقالت أختها بحدة :

— هناك فرق بين الصراحة والوقاحة .. وعندما تقولين له إنك كنت مع رجل آخر فهذه وقاحة تثير فى نفسه الشكوك وتعذبه .. ومادمت واثقة أنك بريئة فلماذا تبدئى حياتك معه بتعذيبه وإثارة شكوكه ..

وقالت عدلية وهى ساهمة :

— لك حق .. ولكن مصارحتى لخطيبى تساعدنى على مقاومة مجدى ..

وقالت أختها وهى تصرخ :

— اسمعى كلامى .. لا تقولى لخطيبك شيئا ..

وقالت عدلية وهى تعود وتحادث نفسها :

— ولكن يجب أن أقدمه له .. أن يتعارفا .. حتى أرى مجدى علنا أمام زوجى وأمام الناس .. وتصبح علاقتنا طبيعية .. مجرد صداقة ..

وقالت الأخت وهى تنظر إلى أختها كأنها حائرة فيها :

— وهل سيقدمك إلى زوجته ..؟

قالت عدلية وهى تبتسم فى حسرة :

— لا أظن .. إنه لا يريد ..

وقالت الأخت بسرعة :

— لماذا لا يريد ؟

وقالت عدلية من خلال ابتسامتها :

— إنه يقول إنه لا يستطيع أن يجمع بينى وبينها ويقف بيننا .. إنه يريد أن يحتفظ بى فى حياة أخرى لا تضم إلا أنا وهو ..

وقالت الأخت فى غيظ :

— وكيف تستطيعين أنت أن تجمعى بينه وبين خطيبك ؟

وقالت عدلية وابتسامتها تتسع كأنها تتباهى بنفسها :

— ربما لأنه أضعف منى .. وإعجابه يتطور إلى أبعد مما يمكن أن يتطور إليه إعجابى .. لقد سبقنى فى الحب ..

وقالت الأخت كأنها تستجدى أختها :

— اسمعى يا أختى يا مجنونة .. الحل الوحيد هو أن تبتعدى عن هذا الرجل .. أن تبعديه عن حياتك إلى أن ينقذك النسيان .. حتى فى عملك .. اطلبى من عمى أن ينقلك إلى مكتب آخر لا تستقبلى فيه هذا الرجل ..

وقالت عدلية وهى تهز رأسها رافضة :

— لا .. لا يمكن .. إن ابتعادى عنه يضعف من مقاومتى له إلى حد قد أجرى وراءه وألقى بنفسى عليه .. إنك لا تعلمين مدى تأثيره على .. ويجب حتى أبقى على مقاومتى أن أحتفظ بحق رؤياه حتى يكفينى أن أراه

واستغنى عما هو أكثر .. وهناك حل لحالتى بدأت أقتنع به ..

وقالت أختها فى لهفة :

— ما هو ؟

وقالت عدلية وهى ساهمة :

— أن أعجل بزواجى .. لقد اتفقنا أن أتزوج بعد إتمام تأثيث الشقة .. أى بعد عام أو أكثر .. ولكنى أريد أن أتزوج حالا ونعيش هنا أو مع حماتى أو فى فندق أو بنسيون .. إنى مقتنعة بزوجى مدحت واقتناعى به سيساعدنى على مقاومة كل العواطف الداخلة علينا .. سيساعدنى على الاحتفاظ بعقلى ومقاومة الجنون ..

وقالت أختها وهى تتنهد فى أسى :

— هذا من حقك .. أن تتزوجى اليوم أو غدا .. وأنا واثقة أنك عاقلة وستبقين عاقلة كما كنت دائما .. ولولا ثقتى لكنت قد حطمت رأسك ..

وقالت عدلية ضاحكة :

— أهون عليك يا أختى ..

وقالت الأخت وهى تقوم وتفتح الباب كأنها تهرب منها :

— يهون على تحطيم رأسك ولا يهون على خراب حياتك ..

* * *

٣

جلست عدلية إلى مكتبها فى اليوم التالى وهى تنظر إلى التليفون وكأنها تتساءل .. هل سيتصل بها مجدى .. إن عمها مدير الشركة قال عنه إنه لا يتحرك إلا إذا كان فى حاجة إلى الحركة .. ولعله ليس فى حاجة إلى هذه الصداقة التى اشترطت أن تكون كل ما بينها وبينه .. إنه فى حاجة إلى ما هو أكثر .. وهى ترفض ما هو أكثر .. فلماذا يكلف نفسه ويعود إلى الاتصال بها .. ولكن .. لعل المفروض أن تبدأ هى بالاتصال به .. إنها هى التى فرضت عليه حدود العلاقة بينهما .. هى التى رفضت أن تترك له ولنفسها الحرية ويعيشا مستسلمين للقدر .. ومن واجبها أن تبدأ هى بالتخفيف عنه .. أن تبدأ بوضع صورة هذه العلاقة التى تريدها .. علاقة الصداقة .. وأن تشجعه على أن يبدأ معها ..

وتعلقت عيناها بآلة التليفون طويلا ..

ولكن لا ..

لن تتصل به ..

عليه هو أن يقرر إذا كان يقبل صداقتها ويكتفى بها أو لا يقبل ولا يكتفى ..

ومر الوقت طويلا ثقيلا حتى وصلت الساعة إلى حوالى الواحدة بعد الظهر .. ودق جرس التليفون .. إنه هو .. لعله هو الآخر كان حائرا مثلها ..

وقال وفى صوته رنة ساخرة :

— صباح الصداقة ..

قالت وبين شفتيها ابتسامة واسعة :

— صباح الخير ..

كأنها أرادت أن تنبهه إلى أن الصداقة لا تحتمل السخرية .. وقال بسرعة كأنه يهرب من إحساس يعانيه :

— إن صديقك يريد مقابلة شكرى بيه غدا فى الساعة الحادية عشرة ..

وقالت من خلال ابتسامتها وفى بساطة دون أن تهتز بتعمده تكرار كلمة الصداقة :

— أهلا وسهلا ..

قال فى لهجته الجادة التى لا تخلو من سخرية :

— وسأراك .. إن الصداقة لا تمنع من رؤياك ..

وقالت وهى لا تزال هائمة فى فرحتها :

— إن الصداقة تبيح اللقاء حتى لو لم تكن فى حاجة إلى مقابلة شكرى بيه ..

وقال وكأنه يتنهد :

— من يدرى .. لعلى لست فى حاجة إلى لقاء شكرى .. سلام ..

وألقى سماعة التليفون دون أن ينتظر ردها ..

وهى سعيدة .. تحس أن كل ما تريده يتحقق .. إنها لم تخسره .. إنه فعلا يمكن أن يكون صديقا .. مجرد صديق .. حتى لو كان صديقا تحبه ..

وفى نفس اليوم اتصلت بخطيبها مدحت واتفقت معه على أن يزورها فى مكتبها غدا صباحا .. إنها تعد اللقاء بينه وبين مجدى ..

وقد تم اللقاء وقالت تقدم خطيبها للرجل الذى تقاومه :

— مدحت .. خطيبى .

ونظر إليه مجدى طويلا وهو يصافحه ثم قال وهو يضحك ضحكة خافته :

— مبروك .. إن عدلية هى طريق النجاح .. وكلما أردت أن أتم عمليه مع هذه المؤسسة أمر بها .. وستنجح كل عملياتك لأنك لن تكتفى بالمرور بها بل ستعيش معها ..

وقال مدحت وهو يضحك من خلال طبيعته الهادئة الطيبة :

— للأسف .. ليس لدى عمليات أحتاج فيها إلى عدلية .. إنى أريدها بلا عمليات ..

وقال مجدى دون أن يبتسم كعادته :

— ماذا تعمل ؟

وقال مدحت فى بساطة وبلا تكلف :

— إنى محاسب .. أعمل فى مكتب محاسبة ..

وعاد ينظر إليه طويلا ثم قال :

— قد أحتاج إليك ..

وعدلية واقفة تنقل عينيها بينهما .. ولعلها لا تسمع ما يقولان فكلها غارقة فى التساؤل وهى تقارن بينهما .. وتحس إحساسا عجيبا بأن لو اختارت الزواج من جديد لاختارت مدحت أيضا .. لا شك أنها مشدوده لمجدى ولكن عقلها يزداد اقتناعا بمدحت .. لا تدرى لماذا .. ربما لأن الزواج يحتاج إلى الهدوء والاستقرار والطيبة والبساطة .. وكل ذلك تقدمه شخصية مدحت .. إن الزواج لا يحتمل العنف ولا المغامرات ولا سرعة الحركة ولا شىء مما تقدمه شخصية مجدى .. إنها

شخصية على قدر ما تجذبها تثير فى عقلها الإصرار على المقاومة ..

وقال مدحت بعد أن دخل مجدى إلى مكتب شكرى بيه ..

— يبدو عليه أنه رجل شاطر وجبار فى عمله .. لقد أعجبنى ..

وقالت عدلية وقد جلست على مقعدها ساهمة ولكنها لم تسمعه :

— مدحت .. لنتزوج ..

وقال مدحت فى دهشة :

— قطعا سنتزوج ..

قالت وهى تنظر إليه من خلال ابتسامة ساهمة :

— أقصد نتزوج هذه الأيام .. لا ننتظر ..

قال وهو أكثر دهشة :

— إننا فى انتظار أن ننتهى من تأثيث الشقة ..

قالت وهى تنظر إليه كأنها ترجوه :

— لن ينتهى تأثيثها إلا إذا أقمنا فيها .. إننا نستطيع أن نقيم هناك حتى لو ننام على مرتبة ونأكل على الأرض .. إن الكثير من قطع الأثاث قد انتهى عمله ونستطيع ونحن هناك أن نتابع النجار والمبيض حتى نتم كل شىء ..

قال مدحت وهو ينظر إليها فى حب :

— إنى موافق على كل ما تريدينه .. وربما كنت فى شوق إلى إتمام الزواج أكثر منك ولكنى كنت أخشى أن أضايقك لو طلبت .. ولكن .. ماذا أثار اهتمامك الآن .. لماذا الآن ..

قالت وهى تمد يدها تحتضن يده :

— لا أدرى .. ولكنى كلما رأيت بجانبك رجل قارنت بينك وبينه

وحمدت الله عليك واشتقت إلى الزواج أكثر ..

قال وهو يضمها أكثر إلى عينيه :

ــ أنا أكثر حمدا لله .. إنى أحس منذ خطبتك أنى حققت سعادة العمر كله .. قررى كل ما تشائين ..

وخرج مدحت وقد تركها وهى فى قمة سعادتها .. قمة ثقتها بنفسها .. إن كل ما قررته تحقق .. وتحس أنها قررت كل ما يمكن أن يضمن لها حياة سعيدة ..

وخرج مجدى من مكتب الرئيس بعد أن بقى معه طويلا وقال بسرعة دون أن يخص عدلية بأى اهتمام :

ــ أين خطيبك مدحت ؟

وقالت وهى تنظر إليه كأنها تلومه على رفع الكلفة بينه وبين خطيبها بهذه السرعة :

ــ انصرف ..

وقال فى لهجة جادة :

ــ إنى أريده فى عمل ..

وقالت عدلية وهى تبتسم :

ــ سأطلب منه أن يتصل بك ..

وقال بنفس اللهجة الجادة :

ــ لا .. إنى أدعوكما خارج المكاتب .. أدعوكما إلى الغداء .. تهنئة بمناسبة خطوبتكما وحتى أعرض عليه ما خطر لى .. سأتصل بك بالتليفون غدا لنحدد الموعد ..

قالت وهى تبتسم كأنها تتحداه :

ــ لعله مشغول عن الدعوة .. ولعلى أنا أيضاً مشغولة ..

وقال ولهجته الجادة أرق وهو يمد يده يصافحها :

ــ سأتصل بك فى التليفون .. وسأراك ..

وخرج دون أن ينتظر منها كلمة ..

وتركها ساهمة وهى تتحسس يدها التى صافحها .. إنه لم يضغط عليها كما سبق وكان يفعل .. هذا أفضل .. معنى هذا أنه اكتفى بالصداقة التى طلبتها منه .. ولكن لماذا يدعوها هى وخطيبها .. هل يريد العمل فعلا مع مدحت .. ولكن من أين يعرفه حتى يقرر العمل معه .. إنه فقط يريد أن يلتقى بها هى .. وليس فى هذا عيب .. إنه لقاء يصونه وجود خطيبها معها .. لقاء صداقة حتى لو كانت صداقته لها وليست لمدحت ..

* * *

والسنوات تمر ..

وكل شىء يتم حسب ما تخطط له عدلية .. وتخطط دائما بعقلها الذاخر بذكائها ..

وكانت قد تزوجت مدحت بعد شهر واحد من مفاتحته فى تقريب موعد الزواج .. وأقاما فى الشقة قبل أن يتم تأثيثها وتحملا كل ما ينقصهما وهما يتضاحكان ويمرحان كأنهما اثنان من أفراد فرقة الكشافة يشتركان فى إقامة معسكر أى يشتركان فى تأثيث الشقة ..

وقد دعت مجدى إلى حفل الزفاف رغم أنه كان حفلا هادئا قاصرا على أفراد العائلة .. واعتذر مجدى عن حضور الحفل لأنه سيكون خارج مصر .. هكذا قال .. ولكنه أرسل هدية .. لم يكتف بإرسال باقة زهر

كما هى العادة .. ولكنه أرسل تحفة عبارة عن ساعة كبيرة .. ولا تدرى لماذا اختار أن تكون الهدية ساعة .. ربما أراد أن يضع فى بيتها ما يذكرها به .. وفعلا .. إنها تحس بأن هذه الساعة التى تضعها فى مكان بارز من البيت هى مجدى .. يخيل إليها أن دقاتها تردد .. مجدى .. مجدى .. وهى لم تضع الساعة فى غرفة النوم .. لا يصح أن تضع مجدى معها فى غرفة النوم .. ووضعت الساعة فى البهو الكبير بعيدا عن غرفة النوم ..

وكانت قد قبلت أول دعوة وجهها إليها مجدى بصحبة زوجها .. وقد عرض مجدى على مدحت أن يتولى الأشراف على حساباته .. وظن مدحت أنه يريد أن يتولى المكتب الذى يعمل فيه هذا الإشراف .. ولكن مجدى لا يريد أن تكون له علاقة بالمكتب إنه يريد أن يعمل مع مدحت شخصيا .. وتردد مدحت رغم أنه عرض مغر لكل متخصص فى الحسابات .. إنه يفتقد روح الطموح وجرأة المغامرة .. إنه فى حالة اكتفاء دائم .. ولكن مجدى مع إلحاح عدلية جعلاه يقبل أن يكون محاسبا خاصا لمجدى .. وكان هذا يتطلب منه أن يتردد كل يوم على مكتب مجدى .. وربما تعمد مجدى ألا يكون كل ما بينه وبين مدحت هو علاقة العمل .. كان حريصا على أن تكون بينهما صداقة .. وكانت الصداقة تعطيه الحق فى أن يدعوه هو وزوجته خارج مكتب العمل .. وكانت حجته دائما هى أن العمل يتم خارج المكاتب خيرا مما يتم داخلها .. وتعود مدحت أيضا أن يدعوه إلى البيت بعد مواعيد العمل .. وكانت أغلب أحاديثهما فعلا عن العمل .. والدعوات دائما قاصرة عليهم هم الثلاثة .. هى وزوجها وهو .. لم تفكر مرة فى دعوة أختها أو أخيها أو أحد أفراد العائلة .. إن مجدى لا يتحرك إلا إذا كان فى حاجة إلى

الحركة .. إلا إذا كان هناك ما يريده .. وهو لا يريد شيئا من عائلتها أو عائلة زوجها مدحت فلماذا تدعوهم معه أو تقدمه إليهم .. ولكنها لم تحاول أن تخفى أخبار هذه اللقاءات والدعوات عن أختها اعتماد .. إنها ترى مجدى .. وهى أشطر من أختها لأنها استطاعت أن تجعل من مجدى مجرد صديق .. لا شىء غير الصداقة والعمل ..

ومجدى من ناحيته لم يحاول أبدا أن يدعو زوجته معهم . وعدلية لا تهتم ولا تسأله عنها .. إنها تفضل ألا تتعرف إلى زوجته أو تراها .. إنها تحس بأنه لو عرفها بزوجته ودعاها معهم فكأنه فقد إحساسه بها هى .. فقد حاجته إليها .. وهى تريد أن تحتفظ بهذا الإحساس وهذه الحاجة .. بل إنها لا تنكر بينها وبين نفسها أنها تعيش هذا الإحساس وهذه الحاجة .. وأنها تعيش المقاومة .. مقاومة عواطفها نحوه حتى أصبحت هذه المقاومة هى الحب المحرم الذى تعودت عليه وأصبحت تعيش به ..

ولم يكن مجدى يشير أبدا إلى زوجته فى أحاديثه ولكنه كان فى أحيان متباعدة يشير إلى ابنتيه منى ومشيرة .. إن منى فى السابعة ومشيرة فى الخامسة .. وعدلية تتمنى أن تراهما .. تحس أنها تريد أن تشارك مجدى فى فرحته بهما وحبه لهما .. ولكنها لا تريد أن ترى زوجته .. ولا تريد أن تعرف إحساس مجدى بزوجته ..

ولم يحاول مجدى أبدا أن يتصل بعدلية اتصالا خاصا .. لا يحاول أن يذكرها بحاجته إليها .. حتى فى المرات التى يتصادف أن يجمعهما التليفون وحدهما لا يحاول أن يضمن كلامه إحساسه بها .. ولكنه دائما كلام هادئ حلو بلا كلفه كأن كلاً منهما واثق من إحساس الآخر به .. وكان إحساسا يبدو صامتا كلما التقيا بصحبه مدحت .. كانت تلمح فى

عينيه نظرات كأنه يسألها .. متى .. متى تكونين لى .. وكان يلمح فى عينيها نظرات كأنها ترد على سؤاله .. هذا هو كل نصيبنا .. فلنسعد بما كتب لنا من نصيب ..

وأعمال مجدى تتسع وتتزايد حتى أصبح من الصعب على مدحت أن يجمع بين عمله فى مكتب المحاسبات وإشرافه على حسابات مجدى .. بل إن مجدى استطاع أن يأتى بزبائن جدد من رجال الأعمال ليشرف مدحت على حساباتهم .. ولم يعد أمام مدحت إلا طريق واحد وهو أن يترك المكتب الذى يعمل فيه ويفتح لنفسه مكتبا خاصا به .. ولكنه يقاوم .. إنه لا يريد أن يتحمل كل هذه المسئوليات .. لا يريد أن يتعب وينهك نفسه .. وما يكسبه يكفيه بل أكثر مما كان يحلم به ولا يريد أن يكسب أكثر .. إنه ليس طموحا ولا يريد أن يستسلم للجشع .. إنه يحس بأنه يظلم نفسه ويحرمها من متعة الراحة والهدوء إذا استسلم للجشع .. ولكن عدلية تلح عليه ومجدى يغريه إلى أن استقال وافتتح مكتبا خاصا به .. مكتبا كبيرا اكتسب بسرعة اسما محترما بين مكاتب المحاسبات .. وكانت عدلية تحس دائما أن الفضل كله لمجدى .. هو الذى فتح أمامهما كل هذه المجالات .. إن مجرد وجوده بينهما يدفعهما إلى مزيد من العمل ومزيد من النجاح .. ومدحت يشكو دائما من عبء العمل .. إنه يعمل فعلا أكثر مما تطيقه قدرته .. حتى بدأت عدلية تشاركه فى عمله .. لم تشاركه فى المكتب .. إنها لا تريد أن تكون هى وهو فى مكتب واحد .. بقيت كما هى سكرتيرة أو مديرة مكتب لعمها شكرى وكانت تقضى الليل فى البيت بجانب مدحت تراجع معه الأوراق التى يحملها معه .. وهى تحس إحساسا عجيبا وهى تعمل فى

الحسابات .. تحس أنها تعمل مع مجدى لا مع زوجها مدحت ..

وفى وسط هذا الزحام أنجبت ابنها الوحيد .. وقد طرأ على فكرها أن تسميه مجدى .. لم لا .. إن مجدى هو أقرب أصدقاء العائلة .. وهو صاحب الفضل فى كل ما وصلوا إليه .. لن يرفض مدحت أن يسمى ابنه باسم مجدى .. ولكن لا .. إنها تحس بأنها لو أسمته مجدى فكأنها تعترف باستسلامها لعواطفها وأحاسيسها التى تقاومها .. كأنها لم تعد تستطيع المقاومة .. كأنها تتطور بالصداقة إلى الحب .. تريد أن تأخذ مجدى فى أحضانها حتى لو كان ابنها .. والعجيب أن زوجها مدحت هو الذى اقترح أن يسمى ابنه مجدى .. إنه لا يعرف ما بين مجدى وزوجته .. لا .. وأصرت على أن تسمى ابنها شريف .. ربما أوحى إليها بهذا الاسم أنها تفخر بأنها امرأة شريفة ..

واستقبل مجدى مولودها بفرحة صامتة .. لعل احساسه بالحرمان منها قد اشتد وهو يسمع أنها أنجبت مولودا من رجل آخر .. من زوجها .. ولكنه يغطى هذا الإحساس بمظهر الفرحة وبالهدايا الكثيرة التى حملها إليها .. إلى أن فوجئت بعد شهرين بأنه هو الآخر قد رزق ابنا وأسماه مدحت .. وقال ضاحكا وهو يبلغها الخبر .. إنى أبنى إمبراطورية ميم .. مجدى ومنى ومشيرة .. فكان يجب أن يحمل ابنى حرف الميم .. فاخترت أقرب ميم إلى وأسميته على اسم صديقى مدحت .. ولم تضحك عدلية معه ولم تفرح بمولوده .. إنها تحس بأنها لا يمكن أن تحب هذا المولود كما أحبت ابنتيه منى ومشيرة .. لا تدرى لماذا .. لا .. إنها تدرى .. لقد أنجب منى ومشيرة قبل أن يعرفها وتعرفه .. وهذا المولود أنجبه بعد أن عرفته .. كأنه خانها .. خان حبه لها .. خان حاجته إليها .. لقد أنجب

كأنه ضاع منها هو الآخر كما ضاع مدحت ..

وكان قد مضى عشرة أيام على تشييع الجنازة وهى جالسة وحدها فى البيت بعد أن تركتها أختها إلى بيتها .. وكانت تبكى .. ودموعها صامتة حينا وتتشنج صارخة حينا .. ودق جرس التليفون بجانبها .. إنه مجدى .. ووجدت نفسها تقول من بين دموعها كأنها تستغيث :

— تعال يا مجدى .. تعال لى .. لم أعد أحتمل .. سأجن ..

وألقت سماعة التليفون ..

وقامت بعد فترة تفتح له الباب .. وجلس بجانبها وقد اشتدت بها نوبة البكاء .. وتزفر كلمات .. ويقول كلمات .. ثم ذراعه فوق كتفيها يربت عليها مهدئا .. ثم ضمها إليه فى محاولة صادقة ليخفف عنها وهو يكاد يبكى معها .. ومالت برأسها على كتفه وهى غارقة فى دموعها .. وانحنى يقبلها على جبينها .. ويده تمسح على شعرها .. ثم مال بشفتيه على خدها .. ووصل إلى شفتيها .. وفتحت عينيها كأنها تسأله .. كأنها تحاول أن تتخذ قرارا .. ثم عادت وأغمضت عينيها .. واستسلمت كأنها لا تجد طريقا آخر لإنقاذ نفسها .. ودموعها لاصقة على خديها ..

• • •

وحاول أن يتكلم ..

وقالت وهى ممددة على الأريكة وتخفى عنه وجهها بكفيها :

— دعنى الآن .. أرجوك .. دعنى الآن ..

وانحنى يقبل يدها التى تخفى بها وجهها وتركها وهى ساهمة .. صامتة .. لا تستطيع أن تجد حتى دموعها .. وقال فى صوت هامس وهو يبتعد :

— سأراك ..

٤

من ساعتها وقد توقفت دموع عدلية .. لم تعد تبكى .. وهى ساهمة تسائل نفسها .. لماذا تركت نفسها لمجدى .. لا .. إنها لم تترك نفسها ولكنها كانت فى حالة لا تدرى معها ماذا تفعل وماذا يحدث لها .. إنها قطعا لم تتعمد أن تترك نفسها له .. لم يكن قد مر عشرة أيام على وفاة زوجها مدحت فكيف يمكن أن يخطر على بالها أى رجل آخر حتى لو كان مجدى ، وإلى حد أن تترك نفسها له .. كانت المصيبة والحزن يغمرانها حتى كانت كأنها فقدت وعيها فلم تدر ماذا تفعل بنفسها وماذا يفعل بها مجدى .. حتى هو .. مجدى .. لا شك أنه لم يتعمد ليلتها أن يصل معها إلى حد أن ينام معها .. لم يأت إليها طامعا فيها .. ولم يفكر قبلها ولا فكر ساعتها حتى وجد نفسه يأخذها بين أحضانه .. ربما كانت المصيبة التى كانت تعانيها قد حيرته وهو يحاول التخفيف عنها إلى أن وجد نفسه يأخذها .. يأخذها كلها ..

ولكن ..

لماذا لا تعترف بالحقيقة .. لقد كانت تتمنى مجدى منذ رأته ومرت كل هذه السنوات وهى تقاوم .. جندت كل ذكائها وكل شخصيتها فى مقاومته .. كانت لا تريد أن تفقده وفى الوقت نفسه كانت تستطيع المقاومة .. لا مقاومته .. فقد كان دائما حريصا على ألا يسلط عليها الإغراء ، ولكن مقاومة نفسها .. هى التى كانت تتمناه وكانت

تريده .. وكان أقوى ما تعتمد عليه فى المقاومة هو أنها زوجة لرجل تقدره وتحترمه وتصونه .. ولم يكد زوجها يذهب حتى فقدت كل ما يعينها على المقاومة رغم أنه لم يكن قد مر على ذهابه أكثر من عشرة أيام .. وليس صحيحا أنها استسلمت دون أن تدرى .. لقد كانت تدرى .. وربما مر بخيالها لحظة مقاومة .. ولكنها لم تقاوم .. كانت تريده من خلال الحزن الذى يعتصر قلبها كأنها كانت تريد أن تطمئن إلى أنها لا تزال على قيد الحياة بعد أن مات مدحت .. وكل ما أحست به أن مجدى لا يزال معها ..

والأيام تمر ..

وإحساسها بما حدث بينها وبين مجدى يغطى على إحساسها بمأساة وفاة مدحت .. ومجدى يتصل بها كل يوم بالتليفون .. ويتعمد أن يتصل بها وهو مطمئن إلى أن أحدا ليس معها فى البيت .. إما فى الصباح الباكر أو فى المساء .. ولكنه لا يحاول أن يشير فى أحاديثه معها إلى ما جرى بينهما .. إنه يتحدث كطبيعته كأن ما حدث بينهما هو أيضا حدث طبيعى .. وهو يركز كل اهتمامه حول تنظيم حياتها وإعداد مستقبلها ويبدو فى أحاديثه كأنه يعتبر نفسه مسئولا عنها .. وهو يقترح ويلح أن تترك عملها فى الشركة وتتفرغ لإدارة مكتب المحاسبة الذى تركه زوجها .. إن المكتب يدر دخلا كبيرا وهى تفهم فى المحاسبات وكانت تساهم مع زوجها فعلا فى إدارة المكتب وهو — مجدى — سيكون دائما بجانبها .. وقالت له وهى تحس بحيرتها فى نفسها وحيرتها معه :

— لا أدرى يا مجدى .. إنى حتى الآن لا أستطيع أن أفكر فى شىء أو أقرر شيئا ..

وقال بلهجته الطبيعية :

— حاولى أن تفكرى .. إنك مسئولة عن المستقبل وقد اتصلت بمدير المكتب واتفقت معه على أن يبقى كل شىء كما هو .. وأن يتصل بى فى أى مشكلة .. ولكن يجب أن تتخذى قرارك بسرعة ..

إنه يعتبر نفسه مسئولا عنها بعد وفاة مدحت ..

وهو يريد أن يلتقى بها حتى يقنعها باستلام المكتب .. وقالت فى حيرتها :

— ليس الآن يا مجدى .. دعنى حتى أستطيع ..

ووضعت سماعة التليفون ووجدت نفسها تذرف دموعها .. لم تكن تبكى زوجها الذى ذهب ولكنها كانت تبكى حيرتها بعد أن ذهب ..

ومضى أكثر من شهر وهى تقاوم لقاءها مع مجدى .. وتفكر .. لم تكن تفكر فى مستقبلها ولا فى مكتب المحاسبة الذى يطلب منها أن تتولى إدارته .. إنها تفكر فيه هو .. تفكر فيما يمكن أن يكون بينها وبينه .. وهى تعترف بينها وبين نفسها إنها لن تستطيع أن تقاومه .. لم يعد أمامها إلا أن تختار بين أن تستسلم لعواطفها أو تمزق كل ما بينهما أى أن تبتعد عنه وتبعده عنها ..

ووافقت أخيرا على لقائه .. جاء إليها فى البيت وفى نفس موعد اللقاء السابق .. بعد التاسعة مساء .. وكانت وحدها وابنها قد نام .. لقد كانت تتعمد هذا اللقاء حتى تجرب نفسها مرة أخيرة .. هل تستطيع أو لا تستطيع ..

وجلس بجانبها يتحادثان على مستقبلها .. وكل منهما يقاوم الآخر .. إنه هو الآخر يقاوم .. كأنه لا يريد أن يبدأ إلا بعد أن تطلب .. وانتهى

حديث العمل .. لم يعد هناك أكثر .. وأمسك بيدها ورفعها إلى شفتيه وقبلها .. وهى ساكتة .. ونظر إلى عينيها كأنه يسألها .. وأدارت عينيها بعيدا عنه بسرعة .. ومال على خدها بشفتيه وقبلها قبلة بلا صوت ، كأنه يهمس فى خدها .. وقامت بسرعة وقالت دون أن تنظر إليه وعلى شفتيها ابتسامة مغتصبة :

ــ تصبح على خير يا مجدى ..

وقام ووقف أمامها ينظر إليها نظرات صامتة ثم قال كما تعود :

ــ سأراك ..

وابتعد خارجا ..

لقد استطاعت أن تقاومه ..

ولكن لماذا تقاومه .. لقد جربت نفسها وعرفت أنها تستطيع .. ولكنها لا تريد هذه المقاومة .. ولا يمكن أن تستمر بها وتتحملها .. ثم كيف تعيش حياتها .. إنها ستهب نفسها لابنها شريف .. لا يمكن أن يأتى يوم تفكر فيه بالزواج من رجل غريب عن ابنها .. إنها لن تتزوج أبدا .. كلها وكل حياتها لابنها .. ولكن يجب أن تعترف بالواقع .. إن ثقافتها وشخصيتها تجعلها تخضع تفكيرها للواقع .. إنها لا تستطيع وهى فى مثل سنها أن تعيش بقية حياتها كلها بلا رجل .. بلا إحساس بحاجة الطبيعة البشرية .. إنها إذا قررت ألا تتزوج فستضطر أن يكون لها رجل لا يتزوج .. ومجدى لا يمكن أن يتزوج .. إنها تعرف أنه لا يمكن أن يضحى بزوجته .. وهو الوحيد الذى يستطيع أن يحميها من أن تتزوج رجلا غريبا تدخله على ابنها .. يستطيع أن يملأ حياتها حتى تكون فى غنى عن الزواج ..

وكانت هى التى اتصلت بمجدى وحددت له موعدا .. دائما بعد أن ينقطع الزائرون وينام ابنها ..

وفى هذه المرة لم تقاوم ..

بل لم يكن بينهما حديث عن العمل ..

كانا يبدءان مستقبلهما ..

* * *

رتبت عدلية حياتها بحيث أقنعها ذكاؤها بأنها تستطيع أن تحمى سرها .. لأول مرة يصبح فى حياتها سر .. أو يصبح لها حياة خاصة بها وحدها لا يدخلها أحد غيرها .. وقد أصبحت هذه الحياة هى كل ما يسيطر على فكرها وعلى تصرفاتها .. الحياة التى تلتقى فيها بمجدى ..

وكانت أختها اعتماد قد عرضت عليها بعد أن توفى زوجها أن تنتقل وتعيش معها .. لا يصح أن تعيش وتواجه المجتمع وهى وحدها وليس بجانبها إلا ابنها الصغير الذى لم يتعد الخامسة من عمره .. ولكن عدلية رفضت .. لقد تعودت على أن يكون لها بيتها .. أن تكون ست بيت .. ولا تتصور أنها تحتمل أن تعود وتعيش ضيفة على أختها كما كانت قبل أن تتزوج .. ثم إنها كبرت وهى تعمل وتعتمد على نفسها ولن يلومها أحد وهى تعيش وحدها ..

وكانت قد تركت عملها فى الشركة واستسلمت لنصيحة مجدى وتحملت مسئولية مكتب المحاسبة الذى تركه زوجها .. ولكنها تحس بأنها تغيرت .. إنها لم تعد ترحب بالعمل .. لا تريد أن تعمل .. إن السر الذى دخل حياتها أخذها كلها حتى لم يعد فيها ما يأخذه العمل ..

وكانت كل صباح تحمل ابنها شريف إلى المدرسة ثم تذهب إلى مكتب

المحاسبة فتحس أنها تؤدى واجبا ثقيلا مفروضا عليها .. تحس أنها تريد أن تعود إلى البيت لتبقى فيه .. لا تدرى لماذا .. ربما كان تأثرها بالسر الذى تخفيه يدفعها إلى الرغبة فى إخفاء نفسها مع سرها .. إخفاء نفسها عن الناس كلهم .. إنها حتى وهى تستقبل أختها وبقية أهلها لا تحس بالراحة التى كانت تحس بها .. تحس بالضيق كأنها تريد أن تهرب منهم .. تهرب بسرها .. وهى تعترف بأنها أصبحت تهمل فى إدارة مكتب المحاسبة .. إنه فى حاجة إلى عمل مستمر ثقيل قد يقتلها كما قتل زوجها مدحت .. وهى لا تحتمل العمل الثقيل بل أصبحت لا تحتمل العمل الخفيف .. لا تحتمل أى شىء يشغلها عن سرها .. على كل حال لا يهم .. فمجدى هو الذى يشرف على المكتب .. إنه لا يأتى إلى هناك ولا يجتمع بها فى المكتب ، ولكن أصبح له حق الاتصال بالموظفين والزبائن من بعيد .. كمجرد صديق للمرحوم يرعى مصالح عائلته .. ولكنها تعلم أنه يحمل مسئوليتها .. مسئولية يفرضها عليه الحب ..

إنه يحبها ..

وهى تحبه ..

وهى مطمئنة إلى الحب ..

وكان يأتى إليها فى البيت فى فترات متباعدة .. كل أسبوعين وإن كان الشوق يغلبهما أحيانا فلا يحتملان أكثر من أسبوع .. ودائما فى الساعة التاسعة بعد أن ينام ابنها شريف .. ولم يكن يبقى أكثر من الساعة الحادية عشرة .. إنه لا يستطيع أن يتأخر عن بيته .. عن زوجته .. ولم تكن تمسك به .. إنها تقدر أنه متزوج وقد ارتضته متزوجا .. المهم أنه يحبها هى .. وفى مرة دعته ليتناول طعام الغداء معها .. ويومها لم تذهب إلى

المكتب .. حملت ابنها إلى المدرسة ثم عادت إلى البيت وأخذت تعد الغداء كأنها تقيم وليمة .. وكل شىء تفعله بيديها حتى تقشير الخضار .. إنها تريده أن يأكل من أصابعها .. وكانت قد أعطت المربية والسفرجى إجازة ثم خرجت وحملت ابنها من المدرسة وذهبت به وتركته فى بيت أختها وقالت لها إنها مضطرة للعودة إلى العمل .. وعادت إلى البيت فى انتظاره .. إنه يومها كان لا يريد أن يتركها ويعود إلى عمله ولا إلى زوجته .. إن التقاليد العائلية التى وضعها تسمح له بتناول الغداء خارج البيت بحجة مسئوليات العمل ولكنه لا يستطيع أن يتناول العشاء خارج البيت وحده إلا بعد أن يستأذن زوجته .. ويومها هى التى طلبت منه أن يذهب .. كانت الساعة قد وصلت إلى الخامسة ويجب أن تذهب هى لتعود بابنها من بيت أختها ..

وقد عرض عليها مجدى أكثر من مرة أن يتخذا شقة خاصة يلتقيان فيها حتى يتقيا أكثر كلام الناس .. بل إنه قال لها إنه يملك شقة خاصة فى شارع قصر النيل ويملكها قبل أن يتزوج ولا يزال محتفظا بها دون أن يتردد عليها ويستطيع أن يعيد تأثيثها ليلتقيا فيها .. لن يكتشف أحد أين تذهب وهى تدخل العمارة .. ولكنها رفضت .. إنها لا تريد أن تكون كبقية النساء الضائعات اللاتى يترددن على الشقق الخاصة التى تسمى « جرسونيرة » .. إنها تحس عندما تلتقى به فى بيتها بأنه لقاء حب ولكنها إذا التقت به فى جرسونيرة فسيكون مجرد لقاء متعة .. لقاء آثم .. لا .. إنها لا تستطيع .. ثم ماذا يقول الناس إذا عرفوا أنه يزورها فى بيتها .. إنه معروف بأنه كان صديقا لزوجها وهو صديق العائلة ثم إنه يعمل معها .. إن مكتبها يتولى حساباته .. لن يقول الناس أكثر من أنها زيارة عائلية أو

زيارة عمل .. وكانت فى أحيان متباعدة تتعمد أن تقول لاختها اعتماد أن مجدى زارها مدعية أنه يبحث معها فى شئون إدارة الحسابات .. إن العائلة كلها تعرف أنه لا يزال أهم عميل للمكتب وأنه لا يزال حريصا على عائلة المرحوم ..

وكانت قد مرت شهور عندما زارتها أختها اعتماد وكان يبدو عليها القلق مصحوبا بنظرات حادة ساخطة ، وجلست تشرب فنجان القهوة دون أن تتكلم ودون أن تستمع إلى الكلام المفتعل التى كانت تقوله عدلية .. إلى أن قالت فى لهجة حازمة :

ـــ عدلية .. يجب أن تتركى هذا البيت وتأتى لتقيمى معى أنت وشريف ..

وقالت عدلية وقد صدمت بالدهشة :

ـــ لماذا ؟

وقالت اعتماد دون أن تنظر إليها :

ـــ كثر كلام الناس ..

وقالت عدلية وهى تفتعل السخرية :

ـــ ماذا يقول الناس ؟

وقالت اعتماد وهى تلوى شفتيها فى قرف :

ـــ إنهم يتكلمون عما بينك وبين مجدى ..

وقالت عدلية وهى تبتلع ذعرها :

ـــ الناس لا ترحم أى امرأة تعيش وحدها ..

وقالت اعتماد ساخطة :

ـــ إنهم يرونه وهو يدخل بيتك ..

وقالت عدلية وهى تقوم وتخطو خطوات عصبية أمام أختها كأنها تفكر فى الهرب منها :

ـــ طول العمر وهو يزورنا فى البيت ولكنى بعد أن أصبحت وحيدة بدءوا يتكلمون .. ولو كان الذى يتردد على البيت هو السباك أو المكوجى لتكلموا أيضا ..

وصاحت اعتماد :

ـــ إنى لم أنس قصتك معه قبل أن تتزوجى وأنت لازلت مخطوبة لمدحت الله يرحمه .. وأنا متأكدة أن القصة لا تزال مستمرة .. قصة الحب ..

وارتفع صوت عدلية فى غل :

ـــ افرضى أنه يحبنى .. وأنا أحبه .. ماذا تنتظرين .. وماذا تتصورين ..

وقالت اعتماد مقاطعة :

ـــ الحب معناه الزواج ..

وصرخت عدلية :

ـــ أنا لا أريد الزواج وهو متزوج .. وكل ما بيننا أنه يساعدنى على تحمل مسئولياتى ..

وقالت اعتماد وهى تنظر إليها كأنها لا تصدقها وتتهمها بالكذب :

ـــ لن يسترك ويحمى سمعتك إلا أن تأتى وتقيمى معى حتى تعيشى كبقية النساء المحترمات ..

وعادت عدلية تصرخ :

ـــ مستحيل .. إنى محترمة رغم أنف كل من يتكلم .. وليس معنى

أن أفقد زوجي هو أن أفقد معه كل كياني وكل شخصيتي وكل حريتي ..

وتركتها أختها وقد دب بينهما نوع من الجفاء أشبه بالخصام .. وقد اتسع إحساسها بالحيرة .. ماذا تفعل .. لقد كان يخطر على بالها أحيانا أن الناس يمكن أن تتكلم عنها .. يمكن أن تكتشف سرها .. وكانت تستطيع دائما أن تتجاهل هذا الخاطر وتبعده عن فكرها .. ولكن أختها أكدت لها أن الناس تتكلم .. إن أختها نفسها بدأت تكتشف السر رغم أنها لم تصارحها يوما بما بينها وبين مجدى .. ماذا تفعل .. هل تبحث عن ترتيب آخر للقاء مجدى .. هل تبدأ لقاءه فى شقته الخاصة كما يريد وحتى تبعد كلام الناس .. لا .. إنها تحس بذلك أنها تفقد احترامها لنفسها وتجنى على الحب بينها وبينه .. هل تحاول أن تنهى هذه العلاقة وهذا الحب وتعيش راهبة إنقاذا لسمعتها وسمعة ابنها وعائلتها .. لا .. لا يمكن .. إنها لم تعد تستطيع أن تستغنى عن مجدى .. هل تتزوجه .. لا .. لا يمكن .. حتى لو قبل أن يتزوجها ولو ضحى بزوجته .. إنها هكذا سعيدة .. مكتفية .. شبعانة فى كل نواحى حياتها ..

وبقيت حياتها معه كما هى دون أن يتغير فيها شىء .. وربما ازداد تباعدها وانعزالها عن الناس بلا تعمد وإنما بدافع خفى يجعلها تخاف الناس .. تخاف كلام الناس بل أصبحت تخاف نظراتهم إليها .. ومرت شهور ..

وكان مجدى عندها فى البيت .. فى الساعة التاسعة كما هى العادة .. ودق جرس الباب .. وتكررت الدقات بعنف وهى ومجدى يتبادلات النظرات فى دهشة المفاجأة .. لعله المكوجى .. لعله أى شىء .. وقامت

[illegible] الباب وهى مرتدية قميص النوم ومن فوقه روب ديشامبر واسع [illegible] كل قطعة منها ..

وفتحت ..

إنه أخوها حسام الضابط .. مدير مكتب القائد العام .. والرياضى العنيف بطل الملاكمة .. وكان يحمل فى يده مسدسا ..

ونظرت إليه فى هلع صامت ..

وأزاحها بذراعه من أمامه وخطا داخل البيت فى خطوات سريعة ويده ترفع المسدس أمامه .. الحمد لله .. إن مجدى يرتدى حلته كاملة وهو جالس فى حجرة الاستقبال ..

وقال له أخوها حسام فى صوت ثقيل وهو يهز يده بالمسدس :

ــ كن كما أنت .. لا تتحرك ..

والتفت حسام نحو حجرة النوم ونظر فيها نظرة سريعة ..

الحمد لله .. إن باب حجرة النوم مفتوح .. والسرير مرتب لم تتحرك منه شىء ولا يبدو أن أحدا احتاج إليه ..

وعاد حسام وجلس على مقعد فى حجرة الاستقبال وأشار بالمسدس إلى مجدى وقال له فى لهجة عسكرية آمرة :

ــ اجلس ..

وصمت حسام برهة كأنه يستريح بينما عدلية تنظر إليه فى هلع .. ما الذى جاء به فى هذا الوقت بالذات .. هل سمع كلام الناس .. هل صارحته أختها اعتماد وسلطته عليها . وقال حسام فى صوت مر :

ــ لو كنت قد وجدتكما فى أى وضع آخر لقتلتكما أنتما الاثنين ..

وقالت عدلية فى صوت محشرج وهى تحاول أن تكون طبيعية :

ــ ماذا تقول يا حسام .. لماذا .. لماذا تقتلنا ..

وقال مجدى وكل خلجات وجهه ترتعش :

ــ يا أفندم لقد تعودت أن أزور السيدة عدلية لنراجع أعمال مكتب المحاسبة ..

وصرخ حسام فى وجهه والمسدس فى يده :

ــ اخرس أنت ..

وقالت عدلية وقد تحمست كأنها تدافع عن مجدى :

ــ إن كل العائلة تعلم أننى أتولى حسابات مجدى وأدير المكتب بعد وفاة مدحت .. وكلكم تعلمون أن مجدى ساعدنا فى كل أعمال المكتب منذ أيام المرحوم ..

وقال حسام وبين شفتيه ابتسامة ساخرة تقطر بالمرارة والقرف :

ــ ومديرة المكتب مفروض أن تقابل زبائنها وهى بقميص النوم ..

وصاحت عدلية وهى تمسك بثيابها كأنها تهم أن تمزقها :

ــ هذا ليس قميص النوم .. إنه ثوب البيت . وأنا لا أخرج ولا أذهب إلى المكتب فى المساء حتى أرتدى ثوب الخروج .. إنى أبقى بثوب البيت فى رعاية ابنى إلى أن ينام ..

وقال مجدى وهو يشير إلى حقيبة يد بجانبه :

ــ هذه هى الأوراق التى كنا نناقشها ..

وشخط حسام فى وجهه :

ــ اسكت .. لا تتكلم . إنى على وشك أن أقوم وأضربك علقة وأحطم ضلوعك .. ولكنى أمسك بنفسى حتى ننتهى من موضوعكما المقرف .. إن المخابرات تراقب عدلية منذ مدة طويلة . لا لأنها شخصية

هامة ولكن لأنها شقيقتى إن كل قيمتها أنها شقيقتى .. ولكن المخابرات لم تكن تبلغنى شيئا أو ترسل إلى أى تقرير .. ولكنى منذ أكثر من شهرين بدأت أسمع كلاما فاتصلت بالمخابرات وطلبت منها أن تبلغنى كل المعلومات عن أختى .. وبدءوا يرسلون إلى التقارير .. وبدأت أتأكد .. بل إلى طلبت تعيين مخبر خاص لتسجيل كل تصرفات أختى .. وهو مخبر على مستوى عال .. إنه يقيم هنا فى نفس العمارة .. وكان يبلغنى عن مواعيد لقائكما .. إلى أن تعددت هذه اللقاءات بصورة تؤكد الجريمة .. وقد أبلغنى بوجودك هنا بعد أن وصلت بدقائق .. والمخابرات تعلم أنى جئت وراءك لأقتلك أنت وأختى .. ولكنى سأتحمل .. ولن أقتل .. مادمت سأحقق ما يعيد إلى كرامتى وكرامة العائلة ..

وقالت عدلية وهى ترتعش :

ــ ماذا تعنى ..

وقال حسام وهو ينظر إليها نظرات آمرة :

ــ أن تتزوجا .. الآن .. وسأخدع نفسى وأقنعها بأنكما كنتما مخطوبين إلى أن تم الزواج ..

وصرخت عدلية :

ــ لن أتزوج . لقد وهبت نفسى لابنى ..

وقال مجدى وهو يلتقط أنفاسه :

ــ يا افندم يشرفنى أن أتزوج عدلية لو وافقت ..

وصرخ حسام :

ــ ليس من حقها أن توافق أو لا توافق .. إن المصيبة ليست مصيبتها .. إنها مصيبتى ومصيبة العائلة .. شرفى وسمعتى المرتبطان

للأسف بأختى التى فضحتنى ..

وقالت عدلية ودموعها تنهار :

ــ لنترك الموضوع للغد .. لو تزوجت الآن لكنت كأنك تقتلنى ..

وصاح حسام :

ــ الآن .. ولا تنسى أنك تستحقين القتل ..

وقال مجدى وشفتاه ترتعشان :

ــ أنا موافق يا أفندم .. ويشرفنى ..

وقام حسام يحمل مسدسه وفتح باب الشقة وإذا برجل ينتظره خلف الباب لعله حارسه أو سائق سيارته وهمس فى أذنه ببضع كلمات ..

وعدلية تنظر إلى مجدى من خلال دموعها فى حيرة .. لماذا وافق .. لماذا استسلم .. إنه يخاف القتل .. حتى لو استطاع أن يقنع أخاها بعدم قتله فربما خاف من نفوذ أخيها .. إن أخاها يستطيع بنفوذه أن يقضى عليه وأن يوقف كل أعماله وربما يعتقله .. مسكين مجدى .. إنه مضطر .. مضطر أن يتزوجها ..

وعاد حسام إليهما وقال وهو يضع المسدس فى جيبه :

ــ لقد أرسلت فى استدعاء المأذون ..

وجلس أمامهما صامتا ..

وعدلية ساهمة تحاول أن تخفف عن نفسها .. لماذا ترفض .. إن الزواج هو فعلا ما يمكن أن يحتفظ لها بمجدى .. يحتفظ لها بحبها .. لقد كانت مخطئة تكذب على نفسها وهى تفكر أن تعيش معه بلا زواج .. صحيح أنه زواج يتم غصبا عنها .. بالإرهاب .. ولكنه الطريق

الصحيح .. ورب مصيبة نافعة كمصيبة هجوم أخيها عليهما ليقتلهما .. لمس .. وتفرح .. إنها تتزوج مجدى ..

وتنحنح مجدى كأنه يتحايل على نفسه ليتكلم وقال وهو ينظر إلى حسام وعلى شفتيه ابتسامة مستجدية :

ــ الحقيقة يا أفندم أنا طول عمرى كنت أتمنى أن أتزوج عدلية .. ولكن ظروفى الخاصة ولأنى كما تعلم متزوج كانت تجعلنى دائما مترددا .. وقد أنقذتنى سيادتك من ترددى .. وحققت لى الحلم الذى يسعدنى ويشرفنى وأرجو أن أستطيع إسعاد عدلية ..

وقال حسام فى احتقار :

ــ أنا لا يسعدنى ولا يشرفنى زواجكما ..

وسكت مجدى مصدوما ..

وعدلية تنظر إليه [illegible] لأنه يقول هذا الكلام .. ثم كانت متجهة إلى الداخل ولا حقها حسام ناهرا :

ــ إلى أين ؟

وقالت وهى تبتسم كأنها استعادت كل هدوءها :

ــ سأبدل ثيابى حتى أستقبل المأذون ..

* * *

وجاء المأذون وتمت كتابة العقد فى صمت ووقع حسام كشاهد ووقع معه حارسه الخاص .. وما كاد المأذون ينصرف حتى قام مجدى مصافحا قائلا :

ــ أستأذن يا أفندم .. لقد تشرفت ..

وقال حسام فى جفاء :

ــ انتظر .. سأترككما .. لقد أصبح من حقك أن تبقى مع زوجتك ..

وقال مجدى فى ابتسامة نفاق :

ــ لا .. أتمنى أن تبقى مع عدلية لتقول لها كل شىء وتبلغنى به .. إنك المسئول عن العائلة كلها ..

ثم صافحه بسرعة .. وصافح عدلية دون أن يحاول أن يقبلها .. وانصرف كأنه يجرى . وعدلية تنظر وراءه فى لوم .. ولكنه معذور .. إنه لم يستأذن زوجته فى أن يتأخر هذه الليلة ..

٥

لم تحاول عدلية ليلتها أن تنام .. ظلت طول الليل مكومه فوق الفراش وفى داخلها أعاصير تقصف بعقلها .. كيف تعيش هذا الزواج الذى فرض عليها وعلى مجدى بالقوة .. بالتهديد .. زواج تم تحت فوهة مسدس مشهور فى وجهها .. إنه ليس المأذون الذى كتب الكتاب .. إنه المسدس .. وقد كانت تعيش الحب مع مجدى لأنها هى التى أرادته وهى التى أقامت حياة الحب .. ولكنها لم تكن تريد الزواج .. وقواعد الزواج تشترط أن تقبل به الزوجة .. وهى لم تقبل .. ولكنها خضعت .. إنها تحس أنها حلال على مجدى فى الحب لأنه حب قائم على إرادة الطرفين وهى حرام عليه كزوجة لأنه زواج فرض رغم إرادة الطرفين ..

ثم ماذا تكون عليه حالة مجدى الآن .. لا بد أنه يعانى الإحساس بالهزيمة .. ربما يحس أنه أصبح كمجرم ضبط متلبسا وحكم عليه بالزواج منها .. حكم عليه بالسجن داخل قبضتها .. وقد كان مضطرا لأن يستسلم لهذا الحكم .. لم يكن أمامه طريق للهرب .. لا .. لا يمكن أن تعيش مع رجل يعانى هذا الإحساس تجاهها .. وستعفيه من الحكم الذى صدر عليه .. لن تكون أبدا زوجته .. إنها لن تقبل حتى أن يمسها أو يشاركها الفراش .. إنه الآن ليس حبيبها إنه ضحيتها الذى فرض عليه الزواج بها .. إنه يشاركها الفراش كأنه يستسلم لقدر مكتوب عليه ..

سيقبلها ويتحسسها كأنه يؤدى واجبا لا يستطيع إلا أن يؤديه .. لن تجد منه ما كانت تجده وهو حبيبها .. وقد تخيلت ما سيحدث .. ستبقى هى ومجدى كزوجين فترة دون أن يعيشا الحياة الزوجية لمجرد إسكات أخيها حسام وإرضاء عائلتها .. وبعد ذلك يتم الطلاق بينهما وليحدث بعد ذلك ما يحدث ..

لو كان أخوها حسام عاقلا .. عادلا .. متعاليا فى شخصيته .. لخيرهما حتى وهو يرفع المسدس فى وجهيهما بين الزواج أو الانفصال .. إما أن يتزوجا أو يحرم على كل منهما لقاء الآخر .. ويتركهما ليختار كل منهما الحياة التى يريدها .. لو كان مجدى قد اختار ساعتها الزواج لاطمأنت إلى أنه زواج يفرضه الحب لا المسدس.. لأحست أنه يحبها ولا يستطيع أن يبتعد عنها حتى لو اضطر أن يتزوجها .. ولكن أخوها حسام لم يعط لمجدى حق الاختيار .. لقد فرض عليه الزواج فرضا وهى لا يمكن أن تطمئن أبدا إلى أن مجدى يريد هذا الزواج حتى لو كان قد اضطر إلى هجرها ..

وابتسمت عدلية ابتسامة ذليلة وهى تائهة فى أفكارها .. يجب أن تحمد الله على ما حدث فلو كانت قد استجابت لمطالب مجدى وكانت تقابله فى شقة خاصة لاكتشفت المخابرات طريق هذه الشقة ولداهمهما أخوها فيها .. وكان لا يمكن أن يجدا هى ومجدى تبريرا للقائهما فى شقة خاصة وربما استعمل أخوها ما يدعيه لنفسه من حق وأطلق عليهما الرصاص .. ولكن .. ربما كان أهون عليها أن تموت ويموت معها مجدى من أن تعانى هذه الأعاصير التى تعصف ..

وتتعجب من نفسها .. إنها خلال هذه الأعاصير تمر فترات تحس فيها

بأحاسيس غريبة عنها لم تكن تطرأ عليها من قبل .. تحس أنها فعلا زوجة رغم أنه لم يمض على زواجها سوى ساعات .. ويأخذها خيالها كزوجة إلى البحث عن زوجها .. أين هو الآن .. إنه مع امرأة أخرى .. مع الزوجة الأخرى .. إنه راقد بجانبها على الفراش .. هل يقبلها .. هل يحتضنها .. ماذا يقولان .. تحس كأن لها حقوق الزوجة وأن زوجها يعتدى على هذه الحقوق .. يظلمها .. يستهين بها .. إنها لم تكن تحس بهذه الأحاسيس من قبل .. لم تكن تتخيل أن لها حقوقا تتعارض مع حقوق زوجته .. كانت تحس أن زوجته سهام هى الزوجة .. أما هى فهى الحب .. وحقوق الزوجة تختلف عن حقوق الحب .. ولم تكن تغار أبدا من زوجته ولا يطرأ على بالها ما يجرى بينها وبينه .. إنها واثقة أنها هى الحب .. حب قائم بذاته لا يشاركها فيه أحد حتى ولا زوجته ..

وتلقى نفسها فوق الفراش وتتقلب ثم تعتدل تكوم نفسها بين الوسائد وهى تحاول أن تطرد كل هذه الأفكار من خيالها ومن أحاسيسها ..

وجاء الصباح وهى لا تنام ..

ودق جرس الباب والساعة لا تزال الثامنة والنصف .. وفتحت الشغالة .. ودخل مجدى .. دخل إلى حجرة النوم مباشرة ..

وكانت لا تزال جالسة فوق السرير وهى بقميص النوم وشعرها منكوش وجفونها مهدلة فوق عينيها ووجهها مكسو ببقايا أصباغ ليلة أمس .. إن مجدى لم يرها أبدا هكذا .. وكانت تنتظر منه أن يتصل بها بالتليفون قبل أن تراه .. ولعلها كانت قد قررت ألا تراه هذا الصباح ..

إنها لم تستطع أن تحمل ابنها إلى المدرسة وكلفت المربية أن تذهب به بدلا منها .. ولكن مجدى أتى بلا موعد ودخل عليها فى حجرة النوم دون أن يسأل ودون أن يتردد .. لقد نسيت أنه زوج وأنه يمارس حقوق الأزواج .. لقد أصبح بيتها بيته ..

وقال مجدى وهو يجلس قبالها على طرف السرير وبين شفتيه ابتسامة من ابتساماته النادرة :

ــ صباح الخير يا عروسة ..

وقالت وهى مرتبكة مع نفسها ترفع يديها وتساوى شعرها ثم تشد القميص حول صدرها وتحاول أن تعتدل فى جلستها :

ــ كنت أنتظر أن تكلمنى فى التليفون ..

وقال من خلال ابتسامته :

ــ لم نعد فى حاجة إلى كلام التليفون ..

ونظرت إليه فى جدية وقد أفاقت من ارتباكها :

ــ اسمع يا مجدى .. إنّى لم أنم من ساعتها حتى الآن .. وقد وصلت إلى قرار .. إنك لن تضطر أن تستسلم لهذا الزواج .. سنبقى فترة إلى أن ينسى أخى حسام الموضوع كله .. ثم نعود كما كنا بلا زواج ..

وقال وهو يمسك يدها فى يده ويضغط عليها فى حنان وقد اختفت ابتسامته :

ــ أنا أيضا لم أنم .. ولكنى لم أفكر فى أنى استسلمت .. وصدقينى أنى منذ رأيتك وأنا أتمنى أن أتزوجك .. ولكن الظروف التى تحيط بنا كانت تجمد هذه الأمنية وتجعل منها مجرد أحلام .. ثم تدخل القدر وتغلب على هذه الظروف وحررنى من الخوف ومن التردد ومن كل ما

كنت أحسب حسابه وحقق لى أمنيتى وتزوجنا ..

وأرخت عينيها كأنها تدارى فرحتها بما تسمعه كأنها تعود لتعيش الحب ثم عادت ورفعت عينيها وقالت وهى تنظر إليه فى قلق :

ــ هل قلت لزوجتك سهام ؟

وقال وهو يبعد عنها عينيه :

ــ لا .. ولن أقول لها .. ولكنها إذا عرفت وسألتنى فسأعترف لها بكل شيء ..

وقالت عدلية فى حدة :

ــ إنها بعد أن تعرف فلن تقبل ولن تسكت ..

وقال فى صوت خفيض كأنه يحادث نفسه :

ــ إنها ستحتفظ بكل ما كان لها .. سأراعى ألا يتغير شيء فى حياتها ولا شك أنك ستساعديننى على ذلك ..

وقالت فى حيرة :

ــ ماذا تقصد .. كيف أساعدك ؟

وقال فى صوته الخفيض :

ــ إن سهام لم تخطىء أبدا كزوجة .. كل ما هناك أنها لم تكن تستطيع أن تعطينى ما كنت فى حاجة إليه وهو ما وجدته فيك وما أعطيتنيه .. أقصد الحب .. وحبك لا يفرض على أن أكره سهام حتى أتخلى عنها .. إن الحب يعيش فى كل الظروف مهما كانت شاذة وقاسية على المحبين .. لذلك قررت وأنا أحبك أن أحتفظ لسهام بكل حقوقها .. وما هى حقوقها التى تعودت عليها .. أن تحمل اسمى .. وأن يعترف بها دائما كزوجة .. وأن أقضى كل ليلة معها فى بيتها .. كل هذا يمكن أن

تتحمليه أنت مادمت أتحمله أنا .. أنا وأنت نعيش معا فى كل ما تفرضه علينا الحياة .. (وقفزت ابتسامة ضيقة فوق شفتيه واستطرد قائلا) كأنك أنت أيضا متزوجة سهام ..

وقالت دون أن ترد على ابتسامته :

ـــ لا أدرى كيف سأعيش هذه الحياة .. إنى منذ عرفتك وأنا أحاول أن أقنع نفسى بأنى لا آخذ من زوجتك شيئا .. إن ما آخذه لم يكن لها .. ولم يخطر على بالى أيضا أن أتزوجك لأن الزواج معناه أنى آخذ منها حقها .. آخذ منها ما تعطيه لها .. وأنا الآن لا أريد أن يحدث ما ينتهى بينك وبينها بالطلاق .. ولا يمكن أن أرضى لنفسى بأن أكون سببا فى القضاء على زوجة مظلومة أو فى تعكير حياة أولادك .. ولكنى لا أستطيع أن أتصور كيف نعيش بعد أن تزوجنا .. كيف ؟

قال وهو يعود ويمسك بيديها بين يديه :

ـــ سنعيش مادمت تريدينني ومادمت أريدك .. لا تفكرى .. دعينا ملكا للقدر كما عشنا دائما ..

وسمعا جرس الباب وقام واقفا وهو يقول لها :

ـــ سأذهب الآن إلى المكتب وانتظرينى على الغداء ..

وسحبت نفسها من الفراش ووقفت بجانبه بينما دخلت اختها اعتماد ومدت يدها تصافح مجدى وهى تنظر فى وجهه كأنها تحاول أن تكتشف حالته وقالت فى صوت خفيض كأنها تلقى تحية رسمية :

ـــ مبروك ..

وقال وقد ارتفعت ابتسامة بين شفتيه :

ـــ قولى ألف مبروك .. لقد حققتم لنا كل أحلامنا ..

وفرحت اعتماد وقالت وهى تضحك :

ـــ ألف مبروك ..

واتجه إلى باب الخروج ولحقت به عدلية بعد أن التقطت من جانب السرير سلسلة المفاتيح ووقفت أمام الباب وناولته مفتاحا وهى تقول مبتسمة :

ـــ هذا مفتاح البيت بعد أن أصبحت رجل البيت ..

وقال وهو يحتضنها إلى صدره :

ـــ أنا رجلك ..

وقال وهى لا تزال بين أحضانه :

ـــ لقد نسينا شيئا مهما ..

وقالت وقد بدأت ابتسامتها تتجرأ على شفتيها :

ـــ ماذا نسينا ؟

وقال فى صوت مرح :

ـــ نسينا شراء الدبل .. يجب أن تشتريها اليوم ..

وقالت وهى تبتعد عن صدره :

ـــ المفروض أن العريس هو الذى يشترى الدبل ..

قال وهو يقبلها قبلة سريعة :

ـــ العريس مشغول وأنت المسئولة عنه ..

قالت وهى تبتسم له ابتسامة صغيرة :

ـــ وهل ستضع دبلتى فى أصبعك ؟

قال وهو يهم بالخروج كأنه يتعمد ألا يطول بينهما الكلام حول هذا الموضوع :

ـــ ستكون معى دبلتين كما أن معى مفتاحين .. كل واحد له وقته ..

وعاد وقبلها قبلة سريعة وخرج . وهى تائهة .. من يدرى .. ربما لم يكن يريد شراء الدبل بنفسه حتى لا يفضح نفسه ويعترف أمام الصائغ الذى يشترى منه بأنه تزوج ..

وما كادت تعود إلى الداخل حتى انطلقت أختها اعتماد تتكلم .. وقاطعتها عدلية فى أول كلامها صائحة :

ـــ لم أكن أريد أن أتزوج .. ولم أكن أريد أن أتزوج والمسدس مشهور فى وجهى .. كيف سأعيش مع مجدى وقد تزوجنا بالتهديد .. بالقوة .. تزوجنا رغم أنفه وأنفى ..

وصاحت أختها اعتماد :

ـــ إن حياة تعيشينها معه بعد الزواج أفضل وأشرف من حياتك معه قبل الزواج .. ومجدى لا يقول ما تقولينه .. إنه يحس بفرحة سقطت عليه من السماء ..

وقالت عدلية كأنها تهم بالبكاء :

ـــ من يدرى ..

وتركت أختها تتكلم ولا تكف عن الكلام وهى سارحة بعقلها لا تسمع كل ما تقوله وتجيب على أسئلتها فى اقتضاب وضيق .. كانت سارحة فى ابنها شريف .. إلى أن قاطعت أختها قائلة :

ـــ لا أعرف كيف أقول لشريف .. ولا ماذا أقول ؟

وقالت اعتماد وكأنها تنبهت إلى مشكلة لم تخطر لها :

ـــ إنه صغير .. وسيرحب بأى شىء يسعدك ويسعده .. ربما فرح أكثر منك .. ولكن لا تكلميه وأنت مهمومة هكذا ..

وقالت عدلية كأنها تحادث نفسها :

ـــ لا أدرى كيف أجمع بينه وبين مجدى وأعيش بينهما .. لقد تعود منذ مات أبوه أن يكون معى وحدى .. وكيف أتركه يرى أمه وهى تتركه وتدخل حجرة النوم مع رجل غريب عنه ..

وقالت اعتماد وهى تبتسم لها كأنها تخفف عنها :

ـــ سيتعود على كل شىء .. إن الحياة تعود .. ولن يكون مجدى غريبا عنه .. عوديه على أن يناديه بابا ..

وسكتت عدلية برهة كأنها تحاول أن تقتنع ثم قالت :

ـــ اعتماد .. اذهبى إلى المدرسة وخذى شريف وأبقيه عندك إلى أن أمر فى المساء وآخذه .. وقولى له إن أمه تزوجت واحكى له بالطريقة التى ترينها .. إنى لا أستطيع حتى الآن أن أتصور ماذا أقوله وكيف أجمعه مع مجدى ..

وقالت اعتماد فى إشفاق :

ـــ حاضر ..

وبعد أن خرجت اعتماد دخلت عدلية إلى المطبخ لتعد طعام الغداء الذى ستتناوله مع مجدى .. غريبة .. إنها لا تحس بالفرحة التى كانت تحس بها وهى تعد له الطعام عندما يكون على موعد فى المساء أو عندما كانت تدعوه إلى الغداء .. كانت أيامها تدخل المطبخ فرحة حتى تغنى وتكاد ترقص وهى فى المطبخ .. ولكنها الآن تحس أنها تقف كأنها امرأة تتحمل مسئولية البيت .. إنها ليست حبيبه .. إنها ست بيت .. وهى لا تخطف السعادة وتفرح بها كأى امرأة تحب ولكنها حتى لو كانت سعيدة فهى سعادة رسمية .. شرعية .. سعادة فرضت عليها بحكم الشرع ..

ووجدت نفسها دون أن تدرى لا تفكر فى أصناف الطعام الخفيفة العربية التى كانت تعدها له .. إنها تختار الأصناف الثقيلة الفخمة التى تظهرها بمظهر ست البيت القادرة الشاطرة .. وابتسمت لنفسها ابتسامة مسكينة .. إنهما هى ومجدى لم يكونا يتقابلان ليأكلا .. كان الأكل مجرد ضحكات .. وكان ما يسعدهما وما ينتظره كل منهما من الآخر شىء غير الأكل .. أما الآن فالأكل أصبح عنصرا أساسيا فى حياة الزوجة .. إنهم يقولون إن أقوى ما يعين الزوجة على الاحتفاظ بزوجها هو السيطرة على بطنه .. إشباع أمعائه .

وخرجت من المطبخ وبدأت تعد نفسها لاستقباله ووجدت نفسها لا تبذل نفس المجهود فى تجميل نفسها .. لا تحاول أن تجعل من نفسها امرأة مغرية .. إنها تتزين زينة هادئة .. زينة الزوجة المحترمة ..

وهمت أن تلبس ثوبا كاملا .. ثوبا يليق باستقبال الضيوف .. ولكن لا .. يجب أن تكون واقعية .. يجب أن تحس بأنها تستقبل زوجها .. وارتدت أحد قمصان النوم ومن فوقه روب دى شامبر واسع .. إن كانت قد تعمدت أن يكون القميص والروّب من لون أبيض .. لون ثوب الزفاف ..

إلى أن جاء مجدى ..

٦

كان مجدى منذ اليوم الأول حريصا على نظام حياته الذى وضعه لنفسه ليجمع بين البيتين .. بيت زوجته الأولى سهام وزوجته الثانية عدلية .. إنه لا يريد أن يحرم سهام من أى حق من الحقوق التى كانت لها والتى تعودت عليها .. فهو يقضى كل ليلة معها ولا يكون لعدلية إلا ساعة الغداء وإلى أن يحين المساء .. فقد عود سهام منذ تزوجها على أن يتناول الغداء خارج البيت استمرارا فى عمله .. وتعودت ألا تسأله أين يتناول غداءه .. وهو يقيم كل الدعوات فى بيت زوجته الأولى سهام وإذا دعى إلى حفلة أو وليمة ولبى الدعوة صحبها معه حتى لو كانت دعوة إلى الغداء اعتذر لعدلية وذهب مع سهام .. إنها دعوات عمل ويجب أن تعذره .. كأنه يريد أن يقول إن سهام هى الزوجة الوحيدة المعترف بها اجتماعيا والتى يمكن أن يظهر بها أمام الناس .. أما هى .. فهى حياته الخاصة التى لا يشترك فيها الناس ..

وقد حاولت عدلية أن تحتمل كل ذلك .. كانت تحاول أن تقنع نفسها بأنها حبيبته وليست زوجته .. أن هذا الزواج لم تكن تريده ولم يكن هو أيضا يريده .. ولكن هو وهى يريدان الحب .. ولتستمر حياة الحب بينهما .. الحياة التى كان كل منهما يخطف ساعات من يومه ليلتقى بالآخر .. لم يكن أيام الحب يقضى الليل معها ولا كان يقدمها إلى الناس على أنها حبيبته أو يصحبها إلى دعوات وهى أيضا كانت تتعمد ألا تظهر

معه أمام الناس حتى بحجة العمل بل إنها تعمدت أيامهاألا تقدمه لأهلها بأى حجة ولا حتى لأختها اعتماد .. كان الحب يقيم لهما حياة خاصة يضنان بها على أن يدخلها الناس .. فلتبق تعيش هذه الحياة ..

ولكن ..

إن شخصية الزوجة تتصارع فى داخلها مع شخصية المرأة التى تحب .. إنها لا تستطيع أن تتجاهل أنها زوجة .. وتحس بانكسار عنيف وهى تودعه كلما هل المساء ليذهب إلى البيت الآخر .. إنه أحياناً يودعها قبل أن يحل المساء .. يبقى معها ساعة أو ساعتين ثم يتركها بدافع العمل وهى تعلم أنها لن تراه إلا فى اليوم التالى .. إنه حريص على أن يراها كل يوم ولو لدقائق خاطفة .. خطفات الحب .. ولكن الخطفات لم يعد لها بريق الحب .. إنها زوجته .. وقد تغلبت عليها شخصية الزوجة حتى إنها ذهبت واشترت دبلتين .. إنها لا تستطيع أن تقاوم التحلى بدبلة الزواج .. ولكن التصارع فى داخلها دفعها إلى أن تصنع الدبلتين من البلاتين الأبيض .. وتصنعهما عريضتان ليستا ككل دبل الزواج .. إنها ليست ككل الزوجات .. ويومها وضعت الدبلتين فى علبة مجوهرات وانتظرته إلى أن جاءها وقدمت له العلبة .. وأخذها مبتسما وهو يسأل :

ـــ ما هذا ؟

لعله نسى أنه هو الذى طلب منها أن تشترى دبلتين .. إنه لم يكرر طلبه من يومها .. لعله كان ساعتها فى لحظة اندفاع عاطفى ونسى بعد أن أفاق من اندفاعه ..

وفتح العلبة ورأى الدبلتين .. واتسعت ابتسامته .. وأخذ يقرأ اسمه واسمها على كل دبلة ثم خلع الدبلة التى فى أصبعه ووضعها فى جيبه .. ثم

التقط يدها ووضع دبلتها فى أصبعها وقبلها .. ثم مد أصبعه إليها لتضع فيها دبلته .. وعاد يقبلها قبلة طويلة بعد أن همس :

ـــ مبروك يا عروسة :

وقالت ضاحكة :

ـــ مبروك يا عريس .

وقال وهو يحتضنها :

ـــ الآن يجب أن نتم أصول الزواج ..

وقالت فى فرحتها :

ـــ لم يعد ينقصنا شىء ..

وقال وهو يفتعل نبرة جدية يداعبها بها :

ـــ إنى بصفتى عريس أصبحت رجل البيت يجب أن أتحمل مسئولية مصروف البيت ..

ونظرت إليه فى دهشة .. إنه لم يخطر لها أبداً أن تنتظر منه مصروف البيت .. لعلها لم تستطع بعد أن تعتبر نفسها زوجة .. أو لعله أراد أن يدفع لها ثمن الدبلتين .. لا .. إنها لا تريد .. وقالت ولمحة من الحياء تكسو وجهها :

ـــ لا .. إننا عروسان مودرن والزواج المودرن لا ينفرد فيه أحد الزوجين بمسئولية مصروف البيت ..

وقال ضاحكا :

ـــ أنا عريس محافظ ..

ثم أخرج من جيبه كمية من أوراق النقد ووضعها على الكومودينو بجانب السرير ..

ونظرت إلى النقود التى وضعها وهى فرحة .. لا لأنها فى حاجة إلى نقود ولا كانت تنتظر منه أن يدفع شيئا ولكن لأنها أحست بحلاوة إحساسها كزوجة وأنه زوج مسئول عنها ..

وبعد أن خرج قبل المساء حملت النقود وعدتها .. خمسمائة جنيه .. إنه قطعا لم يكن يريد أن يدفع ثمن الدبلتين .. لقد حمل هذا المبلغ الكبير معه وهو لا يعرف أنها اشترت الدبلتين .. وهامت فى فرحتها بإحساسها بأنها أصبحت زوجة .. زوجته ..

وكانت عيناها مركزتان على الدبلة .. إنها فعلا زوجة ليست ككل الزوجات لذلك كانت على حق عندما اختارت دبلة ليست ككل الدبل ..

وتذكرت أنه قال لها فى لحظة اندفاعه العاطفى إنه سيكون له دبلتان كما أن له مفتاحين .. دبلتها ودبلة زوجته سهام .. ومفتاح بيتها ومفتاح بيت سهام .. ولعله سيتعود أن يبدل الدبلتين وهو فى طريقه إلى هذه أو تلك .. ولكن ماذا يحدث لو نسى تبديل دبلة بأخرى .. لقد نسى فعلا أكثر من مرة وهو فى طريقه إليها .. وكانا يتضاحكان بعد أن تذكره ويضع دبلتها ويرفع الأخرى .. ولكن هل نسى مرة وهو ذاهب إلى زوجته الأخرى . إنها لا تدرى .. ولكنها فوجئت بعد مدة بأنه لا يحمل فى أصبعه أى دبلة .. لا دبلتها ولا دبلة سهام .. وقال ضاحكا :

ــ لقد سمنت وضاقت الدبلتان على أصبعى ولكنى أحملهما دائما .. انظرى ..

وأخرج من جيبه سلسلة مفاتيحه ورأت دبلتها معلقه فيها ولم تسأله أين يحتفظ بالدبلة الأخرى ولكنها قالت وهى تخفى غيظها فى ابتسامة :

ــ ألا تخشى أن ترى سهام الدبلة معلقة فى السلسلة وتسألك عنها ..

وقال وهو لا ينظر إليها :

ــ أنت تعلمين أن كلا منا يحتفظ بأشيائه الخاصة بعيدا عن الآخر .. إنى أضع سلسلتى التى تحمل دبلتك فى درج مكتبى .. أما الدبلة الأخرى فقد خلعتها واحتفظت بها فى غرفة النوم .. هل تريدين أن أحتفظ بدبلتك أيضا فى غرفتنا ..

قالت فى فتور :

ــ كما تريد ..

وقال فى صدق وهو يحتضنها فى صدره :

ــ لا .. أريد أن احتفظ بها معى .. إنى أريدك أن تكونى معى دائما حتى لو كنت دبلة ..

وقبلت عنقه فى فرحة وهى بين أحضانه .. ثم ابتعدت عنه وقالت كأنها وجدت الفرصة لتقول :

ــ مجدى .. أصدقنى .. ألم تعرف سهام حتى اليوم ..

وقال وهو يدير وجهه عنها كأنه لا يريد أن تكون ذكرى سهام معهما :

ــ عرفت ..

وقالت فى لهفة :

ــ وماذا قلت لها ؟

قال وهو يتنهد كأنه فى شقاء :

ــ لم أقل لها شيئا لأنها لم تفاتحنى فى الموضوع ولم تقل لى إنها عرفت ..

قالت فى دهشة :

ـــ وكيف عرفت أنها عرفت ؟

قال فى أسى :

ـــ ابنتى الكبرى منى جاءت وسألتنى .. هل صحيح أنك تزوجت يا بابا .. وقلت لها .. عندما تكبرين ستعرفين بنفسك .. ثم أخذت ألاعبها حتى ألهيها عن السؤال .. ومادامت قد عرفت فلا شك أن أمها عرفت حتى ولو لم تتكلم ..

فعلا .. لا شك أن سهام قد عرفت فالخبر أصبح معروفا لدى الكثيرين وأهلها يعلنون زواجها فى كل مناسبة ربما دفاعا عن أنفسهم .. ولعل مجدى نفسه يعرف أن خبر زواجه بها أصبح معروفا وكل الإجراءات التى ينظم بها حياته ليست لإخفاء زواجه من عدلية ولا لإنكاره إنما لمجرد إرضاء زوجته سهام والاحتفاظ لها بكل حقوقها .. بكل كيانها كزوجة لا يشاركها أحد فى هذا الكيان .. إنه حريص على زوجته سهام حتى يخيل لعدلية أنه يخافها .. هل لأنها أم أولاده .. أم أن هناك سببا آخر لا تدريه ..

وانفعلت عدلية بالغيظ لأن سهام لا تثور .. كأنها تتعالى على كل ما يفعله زوجها حتى لو تزوج .. كأنها تعتبر أن ما يفعله زوجها هو مجرد لعب وإشباع للحظات المتعة التى يضعف أمامها كل الرجال حتى ولو تزوجوا وهم أزواج .. ولعل عدلية كانت تفضل أن تدخل فى معركة مع سهام .. معركة الاستيلاء على مجدى .. كل منهما تحاول الانفراد به وخطفه من الأخرى .. ولكن سهام تتعالى على المعركة .. ربما تعتبر نفسها صنفا راقيا لا يدخل فى معارك مع مثل هذه المرأة التى تزوجها

زوجها .. ورغم ذلك فعدلية بدأت تفسر الأحداث كأن سهام تتعمدها .. فقد أصبحت تكثر من الدعوات التى تقيمها فى بيتها وتفرضها على مجدى ربما لتقنع الناس بأن زوجها لا يزال زوجها .. وأصبحت تكثر فى الخروج معه لتلبية الدعوات أو لقضاء السهرات رغم أن مجدى كان يشكو أيام زمان من أنها سيدة كسولة لا تهوى الظهور فى المجتمعات .. وهو الآن مستسلم لكل ما تطلبه ولا يحاول أبدا أن يرفض ولا يحاول التحايل عليها .. لقد كان يستطيع مثلا أن يقول لها إنه مسافر إلى الإسكندرية ويقضى الليل مع زوجته الأخرى .. مع عدلية .. ولكن من يدرى .. ربما لو قال لها إنه مسافر إلى الإسكندرية لصممت على أن تسافر معه ..

وبجانب هذه الأعاصير النفسية التى تعانى منها عدلية بدأت تعانى من الوحدة .. لقد أقنعها مجدى بعد زواجهما بأيام بأن تترك اهتمامها بمكتب المحاسبة وسيضع أسلوبا جديدا لإدارته .. وربما لم تقتنع عدلية بأن تترك المكتب ولكنها استجابت لمجدى .. إنه يريدها أن تتفرغ لحياتهما الجديدة .. وربما كان يريد أن يعزلها عن الناس حتى يخفف من حقوقها عليه كزوجة .. وهو لم يكن يذهب إلى المكتب بنفسه ولكنه اختار وكيلا من رجاله ليديره وكان يدلى برأيه فى كل شىء من بعيد وأحيانا يطلب من هذا الوكيل أن يذهب إلى عدلية فى البيت ليطلعها على الأوراق .. وكانت تعيش يومها فى انتظاره حتى يأتى ويعيش معها ساعات تعود بعدها إلى الانتظار .. ولم يكن حولها ما يخفف عنها ملل الانتظار إلا أهلها .. لقد تباعدت عن كل صديقاتها .. إنها لا تستطيع أن تدعوهن إلا إذا دعت معهن أزواجهن .. ولا تستطيع أن تدعو أزواجهن

إلا إذا كان مجدى معها . ولكن مجدى لا يريد .. إنه كما قال عنه عمها شكرى لا يقبل شيئا إلا إذا كان فى حاجة إليه وهو ليس فى حاجة إلى لقاء أصدقائها ولا فى حاجة إلى هذه الدعوات .. وكان يقبل فى فترات متباعدة أن تدعو أختها وزوجها وأخوها حسام وزوجته وبقية أفراد العائلة .. ودائما دعوة على الغداء .. العشاء ليس لها .. وإذا دعاها أهلها فالدعوة أيضا على الغداء وتعتذر دائما عن العشاء محتجة بأن مجدى مشغول بأعماله وإن كانوا كلهم يعرفون أنه يحرمها من حق العشاء وأنه يقضى الليل دائما مع الزوجة الأخرى ..

وكان ما بينه وبين أهلها تطغى عليه دائما الكلفة كأن كل من الطرفين يؤدى واجبا ثقيلا عليه .. حتى أختها اعتماد لم تستطع أن ترفع الكلفة بينها وبين مجدى .. وقد اختص مجدى أخاها (حسام) بمحاولة رفع الكلفة بينهما .. ربما لأنه كرجل أعمال كان يريد أن يستغل نفوذه كمدير لمكتب القائد ولكن (حسام) لم يكن يستجيب لهذه المحاولات بل لعل حسام كان الوحيد بين أفراد العائلة الذى يكره مجدى .. لعله لا يستطيع أن ينسى أنه كان عشيق أخته وأنه تزوجها بعد أن رفع المسدس فى وجهه .. وطبعا لم يكن مجدى يدعو أصدقاءه إلى بيت عدلية .. لا أصدقاءه ولا أصدقاءها .. ربما كان له حق فهو لا يستطيع أن يدعوهم مرة فى بيت سهام ومرة فى بيت عدلية .. وقد تعودوا على بيت سهام .. كما أن هؤلاء الأصدقاء لا يستطيعون أن يكونوا أصدقاء لضرتين وقد تعودوا على صداقة سهام .. أما هى فهى الزوجة المحرومة .. الوحيدة .. كأنها متزوجة سرا .

ولم يكن حول عدلية ما يمكن أن يخفف عنها وحدتها وملل الانتظار

إلا ابنها شريف ..

ولكن الظروف الجديدة التى تحيط بها بعد أن تزوجت غيرت كل شىء حتى فيما بينها وبين ابنها ..

وهى تذكر يوم ذهبت إليه لتعود به من بيت أختها التى قالت له خبر زواجها .. تذكر أنه سألها فى الطريق دون أن يبدو عليه أى إحساس :

ــ هل سيكون عمى مجدى هو بابا ؟

وقالت وهى تحتضنه :

ــ نعم يا حبيبى ..

قال فى صوت بارد ليس فيه فرحة ولا غضب :

ــ لماذا ؟

وقالت وهى تبتسم له وتقبله :

ــ لأنه يحبك .. ولأنك الآن تريد أن يكون لك بابا ..

وقال وكأن صوته أصبح أكبر من عمره الذى لم يتجاوز السابعة :

ــ لا .. لقد قالت لى خالتى اعتماد إنه تزوجك .. إنه زوج ماما ..

قالت كأنها تخفف عنه .. كأنها تحس هى الأخرى بأن مجدى أخذها من ابنها :

ــ إنه يحبك من قبل أن نتزوج ..

قال وهو لا ينظر إليها ويتلهى باللعب :

ــ هل سأقول له بابا عندما أراه ..

وقالت بسرعة :

ــ سيفرح عندما تناديه بابا ..

وقال وهو يشد فى جلد السيارة :

ــ ولكنه ليس بابا ..

قالت وهى تضحك له ضحكة مفتعلة :

ــ إنك تتميز عن كل الأولاد فإن لك اثنين بابا .. مدحت وأنت تعلم أنه ذهب عنا .. الله يرحمه .. وبابا مجدى أبقاه الله لك ولى ..

ولم يرد عليها ..

وعندما جاء مجدى جلس شريف معهما ملتصقا بها .. وحاول مجدى كل جهده فى مداعبته واكتسابه ولكنه كان لا يكاد يغريه بالابتعاد عن أمه خطوات حتى يعود ويلتصق بها .. وأشعل مجدى سيجارا طويلا بعد الغداء .. ونظر إليه شريف كأنه يتفرج على شيء غريب ثم قال :

ــ ما هذا يا بابا ..

وقال مجدى ضاحكا :

ــ هذا اسمه سيجار وعندما تكبر سأهديك واحدا منه ..

وقال شريف بلهجته التى تبدو أكبر من سنه :

ــ ولكن بابا لم يكن عنده سيجار ولم يكن ينفخ كل هذا الدخان ..

وقالت عدلية بسرعة وكأنها تنهر ابنها :

ــ هذا بابا مجدى وليس بابا مدحت ..

وسكت الطفل وعاد يلتصق بأمه .. إلى أن قامت عدلية ومجدى متجهان إلى غرفة النوم وقالت عدلية لابنها :

ــ اذهب إلى داده حليمة لتبدل لك ملابسك ..

ولكن كأنه لم يسمعها ووجدته يدخل معها غرفة النوم .. وبدأت تعترف بالواقع .. إن ابنها يغار عليها ..

وقالت له وهى تكتم أحاسيسها :

ــ لندع بابا مجدى ينام .. تعال ..

وأخذته إلى الغرفة المخصصة له ووقفت مع المربية تبدل له ثيابه ثم وضعته فى الفراش لينام كعادته بعد الغداء وتركته وعادت إلى زوجها وأغلقت باب حجرة النوم وراءها بالمفتاح .. ولم تمض دقائق حتى بدأ الخبط على الباب وابنها يصيح :

ــ افتحى يا ماما ..

وقال لها مجدى :

ــ افتحى له ..

وقالت عدلية فى غيظ :

ــ لا .. يجب أن نعوده على أن يتركنا وحدنا ..

والخبطات تتوالى وسمعت المربية وهى تتحايل عليه أن يبتعد عن الباب ولعلها حاولت أن تشده معها فبدأ يبكى وارتفع صوت بكائه كالصراخ .. ولم تتحمل عدلية بكاء ابنها فقامت من جانب مجدى وفتحت الباب ووجدته ملقى على الأرض يقاوم المربية التى تحاول أن تحمله بعيدا .. وانحنت عليه وحملته بين ذراعيها رغم أنه كبر على السن الذى تحمله فيه أمه .. وعادت به إلى غرفته وهى تربت عليه وتدلله وقال لها وهو بين ذراعيها :

ــ أريد أن أنام معك ومع بابا مجدى ..

وهى تعلم أنه لا يريد ولكنها دوافع الغيرة على أمه .. وقالت له :

ــ يبدو أنك لا تريدأن تنام .. تعال نذهب إلى النادى .. تسبقنى أنت مع داده حليمة .. وسألحقك بعد أن يخرج بابا مجدى وسآخذك ونذهب سويا إلى السيرك ..

وتوقف بكاء شريف ونظر إلى أمه كأنه مبهور :

— هل نذهب إلى السيرك ..

وقالت وهى تضحك له :

— سنذهب إلى السيرك ونرى الأسد والفيل أبو زلومة والبلياتشو ..

واستكان الطفل أمام الإغراء وخرج فعلا مع المربية وعادت هى إلى أحضان مجدى .. ومجدى ليس متضايقا ولا يبدو عليه الزهق من تصرفات ابنها .. لعله بذكائه يعرف أن كل هذا من الطبيعى أن يحدث .. وقد وضعت هى بعد ذلك نظاما جديدا لحياة ابنها ففى كل يوم وبعد أن يعود من المدرسة تصحبه المربية إلى بيت أختها ليذاكر ويلعب مع أولادها أو تذهب به إلى حديقة الأطفال فى النادى .. وفى كل يوم كانت تحتاج إلى إغرائه .. إلى أن تعود الطفل على هذا النظام الجديد وتعود على مجدى الذى كان يتعمد أن يغرقه بالهدايا ويسرف فى تدليله ..

ولكنها تحس بغريزة الأم أن ابنها شريف لا يمكن أن يحس إحساسا كاملا أن مجدى هو أباه حتى وهو يردد له لقب بابا .. إنه زوج أمه .. الرجل الذى أخذ منه أمه .. إنه لا يكرهه ولا يضايقه بتصرفاته ولكنه ليس أباه .. ثم إنه مهما عاش مع مجدى فلن يعيش معه كله .. سيعيش مع نصفه دون أن يعيش مع النصف الآخر .. أى مع الأولاد الآخرين الذين ينادون مجدى بلقب بابا أيضا .. حتى بعد أن يكبر شريف ويعرف أن مجدى له أولاد آخرون فلن يكونوا إخوة له .. ربما لن يراهم أبدا .. من يدرى .. ربما لو أنجبت من مجدى فسيكون وليدها أخ لأولاده الآخرين حتى لو كانوا إخوة غير أشقاء .. ولكن شريف سيبقى دائما مظلوما .. أنه لن يكون أبدا نصيبا من مجدى .. سيبقى دائما ابن

المرحوم .. وهى تعرف قصة عبد الحميد الخربوطلى .. إنه رجل غنى .. مليونير .. وقد تزوج امرأة مطلقة لها ابن من زوجها الأول ، وأنجب هو منها ثلاثة أولاد وبدأ يكتب أملاكه الشاسعة باسم أولاده .. العمارات والأراضى وأرصدة البنوك كلها باسم أولاده .. إنه لا يكتب أبدا شيئا باسمها هى رغم أنها كانت تلح عليه أن يخصها بشىء من أملاكه .. ولكنه يرفض بإصرار ويقول لها فى إصرار إنه يخص أولاده بكل أملاكه وهم أولادها وسيتولون دائما كفالتها .. لماذا لا يريد أن يخصها بشىء .. لأنه لا يريد أن يرثها ابنها من الرجل الآخر فيما يخصها به .. لا يريد أن يأخذ ابن رجل غريب شيئا من أملاكه حتى بعد أن يموت .. كل شىء لأولاده هو دون أن يشاركهم غريب عنهم .. لعل مجدى يكون مثل عبد الحميد الخربوطلى .. لا يترك لابنها شريف شيئا ولا يخصها هى بشىء من أملاكه حتى لا يذهب ما يخصها به إلى وريث ليس ابنه .. وقد قالت لها أختها اعتماد إن أرض المنصورية التى يملكها مجدى منذ سنوات بعيدة مكتوبة باسم أولاده وقد عرفت الخبر من أخيها حسام وقد أبلغته به المخابرات .. إنها هى ومجدى لا يزالان تحت رقابة المخابرات لمجرد أن أخاها هو مدير مكتب القائد العام .. ولم تهتم عدلية بسماع الخبر .. ربما كان مجدى على حق .. إنه يريد أن يطمئن أولاده وزوجته سهام إلى أنه مهما فعل بحياته فلن يضيع عليهم شىء حتى لو تزوج امرأة أخرى ..

وقد مرت عليها لحظات كان يدهمها التفكير فى أن تنجب من مجدى .. إن أى زوجة تتمنى أن تنجب من زوجها حتى تزداد ارتباطا به خصوصا إذا كانت تحبه كما تحب هى مجدى .. ولكن مجدى قد اتفق معها منذ أول زواجهما ألا ينجبا .. إنه يقول إن الظروف التى تحيط بهما لا

تسمح بالإنجاب وقد تظلم الطفل الذى ينجبانه .. فلينتظرا إلى أن تتغير الظروف .. ووافقته رغم أنها راودها الإحساس بأنه لا يريد منها طفلا يشارك أولاده الآخرين فى الانتساب إليه .. وكان يسألها أحيانا ضاحكا بعد أن يتركها من أحضانه :

— إياك أن تكونى قد نسيت تعاطى الحبوب ..

وترد وهى تفتعل ضحكة تقابل ضحكته :

— اطمئن .. إنك لا تستحق أن أنسى تناول الحبوب ..

وهى فعلا كانت حريصة على تناول حبوب منع الحمل .. تماما كما كانت قبل أن تتزوج .. لا شىء تغير .. وقد بدأت تحس أنها أيضا لا تريد أن تلد من مجدى .. إنها غير مطمئنة على حياتها كلها .. وهى تعيش القلق .. والحيرة .. والوحدة .. ومرارة انتظار أن يفتح مجدى الباب ويدخل إليها .. إنها لا تريد طفلا يعيش معها هذا القلق وهذه الحيرة .. ولا يعيش مع أبيه ولكنه يعيش معها فى انتظار أن يفتح أبوه الباب عليهما .

وكان قد مر على زواجهما أكثر من تسعة شهور عندما جاءها مجدى فى يوم وقال لها فى لهجة طبيعية كأنه لا يقول شيئا يفاجئها به :

— استعدى للسفر فى يوم الأحد القادم .. بعد أسبوع ..

وانفتحت عيناها فى دهشة تنبض بالفرحة :

— هل أسافر معك ..

قال فى برود مفتعل :

— طبعا .. هل تظنين أنى يمكن أن أتركك تسافرين وحدك ..

وقفزت وتعلقت بعنقه وانهالت عليه بالقبلات ..

٧

لم تكن المرة الأولى التى يسافر فيها مجدى بعد أن تزوج عدلية ولكنه كان دائما يسافر وحده ولم يكن يصحب معه أبدا زوجته سهام .. تعودت سهام على ألا تسافر معه أبدا .. وكانت حجته أنه لا يسافر إلا للعمل ولا يغيب أكثر من أيام وليس لديه الوقت هناك لمصاحبة زوجته والترفيه عنها .. ولعله أحس الضيق والحرمان الذى تعانيه عدلية .. لقد كانت أحيانا تزفر متاعبها النفسية له دون أن تفرض عليه أن يخفف عنها .. ولعله أشفق عليها واشتد إشفاقه حتى قرر أن يصحبها معه هذه المرة ..

وأخذت عدلية تعد نفسها للسفر فى فرحة كبيرة كأنها تعد الليلة زفافها .. لا .. إنها تعد لليلة زفافها .. لا .. إنها تعد نفسها لقضاء شهر العسل رغم أنه قد مضى على زواجها أكثر من تسعة شهور .. وأعلنت فرحتها لأختها اعتماد ولكل أفراد العائلة وكأنها تغيظهم .. إنها زوجة كاملة تسافر مع زوجها ..

ومجدى حجز تذاكر الطائرة له ولها إلى جنيف بسويسرا .. وأعد لها جواز السفر .. وانطلقت فرحتها كأنها تزغرد عندما وجدته قد سجل فى جواز السفر أنها زوجة مجدى عبد الحميد .. زوجته .. وإن كان قد احتفظ بهذا الجواز فى جيبه ولم يتركه لها .. لا يهم .. لقد كان يستطيع أن يطلب منها أن تركب الطائرة وحدها وتلحق به ، وكان يستطيع أن

يسجل اسمها فى جواز السفر مجردا عن اسمه .. ولكنه لا يتعمد أن يخفى زواجه بها أو يعترف به رغم أنه أصبح معروفا بين كثير من الناس ..

وجاء يوم السفر .. إنه لا يريد أن يودعهما أحد فى المطار لا من أهلها ولا من أهله ولا حتى من شركائه أو من موظفى مكتبه .. رغم أن أختها اعتماد ألحت كثيرا أن تكون فى وداعها فى المطار هى وابنها شريف الذى سيقيم معها خلال غيبتها .. ولكن مجدى صمم وقال لها ضاحكا رغم أنه ضنين بضحكاته :

ــ إنى أريد أن أحس بأنى أختطفك وأهرب بك ..

لعل كل ما هناك أنه لا يريد أن يجمع الناس حوله وهو يسافر معها حتى لا يصل الخبر إلى زوجته سهام .. لا يهم .. له حق ..

ومر عليها بسيارته يقودها سائقه الخاص وركبت بجانبه وهى تحس لأول مرة أنها عروس .. ليست زوجة .. إنها لا تزال عروسه .. وهذه هى أول مرة تخرج مع عريسها إلى الشارع وتجلس بجانبه فى سيارة ..

وعندما جلست بجانبه فى الطائرة اشتد إحساسها بأنها عروس فى طريقها إلى حفل الزفاف وراودتها متعة الإحساس بالحياء الحلو الذى يراود كل عروس فى ليلة زفافها .. ومجدى يبدو أرق مما تعودته كأنه هو أيضا يحس بأنه عريس يصحب عروسه فى ليلة الدخلة .. وقد احتضن يدها فى يده طول الوقت وهو جالس ملتصقا بها ويحدثها عن حياتها وعن عمله كأنه يعرفها بنفسه من جديد ..

ووصلا جنيف فى الساعات الأولى من المساء .. وأخذت تتطلع حولها بدهشة ممتعة وهما فى السيارة فى طريقهما إلى الفندق .. إنها المرة الأولى التى تسافر فيها إلى أوربا وترى شوارع أوربا .. ووصلا إلى

الفندق الكبير .. إنه يسجل اسميهما .. مجدى عبد الحميد وزوجته .. وتصعد معه بفرحتها إلى غرفتهما .. إنهما لا يفكران فى الخروج من الفندق والطواف بشوارع المدينة كعادة السواح .. لا يمكن .. إنهما فى ليلة الدخلة .. وطلب عشاء خفيفا يقدم لهما داخل الغرفة .. وهى لا ترفع عينيها عنه أبدا .. إنه لأول مرة يكون لها كله .. لن يتركها فى الليل ليذهب إلى الأخرى .. وعندما جمعهما الفراش انطلقت فرحتها .. إنها لأول مرة منذ توفى زوجها الأول مدحت وهى لا تقضى الليل وحدها فى الفراش .. وهى مطمئنة إلى أنها ستفتح عينيها فى الصباح وتجده بجانبها .. لا .. لن تغمض عينيها حتى تشبع حرمانها من رجلها وهو معها فى فراش واحد حتى الصباح ..

وكانت كأنها ليلة الدخلة ..

وفتحت عينيها عند الفجر وهو نائم .. ولم تتحرك من رقدتها .. إنها أول مرة تراه وهو نائم حتى عندما كان يأتى إليها فى بيتها لم يكن ينام بعد الغداء .. إنه ينام طول الليل على جانبه الأيمن وساقاه مثنيتان قليلا ولا يتقلب ولا يتحرك فى نومه ووجهه هادىء ليس فيه تجاعيد تقفز إلى جفنيه وهو نائم .. وظلت عيناها متعلقتين به وتطوفان به من أوله إلى آخره كأنها تقبل كل قطعة منه ..

وتحرك راقدا على ظهره وفتح عينيه إليها وابتسم ابتسامة كبيرة كأنه فوجىء بها بجانبه .. إنه لم يتعود أن يصحو وهى بجانبه .. وشدها إليه وقال هامسا وهو يحتضنها إلى صدره :

ــ صباح الخير يا حبيبتى ..

وقالت وهى تمرغ وجهها على عنقه :

— يسعد صباحك .. هذا أول صباح لنا فى العمر كله ..

قال وهو يمسح بأصابعه على شعرها :

— إن صباحى لا يبدأ إلا برؤياك حتى لو رأيتك فى المساء ..

وتاها فى القبلات ..

ثم قفز من الفراش وهو يقول ضاحكا :

— عن إذن الحب .. حتى لا أتأخر عن مواعيد العمل ..

ودخل الحمام ..

ووقفت بجانبه وهو يحلق ذقنه وكأنها تتبع جرات الموس على خده .. إنها لم تره أبداً وهو يحلق .. ولكنها تبدو من انبهارها كأنها لم تر أبدا رجلا يحلق .. وقال مبتسما :

— غنى لى .. حتى أضبط جرات الموس على نغماتك .. غنى أى شىء ..

وقالت ضاحكة :

— لا .. لا أريدك أن تطفش منى ..

وهمت أن تغنى ليتضاحكا ولكنها وجدت نفسها تتساءل .. هل تغنى له زوجته سهام وهو يحلق ذقنه .. إنها لا تريد أن تكون كزوجته الأخرى .. لا .. لن تغنى .. وتركته وجرت إلى الغرفة تعد لـه ملابسه .. وصاحت من هناك :

— هل تريد البدلة الرمادى أم البدلة الزرقاء ..

وصاح لها :

— اختارى لى .. لست مسئولا عن أناقتى ..

واختارت له البدلة الرمادى ووقفت معه تعد له كل شىء حتى حذاءه

أخرجته ومسحته له قبل أن يضعه فى قدميه .. إنها تحس بمتعة جديدة وهى تخدمه .. وسألها وهو يرفع سماعة التليفون :

— ماذا تريدين للإفطار ؟

وقالت بسرعة دون أن تفكر :

— فول ..

وابتسمت وهى ساهمة تسائل نفسها لماذا تطلب الفول المدمس .. ثم قالت له فى خفر :

— لعلى توهمت أننا فى بيتنا فى مصر .. وطلبت الفول كما هى العادة .. نسيت أننا لسنا فى بيتنا ..

وقال وهو يمد يده ويحتضن يدها :

— إن أى مكان نحن فيه هو بيتنا .. سنجد فيه كل شىء حتى طبق الفول ..

ولكنهما لم يجدا فى الفندق طبق الفول .. وهذا أفضل .. حتى لا تعيش أوهامها .. وتناولا الإفطار فى الغرفة وطلب منها أن تنتظره حتى ينتهى من عمله ويتصل بها .. وقبلها قبلة سريعة وخرج .. لم يفتعل قبلة طويلة لها مذاق خاص .. إنه زوجها ..

وبقيت وحدها فى الغرفة الكبيرة الملحق بها غرفة صغيرة لاستقبال الضيوف ترتب وتعيد ترتيب كل شىء .. ثم قامت تتزين وتنتقى ثوبها وهى سعيدة مرحة كأنها فعلا عروس حتى بدأت تغنى لنفسها فى صوت خفيض رغم أنه لم يكن من عادتها أبدا الغناء .. ثم توقفت عن الغناء وعن كل شىء كأنها تذكرت شيئا كانت قد نسيته .. تذكرت ابنها شريف .. وابتسمت بينها وبين نفسها ابتسامة خجولة كأنها تعتذر له .. إنها منذ

جلست فى الطائرة بجانب مجدى وقد نسيته .. لم يخطر على بالها .. رغم أنها المرة الأولى التى تسافر وحدها وتتركه فى مصر وحده .. ولكنه فى أمان .. لقد تعود على أن يكون فى بيت اخته اعتماد وهو يحبها .. لا شك أنه سعيد ولعله هو الآخر ينسى أمه كما نسيته ..

وعادت تتزين إلى أن اتصل مجدى بالتليفون عند الظهر وقال لها إنهما مدعوان على الغداء مع موظفى الشركة وطلب منها أن تنتظره فى حديقة الفندق إلى أن يمر عليها ..

إنها المرة الأولى التى تصاحبه فيها إلى دعوة عمل .. دعوة رسمية .. إنه منذ تزوجها وهو لا يصحب معه إلا زوجته الأولى سهام .. وكانت سهام لا تقبل على هذه الدعوات وتعتذر عنها وتتركه يلبى الدعوة وحده ولكنها بعد أن عرفت أنه تزوج أصبحت تصر على أن تظهر فى كل دعوة وتفتعل هى الدعوات حتى تقول للناس إنه لا يزال معها ..

ورغم أنها تعودت على مثل هذه الدعوات وهى تعمل فى الشركة ثم بعد أن تزوجت المرحوم مدحت إلا أنها أحست كأنها تذهب إلى دعوة مع زوجها لأول مرة .. وهى تحس ببعض الارتباك .. كيف تقابل أصحاب الدعوة .. وكيف تتكلم .. وماذا تقول .. وهل يعرفون كلهم أنها زوجته الثانية .. وهل سبق أن عرفوا الزوجة الأولى ودعوها مع مجدى .. وقاومت كل هذه الأحاسيس واستطاعت أن تكون زوجة مشرقة أثناء وليمة الغداء .. لقد كان الداعون اثنين من كبار موظفى الشركة التى يتعامل معها زوجها وقد صحب كل منهما زوجته .. وقد نجحت فى تبادل الأحاديث .. إنها بحكم خبرتها تجيد أحاديث العمل مع الرجال وبحكم أنوثتها شدت النساء إلى أحاديثها ..

وقد صحبت مجدى فى كل الدعوات التى توجه إليه وكانت كلها دعوات إلى أصدقاء أجانب .. ولكن مجدى قدمها أيضا إلى أصدقاء مصريين ولكنهم كانوا من المصريين المقيمين فى سويسرا .. المهاجرين .. لم يختلطا بأحد من المصريين المترددين أو الذين جاءوا من مصر للسياحة .. عندما كانوا يقابلون بعضهم فى الشارع ويكون مجدى على معرفة بهم يكتفى بمصافحتهم دون أن يقدمها إليهم .. دون أن يقول لهم إنها زوجته الثانية .. لعله يتعمد ذلك حتى لا يصل إلى زوجته الأولى أنه سافر مع الزوجة الثانية ..

وبعد أن تنقضى ساعات العمل كان مجدى يصحبها ليطوف بها المدينة وهو مرح .. ضاحك .. فى منتهى الكرم .. إنهما يطوفان بشارع « السيرفت » وعيناها متطلعتان فى نهم إلى المعروضات فى فترينات الحوانيت الكبيرة .. تدخل معه إلى محال « بون جينى » و « جراند باساج » و « البلاسيت » وتشترى .. تشترى لنفسها ولابنها شريف وأختها اعتماد وأمها وإخوتها وحتى اشترت لمربية ابنها .. ومجدى لا يعترض .. بل إنه اشترى لها بنفسه ساعة « بياجية » ثمينة ما كادت تسمع رقم ثمنها وهو يدفعه حتى احتضنته بعينين شاكرتين مشفقتين عليه من حبه لها ..

وفى المساء كل ليلة يصحبها إلى الملهى .. ملهى « علاء الدين » الذى يملكه ويعزف فيه العازف المصرى بوب عزام .. لقد جاء بوب نفسه مرحبا بمجدى وبها وجلس معهما .. إن مجدى معروف فى كل سويسرا .. ثم ملهى « سانكان تويت » الضيق الخافت الغالى كأنه مخصص للعاشقين فقط .. و .. و .. ثم استطاع مجدى أن ينهى أعماله

فصحبها إلى قمة الجبل فى « سان موريتز » ليقضيا الساعات فى مرح بين الثلوج .. ويمد يده ويكور فيها الثلج ويقذفها به .. وترفع كرة من الثلج تقذفه بها وتجرى إليه تحتضنه وتقبله كأنها تقسم له أنها لن تقذفه أبدا مرة أخرى .. وانطلقا بسعادتهما إلى « مونترية » ثم لعبا القمار على مائدة الروليت فى قرية « ديفون » وخسرا وضحكا .. إن السعيد فى الحب لا يمكن أن يكسب فى القمار ..

وهى تحس دائما بسر كل هذه السعادة التى تطير بها .. ليس كل ما حولها هو سر السعادة .. السر هو أن مجدى لها كله .. لأول مرة يكون لها كله ..

ولكن هذه السعادة لم تدم سوى سبعة أيام وبعدها كان يجب أن يعودا إلى مصر .. وتعمد مجدى ألا يرسل إلى مصر بموعد وصولهما حتى لا يكون أحد فى انتظارهما ..

* * *

وما كادت عدلية تضع قدميها على أرض مصر حتى نظرت إلى مجدى نظرة مسكينة حزينة كأنها تودعه ..

إنه هنا لن يكون لها كله ..

وقد مضت أيام وهى مشغولة بفرحتها بعودتها إلى ابنها وبتوزيع الهدايا وحكاية الحكايات عن أيامها التى قضتها فى سويسرا .. ثم بدأت تعود إلى إحساسها بالمعاناة.. معاناة وحدتها.. إن مجدى عاد كما كان.. يتصل بها كل يوم فى التليفون ويأتى إليها ليبقى ساعات أو دقائق.. ثم يتركها وحدها.. وقد بدأت تعانى أكثر من وحدتها بالليل .. وحدتها فى فراش الليل .. أن تنام وحدها وليس فى أحضانها إلا وسادتها .. إنه عذاب .. إنها تحس

وهى تلقى بنفسها على فراشها بالليل كأنها تلقى بنفسها فى القبر .. لم يكن هذا العذاب يصل إلى هذا الحد قبل أن تسافر مع مجدى إلى سويسرا .. ولكنها هناك عاشت الإحساس بأنها زوجة كاملة .. زوجها لها كله .. ولا يأتى الليل إلا وهو لها كله .. إنها لم تعد تستطيع أن تتجرد من هذا الإحساس .. لم تعد تحتمل أن تعود وهى ليست زوجة كاملة .. وأصبحت تقضى الليل وهى تحاول أن تنقل نفسها إلى ذكريات الليالى السبع التى كانت فيها كاملة وكان لها كله .. وتتذكره وهو نائم بجانبها .. وتتخيّل عينيه النائمتين .. وقوامه المائل على جانبه الأيمن وساقاه مضمومتان إلى صدره ولكن حتى الذكريات أصبحت تهرب منها .. إنها لا تلبث أن تجد ذراعها ممدودة على وسادة خالية .. وتحس بالعذاب .. عذاب الوحدة والحرمان ..

ولم تكن تشكو عذابها لمجدى .. كانت كلما جاء إليها تضمه فرحة كأنها لا تزال تشكره على الليالى السبع التى قضاها معها .. وكان قد مر أكثر من شهر عندما جاءها كعادته كل يوم وقال لها فى صوت واجم :

ــ سأسافر بعد أيام ..

وصاحت كأنها تزغرد :

ــ وأسافر معك ..

وقال دون أن يبادلها فرحتها :

ــ لا أظن ..

وابتلعت فرحتها وقالت وهى تنظر إليه كأنها تنتظر صدمة :

ــ لماذا .. لقد وعدتنى أن أسافر معك دائما ..

قال وهو ينظر فى يديه العصبيتين :

ـــ إن سهام مصممة على السفر معى هذه المرة .. إنها لم تكن تتمنى السفر أبدا .. وطول حياتها لم تسافر إلا مرة واحدة .. ولكنها مصممة .. بل إنها طلبت أن تصحب ابنتنا منى معنا .. كأنها تسلطها على .. وقالت عدلية ساهمة :

ـــ لعلها عرفت أنى كنت معك .. ماذا قالت لك ..

وقال مجدى وهو يتنهد كأنه يزفر تعاسته :

ـــ لم تقل شيئا .. ولكنها قطعا عرفت أننا سافرنا معا وإلا ما أصرت على أن تصحبنى هذه المرة .. هذه هى عادتها ..

وسكتت عدلية .. وسكت مجدى .. ودام الصمت بينهما فترة كأن كلا منهما لا يستطيع أن يواجه الآخر بمصائبه إلى أن انطلق مجدى قائلا وكأنه وجد الحل السعيد :

ـــ اسمعى .. إنى سأسافر هذه المرة إلى باريس وسأبقى هناك مع سهام وابنتى منى عشرة أيام .. وبعدها أستطيع أن أتركهما يعودان وحدهما إلى مصر وأذهب أنا إلى جنيف وتكونى فى انتظارى هناك .. ما رأيك ؟

ونظرت إليه عدلية فى دهشة وطالت دهشتها إلى أن قالت ساهمة :

ـــ دعنى أفكر ..

وقال وهو يمسك بيدها فى يده وينظر إليها كأنه يقبلها :

ـــ إن قضاء أيام معا لا يستدعى التفكير ..

وقالت وهى تبتسم فى حسرة :

ـــ إن كل أيامنا أصبحت تطلب التفكير ..

ومال عليها يقبلها وتركها تفكر ..

وما كاد يبتعد عنها حتى أحست كأن ثورة تندلع فى كل كيانها .. ثورة عليه .. وثورة على نفسها .. وثورة على كل ما حولها .. لماذا تستسلم لهذا العذاب .. لماذا تتنازل عن كل حقوقها وتترك نفسها كأنها تعيش خادمة للزوجة الأخرى سهام .. وكيف يرضى مجدى أن يترك سهام تنهش فيها .. تنهش فى حقوقها .. لقد كان يستطيع أن يرفض طلب سهام مصاحبته فى السفر .. ويصر على الرفض مهما حدث حتى يحتفظ لها هى بالحق الذى أخذته .. الحق فى أن تكون الزوجة التى تصحبه فى سفرياته .. هى وحدها التى تسافر والأخرى ليس لها حقوق خارج مصر ..

والأكثر من ذلك .. إذا كانت زوجته الأولى سهام تعلم أنه تزوج وتتبع كل أخباره مع زوجته الثانية .. فلماذا لا يتصارحا .. لماذا يستمران فى هذا النفاق وفى تجاهل الواقع الذى يعيشان فيه .. لماذا لا يضع زوجته الثانية فى نفس مستوى زوجته الأولى ويوزع على كل منهما الحقوق بالتساوى كما هو الشرع فى تعدد الزوجات .. أن يكون لزوجته الأولى أيام وليال ويكون للثانية أيام وليال .. وأن يكون لكل منهما حقوق واختصاصات .. وابتسمت عدلية بينها وبين نفسها ابتسامة ساخرة .. إنها مستعدة أن تقبل ثلاث ليال فى الأسبوع وتترك لسهام أربع ليال .. ومستعدة أن تترك مجتمع القاهرة وتكتفى هى بمجتمع الخارج ..

ولكن ..

إن مجدى يخاف سهام إلى حد أن يستسلم لها حتى على حساب عدلية.. ولكن لماذا يخاف سهام .. لعله لا يخافها ولكنه يحفظ لها جميل معاشرته منذ البداية .. أو لعله يعتبر أنه قد جنى عليها بزواجه من أخرى ويعيش معها مكفرا عن جريمته .. أو لعله لا يحسب حسابها ولكنه يحسب حساب أولاده منها .. وفى سبيل أولاده يحرص على مراضاة سهام حتى لا يأتى اليوم الذى قد تتركه فيه وتطلب الطلاق وتتمزق حياة الأولاد .. ومن أجلهم .. من أجل الأولاد .. يحرص على أن تستمر حياة البيت طبيعية كما كانت دائما وكأنه لم يتزوج امرأة ليست أمهم ..

ولكن ..

ربما كان مجدى يحب سهام ..

واتسعت عينا عدلية وهى تسائل نفسها .. هل يمكن أن يجمع قلب الرجل بين حبين .. حبها وحب سهام . إن مجدى قطعا يحبها .. وحبه ليس مجرد نزوة .. إنه حب استمر سنوات .. فهل يمكن أن يجمع بين هذا الحب وحب سهام .. ولكن .. ماهو الحب .. إن مجدى يقول إن الحب هو احتياج كل من الطرفين إلى الآخر .. وقد كان فى حاجة إليها .. ولا يزال فى حاجة إليها .. ولكنه ليس فى حاجة إليها كزوجة .. إنه لم يفكر أبدا فى أن تكون زوجته .. لقد تزوجها رغما عنه .. ولكنه فى حاجة أخرى إليها .. حاجته إليها كعشيقة ..

نعم ..

لتعترف ..

إنها ليست زوجة ..

إنها عشيقة ..

وكل ما حدث بعد أن كتبت العقد أنها أصبحت عشيقة شرعية ..

نعم ..

إنها عشيقة شرعية ..

وانهارت على الوسادة الخالية تبكى ..

٨

عندما جاءها مجدى فى اليوم التالى كانت عدلية قد أفاقت من زوبعة الدموع التى اجتاحتها وابتلعت كل خواطرها واستقبلته وعلى شفتيها الابتسامة التى تعودت أن تستقبله بها .. وقبلها وقال فى مرح وهو واثق أن لا شيء يريده يمكن أن يخيب :

— هل فكرت ؟!

وقالت وهى تقاوم لتحتفظ با بتسامتها :

— فكرت ..

قال بسرعة مرحة :

— لقد أعددت كل شيء للقائنا فى جنيف .. سأحجز فى نفس الفندق الذى أقمنا فيه وأرسلت فى حجز تذكرة الطائرة ..

وقالت فى هدوء وبلا تحد :

— لا .. بعد أن فكرت قررت ألا أسافر ..

وقال فى دهشة كأنها صدمة :

— لماذا ؟

قالت ضاحكة :

— سأتركك هذه المرة تسافر مع سهام وفى المرة القادمة أسافر بك .. إنى لا أحب أن أبدأ إلا معك ..

قال محتدا وإن كان فى نظرته رجاء :

— إنك تسافرين هذه المرة والمرة القادمة وكل مرة .. وستنتظرين فى جنيف ليلة واحدة ثم أكون معك ..

قالت من خلال ابتسامتها المسكينة :

— قد أستطيع أن أنتظرك هنا ولكنى لا أريد ولا أحب أن أنتظر فى جنيف .. إنى هناك لن أستطيع أن أتحمل مرارة الانتظار ..

قال وكأنه يتحايل :

— نعدل المواعيد .. سأذهب إلى جنيف قبلك وأكون أنا فى انتظارك فى المطار ..

قالت هادئة :

— لا .. إن المشروع كله لن يسعدنا .. لا أريد أن أحس بك كأنك تركت سهام من أجلى .. ولا أريد أيضا أن أحس بأنى أخذت ما تركته لى سهام أو ما بقى من سهام .. لأجل خاطرى لندع هذا المشروع وننتظر سفرا آخر يكون كله لنا نحن الاثنين .. على الأقل حتى أستطيع أن أقنع نفسى بأن هناك ما يستحق أن أترك ابنى شريف لأكون معك ..

وسمع اسم ابنها شريف وسكت كأنه لا يريد أن يمسه بكلمة قد تغضب لها عدلية .. واضطر أن يوافق على ما قررته .. وأخذ يتعمد قبل سفره أن يقضى معها أوقاتا أطول كأنه يعطيها أكثر ، لا لأنه سيتركها ويسافر فقد سبق أن تركها وسافر ولكنه الإحساس بأنه جرحها وهو يسافر مع زوجته سهام .. إحساسه بأنه أخذ منها حقا كان قد قرره لها ..

وبعد أن سافر مجدى قضت عدلية أيامها وهى مسكينة .. إنها العشيقة التى تركها ليذهب إلى زوجته .. العشيقة الشرعية .. وكانت

تمر بها لحظات تتخيل فيها مجدى وهو مع زوجته فى باريس .. لعله يسير معهـــا فى شارع « الشانزليزيــه » كما كان يسير معهـــا فى شارع « السيرفت » .. ويدخل معها الدكاكين كما كان يدخل معهـا .. ويتركها تشترى .. لعلها تشترى أكثر مما كانت هى تشترى .. إنها الزوجة وليست العشيقة وحقوقها أكثر .. ثم تتخيله وكأنه صعد معها الجبل كما صعد معها .. وتقاذفا بالثلوج .. لا .. لا .. لا يمكن .. إن سهام شخصية أخرى غيرها .. لا يمكن أن تثير فى مجدى السعادة والمرح التى تثيرها هى فيه ، ولكن لا شك أنه قدمها لأصدقائه هناك وحضرت معه الدعوات الرسمية .. ودعوات العمل .. ترى هل كان بين الداعين أحد ممن سبق أن دعا مجدى وهى فى جنيف .. وماذا يقول عنه وعنها .. ولم تكن تبكى وهى تعيش خواطرها .. إنه واقع لا يحتاج لدموعها .. وتحاول أن تنسى كل هذه الخواطر وهى تذيب نفسها فى ابنها شريف أو وهى تناقش أختها اعتياد مناقشات لا تنتهى ..

وعاد مجدى بعد عشرة أيام وكان معها بعد ساعة من وصوله .. لقد اشترى لها سوارا رائعا استطاع أن يخفيه عن زوجته سهام .. وقد استقبلته وهى تنظر إليه نظرات متسائلة تغلب فرحتها بعودته .. وكأنها تسأله .. ماذا يحدث بعد ذلك .. ما هو مستقبلها ..

ولم تنقض أكثر من أيام حتى جاءها مجدى يبلغها أنه سيسافر وستكون معه .. سيسافر سفرة لن يشترك فيها معه إلا هى ..

وكأنه يعوضها عن سفرته السابقة مع سهام ..

وسافرت معه ..

ولكنها لا تحس فى هذه السفرة بما كانت تحسه فى السفرة الماضية ..

أنها تمضى معه شهر العسل .. أصبح مذاق العسل أخف فى حلاوته فلا يأخذها كلها من واقعها .. ولم تنس ابنها شريف بعد أن جلست بجانبه فى الطائرة كما نسيته فى المرة السابقة .. بالعكس .. إن كل حديثهما وهما فى الطائرة كان عن ابنها شريف .. وكل حديثه عن عمله وأحيانا عن أولاده منى ومشيرة ومدحت .. ولكنها بعد أن وصلت جنيف وبدأت تحس بأنها ليست وحيدة فى فراش الليل .. وتصاحبه فى دعوات العمل ويقدمها لأصدقائه الأجانب .. وتطوف معه لاهية ضاحكـة فى الشوارع .. أخذت تتغلب عليها شخصية الزوجة الكاملـة ويخفت إحساسها بأنها مجرد عشيقة شرعية .. إن مجدى هنا لها كله ..

ولكنه لم يبق لها كله إلا ثلاثة أيام عادا بعدها إلى مصر .. ونزلت إلى مطار القاهرة دون أن يستقبلها أحد كما هى العادة .. دون أن تفرح بأختها وابنها فى استقبالها .. إنها تسافر سرا وتعود سرا كأنها تهرب .. إنها تهرب من زوجته الأخرى سهام .. إنها عشيقة ليس من حقها أن تعلن حياتها مع عشيقها .. ولو أنها عشيقة شرعية ..

وقد تكررت المرات التى يدعوها فيها مجدى إلى مصاحبتـه فى السفر .. وقد بدأت تمل هذه الأسفار .. وكانت تضغط على أعصابها وفكرها وهى تسافر معه وتقنع نفسها بأنها تريد أن تتمتع بحريتها معه التى لا تتحقق إلا خارج مصر .. ثم بدأت تعجز عن إقناع نفسها .. لماذا لا تكتف بما هى فيه وتعيش مستقرة فى بيتها على أنها عشيقة شرعية .. ثم بدأت تحس بأنها تجنى على ابنها شريف كلما تركته لتسافر مع مجدى .. إنها تحرمه من أمومتها لإرضاء مشاعر حبها .. وشريف نفسه بدأ يحس بأنها تجنى عليه وتأخذ حقه وبدأ يصرخ ويبكى كلما همت بالسفر ..

وكانت تعتذر عن بعض السفريات وتتركه يسافر وحده .. إلى أن قررت مصارحته .. لماذا تخفى عنه أحاسيسها .. وقالت له وهو يدعوها مرة إلى السفر ملحا عليها ألا ترفض :

— مجدى .. إنك تسافر من أجل عملك لا من أجلى .. أما أنا فأسافر فقط لأكون معك .. لأحس بك كأنك لى كلك .. لست وحدى .. ولأحس بأنى زوجة كاملة لا تنام فى سريرها وهى وحيدة .. وقد كنت أفرح بالسفر معك ولكنى بدأت أحس كلما سافرت معك بأن بعد أيام سنعود .. سأعود إلى وحدتى وعزلتى ومرارة الحياة فى انتظارك .. بل إنى بدأت أرتاح أكثر عندما أتركك تسافر وحدك فإن انتظارك وأنت مسافر أخف من انتظارك وأنت هنا معى فى مصر .. إنك وأنت مسافر أنتظرك كما تنتظر أى زوجة زوجها المسافر .. ولكنك عندما تكون هنا أحس بأنى أنتظرك انتظار الزوجة المحرومة من زوجها .. الزوجة التى فرضت عليها الظروف أن تعيش فى حرمان ..

وقال وهو ينظر إليها فى حب ينبض بالإشفاق :

— إن كل ما تحسين به يا عدلية أحس به .. كل ما تعانينه أعانيه معك .. أنا أيضا زوج محروم .. لست محروما من قضاء الليالى فى بيتى الذى هو بيتك فوق فراشى الذى هو فراشك فحسب .. ولكنى محروم من كل شىء .. إنى أعلم ما تعانينه وأنت محرومة من الحياة الاجتماعية هنا فى مصر .. إنك ضحيت من أجلى بصديقاتك وأصدقائك لا تقيمين الدعوات فى بيتنا ولا تقبلين الدعوات خارج البيت .. ودعوات العمل الاجتماعية التى تقيمها سهام .. ولكن أنا أيضا محروم من التباهى بك أمام الناس .. إنى كلما كنت مع سهام بين الناس أتمنى أن تكونى أنت التى

معى .. وأكثر من ذلك .. إنى عندما تجمعنى بسهام غرفة النوم أغمض عينى وأتمنى أن تكون لى ليال معك كهذه الليالى ..

ونظرت إليه طويلا وهى تبتسم فى هناء .. إنها تصدقه .. إنها لا تشك فى حبه لها .. ولكنها عادت وسحبت ابتسامتها وقالت وهى تخفى عنه عينيها :

— لا تنس ابنى شريف .. لقد كنت أنساه كلما سافرت معك .. ولكنى بدأت أحس كلما سافرت أنى أضحى به .. أنى أحرمه من أمه .. من أمومتى .. بل إنى بدأت أغار عليه من أختى اعتماد .. قد يحبها أكثر مما يحب أمه .. إنها لا تتركه أبدا ويجدها كلما ضاعت منه أمه ..

وسهم مجدى برهة ثم قال :

— اسمعى يا عدلية .. هناك فكرة طرأت على منذ مدة ولا تزال تلح على .. إنك تعلمين أن أعمالى اتسعت وأصبحت مضطرا أن أسافر إلى الخارج كل شهر وأحيانا كل أسبوع .. فلماذا لا تتركين مصر كلها وتقيمى فى سويسرا .. إنك هناك تتحررين من كل ما يقيدك هنا .. هناك لا تخشى أبدا أن نعيش كزوج وزوجته .. وسأكون لك كلى .. سآتى إليك كل شهر لأقضى أسبوعا أو عشرة أيام .. بل إنى أستطيع أن أقضى الشهر كله .. وطبعا سيكون شريف معك .. إننا نستطيع هناك أن نعد له مستقبلا أقوى وأوسع ليكون شخصية عالية ..

واتسعت عيناها وقد غمرتهما الدهشة من مفاجأة الفكرة .. تهاجر لتعيش فى سويسرا .. تترك بيتها وتترك أهلها وتترك مصر كلها .. لماذا .. إنها هناك ستكون حرة .. لن تقيد نفسها بمجتمع تخشاه .. وستكون بعيدة عن سهام .. ستكون سهام فى بلد وهى فى بلد آخر وكل

منهما تملك البلد الذى تعيش فيه .. تملكه وحدها .. وستكون لها فى البلد الذى تملكه كل حريتها الزوجية الكاملة ولن تكون أبدا العشيقة الشرعية .. وزوجها سيكون لها كله .. إنها هناك ستنتظره أيضا ولكن انتظاره إلى أن يعود من بلد آخر أرحم من انتظاره إلى أن يعود من بيت آخر ..

وطال النقاش بينهما إلى أن وجدت نفسها مقتنعة .. ستهاجر وتقيم فى سويسرا .. وقال مجدى سعيدا :

ــ سيكون لى بلدان .. مصر بلدى لأنى ولدت فيها وسويسرا بلدى لأن فيها حبيبتى .. وزوجتى ..

وقالت عدلية ضاحكة :

ــ أخشى أن يأتى يوم تتعود فيه على هذه الحياة حتى تصبح كالبحارة لك فى كل ميناء زوجة ..

وقال وهو يقبلها :

ــ ليس لقلبى فى العالم كله إلا ميناء واحد يرسو عليه كلما عاد من سفره .. أنت مينائى الوحيد الذى أستريح فيه وأستعيد فيه حياتى .. وكل ما بعدك أمواج ..

وهامت فى قبلاته ..

وقد سافرت معه بعد أن كانت قد رفضت .. سافرت لتبحث عن البيت الذى ستقيم فيه عندما تهاجر .. وقد فضل مجدى أن يكون البيت فى مدينة لوزان لا فى جنيف .. إن جنيف مزدحمة بالمصريين بل إن بها مركز المخابرات المصرية الخارجية أما لوزان فلا يقيم فيها أحد من المصريين .. إنه حتى فى سويسرا يحاول أن يختبىء بها .. لا يهم .. إنها إذا

أرادت جنيف فليس بينها وبين لوزان سوى ساعة بالسيارة .. وقد اختارت شقة مفروشة فى عمارة بضواحى المدينة تطل على جبل تغطيه الثلوج .. وقضيا الليلة فى الشقة الجديدة إنها المرة الأولى التى تقضى معه الليل فى بيت .. بيتهما .. لا فى فندق ..

وعادا بعد يومين إلى القاهرة ..

وبدأت تعد للهجرة ..

وتلقى أهلها خبر نيتها على الهجرة بإشفاق .. كل ما خطر لهم أنها تريد أن تكون بعيدة عن الزوجة الأخرى .. مسكينة .. إنها لم تستطع أن تجد هناءها بزوجها هنا فخرجت معه تبحث عن الهناء فى بلد آخر .. ولكن أختها اعتماد ثارت .. وصرخت .. إنها ستكون هناك أشد إحساسا بالوحدة والضياع .. إنها هناك ستعيش غريبة لا تهم أحدا ولا يراها أحد .. إنها هنا على الأقل تعيش بين أهلها .. إنها هنا على الأقل تجد من يخفف عنها وحدتها ومن ينقذها من الجنون كلما كانت على وشك أن تجن .. ثم .. لماذا لا يأخذ زوجته الأخرى هى وأولادها ليقيموا فى سويسرا ويخلى مصر لها لتقيم فيها وحدها .. إنه دائما يحسب حساب الأخرى ولا يحسب حسابها .. دائما يخاف الأخرى ويعمل على مراضاتها ولا يخافها هى ولا يراعيها .. ثم إنه أنانى .. إن كل ما طرأ عليه هو أنه أصبح فى حاجة لأن يكون له بيت فى سويسرا .. وهو فى حاجة لمن يدبر ويشرف على هذا البيت .. وبدلا من أن يبحث عن خادمة تخدمه هناك قرر أن يعتمد على زوجته الثانية .. عليها .. ويأخذها لتعيش هناك لتعد له البيت وترعاه بدلا من الخادمة ..

وقالت اعتماد فى ثورتها كلاما كثيرا ..

ولكن عدلية كانت قد اقتنعت بالهجرة وصمتت ..

وبعد أيام سافرت مع زوجها وابنها شريف إلى سويسرا ..

وفرح ابنها شريف وهو فى الطائرة .. وفرح وهو يشاهد الجبال والوديان والثلوج والأبقار السمينة التى ترعى فوق السفوح أمام عينيه .. وعدلية سعيدة بفرحته .. بل خيل إليها أن فرحته تدفعه لأن يحب زوجها مجدى أكثر .. كأنه بدأ يعترف بأن مجدى هو فعلا « بابا » فيترك أمه له كلما أرادها دون أن يضايقهما ودون أن يسلط عليهما غيرته كما تعود ..

ومكث مجدى معهما يومين ثم سافر عائدا إلى مصر .. وأحست عدلية بقبضة فى صدرها وهى تودعه .. إنه نفس الإحساس الذى كان يراودها عندما تودعه فى أوائل الليل وهو يترك بيتها ليذهب إلى بيت الزوجة الأخرى .. ولكنها طردت هذا الإحساس بسرعة وشغلت نفسها عنه بالتفكير فى بناء حياتها الجديدة .. وفجأة داهمتها حيرة لم تكن تحسب حسابها .. كيف تبنى حياتها الجديدة .. إن الحياة ليست مجرد الاطمئنان إلى أنها ستعيش تأكل وتشرب وتتحرك فى أمان .. إن عندها من الأحوال ما يطمئنها .. ولكن الحياة هى أن تسعى إلى هدف .. ربما كان الهدف الأول هو إعداد مستقبل ابنها شريف .. إنه الآن فى العاشرة من عمره وكان فى المدرسة الإعدادية بمصر .. ولكنه يجب أن يبدأ الدراسة من جديد .. إنه يبدأ حياة كل ما فيها جديد حتى لغته التى يتكلم بها .. لن تكون اللغة العربية .. يجب أن يتكلم الفرنسية والإنجليزية .. يجب أن يبدأ كأنه ولد من جديد .. وشغلت نفسها بالبحث عن المدرسة التى تلحقه بها .. إنه يبدأ من الصفر لأنه لا يجيد أى لغة غير العربية .. وأصبحت تأخذه كل صباح إلى المدرسة وتعود به فى الظهر

وتجلس معه تراجع له ما عاد به من المدرسة .. ولكن لا يزال أمامها فراغ واسع .. وكانت تنزل إلى الشوارع وتشترى .. إنها تحس بأنها تفتعل الشراء .. إنها فقط تتسلى وتشغل نفسها .. وبدأت تحس بالضيق كلما هل المساء .. إن ابنها ينام وتبقى هى وحيدة أمام التليفزيون .. إن التليفزيون هنا يقدم برامج لا شك أنها أرقى وأمتع من تليفزيون مصر .. ولكن برامج التليفزيون تنتهى فى الساعة العاشرة .. لعل كل الناس فى سويسرا ينامون فى العاشرة أو قبل العاشرة .. إنهم يعملون طول النهار وينامون الليل من أوله .. لعلها فى حاجة إلى أصدقاء أو على الأقل معارف لتقطع الوقت معهم ويملئوا فراغها .. ولكن كل من تعرفهم هم من الأجانب أصدقاء مجدى .. وهم أصدقاء عمل .. وليس بينهم إلا مراعاة الواجبات التى يتطلبها العمل .. ولن تستطيع أن تجد واحدا منهم إلا ومجدى معها .. هل تستطيع أن تجمع حولها أصدقاء خصوصيين .. إنها ستقيم العمر كله فى سويسرا فى حاجة إلى أصدقاء لها لا لزوجها .. تقصد صديقات .. وفتحت باب الشقة يوما ووجدت أمامها سيدة تقيم فى الشقة المجاورة .. لقد كانت تراها من بعيد ولم يتبادلا حتى مجرد السلام ولكنها فى هذه المرة تقدمت إليها وعرفتها بنفسها وحاولت أن تدخل معها فى حديث طويل .. ولكن السيدة متعجلة وهى تنظر إليها نظرة طبيعية ولكنها نظرة كأنها تسألها بها ماذا تريد منها .. وتجرأت عدلية ودعتها إلى تناول الشاى عندها .. وقبلت السيدة الدعوة وهى لا تزال تنظر إليها كأنها تسألها ماذا تريد منها .. وحددت يوم الأحد فى الساعة الرابعة لتناول الشاى .. إنهم لا يجدون وقتا فارغا لقبول دعوة إلا يوم الأحد .. وجاءتها السيدة ومعها زوجها رغم أنها لم تكن قد دعت

هذا الزوج .. وجلسا معها يتبادلون حديثا مفتعلا فاترا تافها والزوج والزوجة فى انتظار أن يفهما ماذا تريد منهما .. حتى قال الزوج وكأنه ضاق بهذه الجلسة :

ــ أى خدمة نستطيع أن نقدمها لك ؟!

وقالت عدلية وقد خاب أملها :

ــ شكرا .. إنى لست فى حاجة إلى أى خدمة .. ولكننا نتعارف بحكم الجيرة ونكون أصدقاء ..

وقام الزوجان ويبدو عليهما أنهما لم يفهما ما تقصده عدلية .. وانصرفا ولم يحاولا بعدها أن يردا الدعوة بل كانت السيدة كلما قابلتها حيتها تحية سريعة وابتعدت .. ولم يكن يبدو عليها أن تفتعل هذا البرود فى لقائها ولكن يبدو وكأن هذه هى طبيعتها .. واكتشفت عدلية فيما بعد أن هذه هى طبيعة كل الشعب فى سويسرا .. إنه شعب منعزل .. يعيش الفردية .. لا يجمع فرد بآخر إلا العمل .. وهو شعب بخيل .. إنه مشهور بالبخل .. حتى إن جارتها لم ترد دعوتها إلى الشاى مادام العمل لا يتطلب منها أن ترد الدعوة ..

حتى ابنها شريف لم يستطع أن يجد أصدقاء يلعب معهم فى المدرسة وخارج المدرسة ويتردد عليهم فى بيوتهم .. ويترددون عليه فى بيته .. إن أهل سويسرا هكذا منذ أن يولدوا .. انعزاليون بخلاء .. والصديق الوحيد الذى وجده شريف لم يكن من أهالى سويسرا وإنما كان ابن عائلة إنجليزية تقيم فى لوزان .. وهى صداقة لا تملأ فراغه إنما يعتمد على أمه وحدها فى أن تملأ له فراغه بجلستها وأحاديثها معه والرحلات التى تصحبه فيها لتريه جمال سويسرا وأبقارها التى تدق الأجراس المعلقة حول

أعناقها وهى ترعى ..

وأصبحت عدلية كلما ضاق بها الفراغ حادثت أختها اعتماد فى مصر بالتليفون .. والحادثة تطول وتدفع كثيرا أجرا لها .. لا يهم .. إنها فى حاجة إلى التحدث مع أختها حتى تخفف من الفراغ الذى تعانيه .. وهى تلح عليها أن تأتى لزيارتها ولكن اعتماد ترفض لا غضبا منها ولكنها لا تستطيع أن تترك أولادها والأولاد فى المدرسة .. ربما استطاعت فى موسم الأجازات ..

وجاءها مجدى بعد خمسة عشر يوما .. وقد تعودت بعد ذلك أن تعيش وهى لا تعرف متى ترى زوجها .. أحيانا يأتى بعد أسبوع .. وأحيانا بعد أسبوعين .. وأحيانا بعد شهر .. ولكنه دائما وهو بعيد عنها يحدثها بالتليفون .. أحيانا كل يوم .. وأحيانا كل يومين .. وأحيانا كل أسبوع .. وعندما يأتى إليها قد يبقى معها يومين .. أو قد يبقى أسبوعا .. وفى مرة بقى عشرة أيام .. إنه لم يستطع أبدا أن يبقى معها شهرا أو شهرين .. لم يستطع أن يمنح نفسه أجازة من زوجته وأولاده ليعطيها حقها فيه .. وحجته دائما معه .. وهى تستسلم لكل حججه .. وعندما يكون معها تحس أنها استكملت كل ذاتها .. وتخرج معه ومعهما ابنها شريف .. وكل نهارها وليلها مشغولة بين الدعوات والخروج فى رحلات إلى كل أنحاء سويسرا .. وبمجرد أن يتركها تعود إلى الفراغ .. وقد فكرت .. لماذا لا تتولى أعمال زوجها عندما يتركها .. تكون وكيلة عنه .. تلتقى برجال الأعمال وتؤدى الاتصالات .. ولكن مجدى يرفض .. إن كل أعماله تعتمد على اتصالاته الشخصية .. ليس فى حاجة إلى وكيل عنه .. وتتعجب .. إنه يعلم أن لها ماضيا فى إدارة الأعمال

ولا شك أنها تستطيع أن تعاونه وتؤدى له خدمات لا يحلم بها .. ولكنه لا يريد .. ربما لأنها زوجته .. زوجته الثانية .. وهو لا يريد أن يشتهر بزوجته الثانية .. حتى لا تصل أخبارها إلى زوجته الأولى ..

وبدأت فى غياب زوجها تذهب بابنها إلى المدرسة وتعود إلى البيت لتعد ما يحتاج إليه البيت ثم تخرج وتطوف فى الشوارع برهة ، ثم تجلس فى أحد المقاهى إلى أن يحين موعد خروج شريف من المدرسة .. ووجدت نفسها وهى جالسة فى المقهى تشرب مشروب الجين .. ووجدت نفسها يوما بعد يوم تكثر من شرب الجين .. إنها تشرب الخمر .. تسكر .. وستكون سكيرة .. وقررت أن تقاوم الخمر وفكرت فى أن تلتحق بنفس المدرسة التى التحق بها ابنها لتتعلم اللغة الفرنسية .. إنها تجيد اللغة الإنجليزية .. ولكنها فى سويسرا تحتاج إلى الفرنسية أكثر من الإنجليزية .. والتحقت فعلا بالمدرسة .. ولكنها تقضى فيها وقتا أقل مما يقضيه ابنها لأنها تتعلم اللغة فقط .. وتخرج لتنتظر ابنها فتجلس على المقعد وتشرب مشروب الجين .. كأسا واحدة .. وتقاوم الكأس الثانية .. ثم وجدت نفسها بعد أن تعود مع ابنها إلى البيت تعود إلى الكأس .. لقد بدأت تشرب أيضا بعد أن ينام ابنها فى المساء .. لماذا تتمسك بهذا المشروب .. لماذا لا تجرب مشروبا آخر .. تجرب الويسكى .. إنها لم تشرب أبدا الويسكى .. كان طعمه يقززها كلما ذاقته .. ولكن لتجرب ربما كان الويسكى له طعم آخر فى سويسرا ويتفق مع الجو البارد فيحمى معدة شاربه ..

وبدأت تشرب الويسكى وهى وحيدة فى الليل .. إنها تسكر .. وبدأت تراجع كل حياتها وهى سكرانة .. لماذا استسلمت وقبلت

الهجرة إلى هذا البلد .. لقد قبلت لأنها تحب مجدى .. ولكن .. هل يحبها مجدى قدر حبها له .. ربما كان كما قالت أختها مجرد رجل أنانى .. جاء بها لتشرف على البيت الذى يريده لنفسه بحكم عمله .. كيف ضحت بكل حياتها وبمستقبل ابنها لمجرد أن تمضى ليالى مع زوجها .. ولكنه ليس مستقبل ابنها وحده الذى ضحت به فقد ضحت من قبل بمستقبلها هى .. ضحت منذ تزوجت مجدى .. ضحت بكيانها كله .. لقد كانت تعمل وكانت سعيدة بعملها وكانت واثقة أنها تستطيع أن تعيش هى وابنها معتمدة على نفسها .. حتى إذا كانت تريد الزواج فقد كانت تستطيع أن تنتظر إلى أن تجد زوجا خالصا لها وحدها وتكون له زوجته الوحيدة .. حتى ولو أنها تزوجت مجدى تحت تهديد المسدس الذى رفعه أخوها حسام فى وجهها فقد كانت تستطيع أن تترافع عن هذا الزواج وتتخلص منه بعد أيام .. ولكنها تزوجت وعاشت زوجة لمجدى لأنها تحبه .. حتى ولو كانت تحبه .. لقد أحبته منذ رأته وعاشت وحبها فى صدرها سنوات طويلة وهى متزوجة من مدحت .. لقد كانت سعيدة بهذا الحب .. سعيدة بحبها لمجدى وباخلاصها لزوجها .. حب متعال نظيف برىء كان يجعلها تتباهى بنفسها وتتباهى بقوة شخصيتها .. لقد كانت أحلى أيامها أيام كانت متزوجة رجلا غير الرجل الذى تحبه .. غير مجدى..

وأفكارها تنهشها ..

وكانت قد مضت أكثر من عشرة شهور وهى فى سويسرا ..

ووجدت نفسها يوما ومجدى ليس معها تجمع حقائبها وحقائب ابنها ثم تحجز فى الطائرة وتسافر إلى مصر دون أن تبلغ مجدى أو أحدا من عائلتها .. ودون حتى أن تبلغ المدرسة التى ألحقت بها ابنها ..

ووصلت إلى بيتها فى القاهرة وفاجأت الجميع من خلال التليفون بعودتها .. وجاءها مجدى مندفعا بعد أن حادثته فى التليفون ووقف أمامها تائها وقال بصوت مرتعش دون أن يقبلها ولا أن يقول لها الحمد لله على السلامة :

ــ ماذا حدث ..

وقالت وهى تنظر إليه كأنها تهم بالبكاء :

ــ لم أعد استطيع ..

قال مقاطعا :

ــ تقصدين أنك لا تستطيعين البقاء فى سويسرا ..

قالت وهى تواجهه بعينيها اللتين تهمان بالبكاء :

ــ لا .. لم أعد أستطيع حياتنا ..

قال فى دهشة مريرة :

ــ ماذا تقصدين ؟

قالت بصوتها الباكى :

ــ يجب أن نفترق .. إنى على وشك الجنون .. إنى أنهار ..

قال وهو يقترب منها ويحاول أن يحيطها بذراعه :

ــ كيف نفترق ؟!

قالت وهى تبتعد عنه :

ــ أريد أن أفيق من الوهم الذى نعيش فيه .. الوهم بأنى زوجتك ..

قال فى دهشة المفاجأة :

ــ تفكرين فى الطلاق ..

قالت بسرعة :

ــ سمه بما شئت .. ولكنه فراق ..

وصاح من خلال دهشته :

ــ ماذا جرى لحبنا ..

قالت وهى تبتسم ابتسامة مسكينة :

ــ الحب ليس فيه طلاق .. ولكنه الزواج ..

قال وهو يحاول أن يقترب منها :

ــ لقد تزوجنا لأننا نحب ..

وقالت وهى تعود وتبتعد :

ــ واكتشفنا أن الحب وحده لا يكفى للزواج ..

قال وهو يفتعل ضحكة كأنه يحاول أن يخفف عنها :

ــ لا شك أنك تعبة .. يخيل إلى أنك مريضة .. إنك حتى لم تقبلينى ..

قالت وهى تدير وجهها عنه :

ــ لا أستطيع يا مجدى .. أرجوك .. حاول أن تفهمنى وأن تعترف بالحالة التى نعيشها ..

قال فى وجوم :

ــ إنى لا أستطيع أن أفهمك .. ماذا تريدين .. سأتركك الآن حتى تهدئ وسأعود إليك فى المساء ..

قالت فى سخرية مرة :

ــ هل تستطيع أن تعطينى ليلة من ليالى القاهرة .. وماذا تقول لسهام ..

ونظر إليها طويلا دون أن يرد عليها .. ثم أدار ظهره وخرج .. وهى تنظر إليه كأنها تودعه ..

وألقت نفسها جالسة على المقعد .. وشدت ظهرها كأنها تؤكد لنفسها قوتها على نفسها .. إنها قوية إلى حد أنها لا تريد كأسا من الخمر ..

* * *

٩

ما كاد مجدى يخرج حتى جاءت بعده أختها اعتماد وهى أشد جزعا منه وقالت نفس السؤال وكأنها تصرخ :

ــ ماذا حدث ؟!

وقالت عدلية وهى تحتضن أختها وتقبلها فى لهفة :

ــ اشتقت إليكم ..

وابعدتها اعتماد عنها وقالت فى لهجة آمرة :

ــ تكلمى بصراحة .. ماذا جاء بك فجأة دون مقدمات ودون أن تخبرينا .. تكلمى .. أريد أن أطمئن ..

وقالت عدلية وهى تزفر أنفاسها كأنها تسترد راحتها بعد أن رأت أختها :

ــ لم أعد أطيق ..

وقالت اعتماد بسرعة :

ــ لقد قلت لك إنك لن تطيقى الحياة وحيدة فى بلد غريب ..

وقالت عدلية وكأنها ترثى نفسها :

ــ إنى لم أعد أطيق الحياة أينما كنت .. لا فى بلدنا ولا فى بلد غريب ..

ونظرت اعتماد إلى أختها فى دهشة وقالت :

ــ وماذا قررت ؟

قالت عدلية كأنها تحادث نفسها :

ـ قررت أن أبدأ حياتى من جديد ..

وقالت اعتماد فى جزع :

ـ ماذا تقصدين ؟

وقالت عدلية ساهمة :

ـ سأترك مجدى .. وأعيش حياتى أنا وابنى ..

ونظرت إليها اعتماد كأنها صعقت وطال صمتها كأنها لا تصدق ثم قالت فى غيظ :

ـ إنه رجل أنانى .. أراد أن يأخذ كل شىء ويستغلك دون أن يعطيك حقك .. و ..

وقاطعتها عدلية قائلة :

ـ لا .. إنه معذور ..

وصرخت اعتماد :

ـ معذور فى ماذا .. هل لأنه متزوج .. إنه إذا لم يكن قد طلق زوجته الأولى فقد كان يستطيع على الأقل أن يعدل بينكما .. أن يكون لك بقدر ما هو لها ..

وقالت عدلية وهى ترفع عينيها كأنها تحلم بمجدى :

ـ إنه رجل كامل .. لا يمكن أن يطلق زوجته لأنها لم تخطىء فى حقه ولا يمكن أن يذبحها ويضحى بها فى سبيل إرضاء عواطفه .. وأنا أيضا كان لا يمكن أن أخرب بيتنا لمجرد إشباع أحلامى بل لم يكن لى الحق أن أطالبه بأن يعدل بيننا لأننى أنا الجانية وهى المجنى عليها :

وصرخت اعتماد فى غيظ .

ـ ألم تقدرى كل ذلك قبل الزواج ..

وقالت عدلية وهى تبتسم ابتسامة حسرة :

ـ لم نكن نفكر فى الزواج .. لا أنا ولا هو .. ولكننا استسلمنا للزواج رغما عنا .. تحت تهديد أخى حسام ومراعاة لكم ..

وقالت أختها فى سخط :

ـ مادمتما استسلمتما للزواج فكان يجب أن تستسلما لكل مطالب الزواج الكامل المحترم مهما كانت أعذاره وأعذارك ..

وقالت عدلية من خلال ابتسامة الحسرة :

ـ لقد كنا نعتمد على الحب .. ولكنى وجدت أن الحب وحده لا يكفى للزواج ..

وقالت اعتماد فى قرف :

ـ إن مصيبتك أنك استسلمت لهذا الحب منذ البداية .. وأنت تذكرين أنى نصحتك منذ اليوم الأول للقائكما أن تبتعدى عنه .. أن تحمى نفسك منه ومن نفسك .. ولكنك لم تسمعى كلامى ..

وقالت عدلية وهى تتنهد كأنها تزفر عذابها :

ـ لقد كنت أحاول أن احتفظ بحبى سجينا فى حدود الصداقة .. واستطعت فعلا أن أعيش معه كأصدقاء طوال مدة زواجى بمدحت .. ضننا كل منا على الآخر حتى بكلمة حب و لم يكن الحب يعبر عن نفسه إلا من خلال عينى وعينيه .. ولكن .. بعد أن تركنى مدحت ومات لم يستطع الحب أن يبقى سجينا وانطلق إلى آخر مداه .. لم نعد نستطيع أن نكتفى بالصداقة ..

وقالت اعتماد كأنها تؤنب أختها :

ــ كان يجب أن تعرفى منذ البداية أن الحب معناه الزواج ..

وقالت عدلية فى حسرة :

ــ لا .. إن الحب أحياناً يتحرر من الزواج .. يصبح أقوى من كل ما يفرضه عليه الناس .. يعصف كالزوبعة .. يعصف حتى بأصحابه .. (واتسعت ابتسامتها قائلة) .. كما عصف بروميو وجوليت ..

وقالت اعتماد ساخرة :

ــ وقد هدأت الآن زوبعة الحب ..

وقالت عدلية وهى ساهمة :

ــ لا .. لم تهدأ .. ولكنى بدأت أخاف على الحب من الزواج .. إن الزواج قد ينتصر على الحب ويقضى عليه .. لذلك قررت أن أبتعد عن زوجى مجدى لأحتفظ بحبيبى مجدى ..

وقالت اعتماد فى دهشة :

ــ إنك لازلت تحبينه ..

وقالت عدلية وهى ترخى عينيها :

ــ مازلت أحبه ..

وقالت اعتماد من خلال دهشتها :

ــ وتطلبين الطلاق ..

وقالت عدلية كأنها تبكى :

ــ وأطلب الطلاق ..

وقالت اعتماد وهى تبحلق فى أختها :

ــ وماذا بعد الطلاق ؟

وقالت عدلية :

ــ لست أدرى .. إن كل ما أدريه هو أنى لم أعد أحتمل هذا الزواج ..

وقالت اعتماد :

ــ هل صارحتيه وقلت له ..

وقالت عدلية متنهدة :

ــ قلت .. وفوجىء .. وطلب منى أن أعيد التفكير حتى يعود إلى ..

وقالت اعتماد كأنها تسخر منها :

ــ أخشى أن تعدلى عن أفكارك متى عاد إليك ورأيته بين عينيك .. قبلة أو قبلتين وتبقين كما أنت ..

وصاحت عدلية فى حدة :

ــ لا .. إنى مصممة على ما انتهيت إليه .. وحتى أحمى نفسى من ضعفى فسأذهب معك وأقيم عندك .. وأعتمد عليك فى احتفاظى بإصرارى ..

وفرحت اعتماد وساعدت أختها فى حمل حقائبها التى لم تكن قد فتحتها منذ عادت من سويسرا وصحبا شريف وذهبا إلى بيتها ..

وقالت اعتماد وهما فى الطريق :

ــ لا أدرى ما يقوله الناس عندما يتم الطلاق ..

وقالت عدلية ساخرة :

ــ سيقولون أقل وأرحم مما قالوه عندما تم الزواج ..

ووصلوا إلى البيت .. وبكت عدلية فى أحضان أمها دون أن تقول شيئا .. وقبل أن تبدأ فى فتح حقائبها رفعت سماعة التليفون واتصلت

بمجدى وقالت له إنها انتقلت إلى بيت أختها وستقيم عندها ويستطيع أن يأتى إليها هناك ..

وصمت مجدى برهة بعد أن سمعها وقال :

ـــ سأترك لك وقتا أطول للتفكير .. لن أمر عليك هذه الليلة .. سأراك غدا ..

ووضعت سماعة التليفون وهى تبتسم ابتسامة مسكينة .. لعله لم يستطع أن يغيب عن زوجته سهام هذه الليلة .

• • •

واستقبلت العائلة كلها خبر مطالبة عدلية بالطلاق فى صمت تتناثر حوله كلمات جوفاء .. لم يحاول أحد أن يقنعها بالعدول عن رأيها ولا حتى لم يحاول أحد أن يتمادى فى سؤالها عما جد عليها حتى تطلب الطلاق .. كأنهم كلهم موافقون على الطلاق وكانوا ينتظرونه ويعرفون أسبابه .. كأن كلهم كانوا يتعذبون لأن ابنتهم هى الزوجة الثانية .. نصف زوجة .. وقالت لها أمها كأنها قررت ألا تتدخل فى هذا الموضوع :

ـــ تصرفى بما ترتاحين إليه يا ابنتى .. المهم راحتك وراحة ابنك شريف ..

حتى أخوها حسام قال وأمه تبلغه الأخبار بالتليفون كعادتها مع كل أبنائها :

ـــ كنت أنتظر أن تطلب الطلاق فى نفس اليوم الذى تزوجت فيه .. إنى متأكد أن كلاً منهما كان يفكر فى الطلاق فى نفس اليوم الأول وطال تفكيرها أربع سنوات .. وأنا نفسى كنت أحيانا أفكر فى نصحها بالطلاق حتى أعفيها من الزواج الذى فرضته عليها ..

أعفيها من الزواج الذى فرضته عليها ..

ولم تكن عدلية سعيدة بهذا الاستسلام الذى قابلها به أهلها .. كانت تتمنى لو أن أحدا منهم فكر لها فى طريق آخر غير الطلاق .. إن الطلاق ليس سهلا .. إنه خدش فى جسم الحياة يبقى طول العمر .. ثم إنها تطلب الطلاق من حبيبها .. لا أحد من عائلتها يعترف أو يحس بأنها تحب مجدى .. ولا أحد يحاول أن يعينها على هذا الحب ويفكر معها فى كيف تعيش حبها أو كيف تبرأ منه .. وهى نفسها لا تدرى كيف يمكن أن تعيش بعد أن تترك زوجها هل تستطيع أيضا أن تترك حبها .. لعلها تستطيع فقد جنى الزواج على الحب حتى دفعها إلى أن تصبح امرأة تائهة .. امرأة تعيش فى بئر أجوف .. بل جعل منها امرأة سكيرة ..

ولعل أختها اعتماد حاولت وهى جالسة معها فى الليل أن تخفف عنها معاناة القرار الذى اتخذته .. وقالت لها كأنها وجدت الحل :

ـــ لو كنت قد أنجبت منه لما فكرت فى الطلاق .. وكان مولودك سيملأ كل فراغك مهما غاب عنك مجدى .. ما رأيك لو عدلت عن الطلاق وعدت إلى الحياة معه على أن يكون أبا لابن منك .. إنه الآن مجرد زوج ولذلك لم تعودى تتحملينه ولكنه بعد أن يصبح أبا سيكون إنسانا آخر .. وسيكون لشريف أخ يملأ عليه حياته هو الآخر ..

وقالت عدلية وهى تتنهد فى يأس :

ـــ لم يكن مجدى يريد ولا أنا أريد .. وقد كنت أستطيع أن أنجب حتى لو لم يكن يريد .. أجعل منه أبا لابن منى حتى يتأكد ارتباطه بى .. حتى أحتفظ به كما هى عادة كل الزوجات .. ولكنى كنت أشفق على الابن الذى أنجبه منه .. إنه سيكون مثلى .. كما أنى الزوجة الثانية بعد

الزوجة الأولى .. فسيكون ابنى بالنسبة لأبيه أبنا درجة ثانية بعد الأبناء الدرجة الأولى الذين أنجبهم من زوجته الأولى .. وكما أن مجدى كان يعيش معى كأنى عشيقة شرعية بعد أن استسلم للزواج .. فلذلك سيعيش مع ابنه كأنه لقيط شرعى بعد أن يستسلم لإنجابه والاعتراف به .. وهو لن يكون أبدا أخا كاملا لشريف .. إن عناصر الحياة التى ستحيط به تختلف عن عناصر الحياة التى تحيط بشريف .. لذلك اقتنعت بألا أنجب من مجدى ولازلت مصممة على ألا يكون أبا لابن منى حتى لو عدلت عن فكرة الطلاق ..

وانقضى الليل وعدلية تتمرغ فى معاناتها النفسية ولكنها لم تجد نفسها أبدا فى حاجة إلى شرب الخمر كما تعودت فى الشهور الأخيرة .. معنى هذا أنها أصبحت قوية .. استردت كل شخصيتها وكل قوتها كامرأة واثقة من ذكائها ..

وجاء مجدى فى الصباح ..

دخل وملامح اليأس تكسو وجهه .. إن مجرد لقائه مع زوجته فى بيت غريب .. بيت أختها .. يدفعه إلى حافة اليأس ..

وتركهما أهل البيت وحدهما كأن الموضوع لا يخصهم .. وقال مجدى من خلال يأسه :

— لنحدد الأساس لكل كلامنا .. والأساس هو أنى لا أستطيع أن أستغنى عنك .. إنى أحبك .. ولست فى حاجة لأن أثبت لك حبى .. وحاجتى إلى هذا الحب لم تفتر أبدا .. لعلها تشتد .. إنى فى حاجة إليك دائما .

وقالت وكأنها تردد كل ما فى عقلها :

— إنى واثقة أنك فى حاجة إلى الحب .. حبنا .. ولكنك لست فى حاجة إلى الزواج .. لست فى حاجة إلىّ كزوجة ..

قال كأنه يتوسل :

— لقد تزوجنا لأن الحب فرض علينا الزواج ..

وقالت وهى تحس بقوتها فى مواجهته :

— قلت لك إنه ثبت لنا أن الحب وحده لا يكفى للزواج ..

وقال كأنه يلومها :

— ماذا كنت تريدين من الزواج ؟!

وقالت وكأنها تشكو :

— كنت أريد أن أكون زوجة كاملة .. كنت أريدك كلك .. إن الحب قد يعيش مكتفيا بنظرة ولكن الزواج لا يكتفى إلا بكلك وكلى ..

وسكت مجدى برهة كأنه يعترف بأنه عاجز عن أن يحقق ما تقصده .. عاجز عن أن يكون لها كلها .. ثم قال :

— وماذا لو افترقنا كزوجين .. هل يضيع كل ما بيننا .. هل يضيع كل ما عشنا فيه ..

وصاحت عدلية كأنها تنقذ نفسها من الغرق :

— لا .. لا يمكن .. لقد كان زواجنا ليس طبيعيا كبقية الزيجات وكذلك سيكون طلاقنا .. لن نفترق .. ولن يقاطع أحدنا الآخر .. إنى لست غاضبة وأتمنى أن لا تكون أنت غاضبا .. ولكنى أبحث عن راحتى وأنت تريد لى الراحة ..

وقال مبتسما كأنه استرد الأمل :

— لقد كانت أجمل وأسعد أيامنا أيام الحب قبل أن نتزوج ..

قالت وبين شفتيها ابتسامة ساهمة :

ـــ كانت جميلة .. وكانت هناك أيام أجمل من أيام الحب .. آسفة .. إن أيامنا منذ التقينا كانت أيام حب .. ولكن مرت أيام لم يكن الحب فيها يكلفنا مشقة أو تعب ..

وقال دهشا :

ـــ أى أيام ؟

وقالت من خلال ابتسامتهاالساهمة :

ـــ أيام الصداقة .. عندما كنا نضع الحب فى إطار الصداقة .. كنا نضحك على أنفسنا .. كنت أحبك وتحبنى ولكننا كنا ندعى أننا أصدقاء .. ونعيش كمجرد أصدقاء ..

وابتسم كأنه يسخر من الآمال التى تراوده وقال :

ـــ إن حاجتى إليك لا يمكن أن تتحقق إلا فى حدود حاجتك إلى .. وأنت تعرفين مدى حاجتى إليك وسأنتظر إلى أن أعرف مدى حاجتك إلى .. ولكن .. لو انفصلنا فكيف ستقضين أيامك .. كيف تعيشين ..

وقالت وهى تتنهد :

ـــ لا أدرى .. ولكنى قررت أن أعود إلى العمل .. سأعود للإشراف على مكتب المحاسبة وأرجو أن تساعدنى .

وقال وهو يقوم منصرفا :

ـــ إن المكتب لا يزال مكتبك .. وطبعا سأساعدك فى كل ما تحتاجين إليه .. ولكن .. ماذا سيكون موقف أخيك حسام ..

قالت وقد امتلأ وجهها بملامح العناء :

ـــ لن يكون له موقف.لقد أراد أن يسترد شرفه كما كان يقول وقد استرده بزواجنا .. ولم يعد فى حياتنا ما يمكن أن يثيره حتى ولا الطلاق ..

وقال وهو واقع فى الحيرة :

ـــ هل عرف أنك تطلبين الطلاق .. وماذا قال ؟

وقالت كأنها تستهين بأخيها :

ـــ لم يقل شيئا .. لم يعترف .. ربما لأنه يعلم أنى أنا التى أطلب هذا الطلاق .. حتى لو كنت أنت الذى يريد الطلاق فلا أعتقد أنه كان يمكن أن يعترض .. إنه يحمل نفسه مسئولية زواجنا ولم يكن سعيدا بهذه المسئولية .. ربما لأنه اكتشف أنه جنى علىّ وعليك وكان يعانى ندم الجانى ..

قال وهو ساهم كأنه يفكر فى مستقبله :

ـــ أخشى أن يعود ويسلط علينا أجهزة المخابرات ..

وقالت وكأنها تلومه على خوفه وتردده :

ـــ إننا الآن لا نعرف بعد ماذا سيكون بيننا حتى نفكر منذ الآن فى أجهزة المخابرات ..

قال وجفونه ترتجف فوق عينيه :

ـــ إننا على الأقل نريد أن نكون أصدقاء وأساعدك فى عملك .. والمخابرات لا تعترف بالصداقة ولا تحترم أى عمل ..

وقالت وهى تبتسم كأنها تخفف عنه :

ـــ لو حدث ما يمكن أن يهم المخابرات نعود زوجين حتى نتقى شرها ..

وقال وهو يشد ظهره ويتمتم ابتسامة مفتعلة كأنه يطرد عن نفسه الحيرة :

ـــ اطمئنى .. إنى لا يمكن أن أعيش فى خوف من أى مخلوق حتى ولو عشت معك ..

ومد يده إليها دون أن يقترب ليقبلها وعاد يكرر كلمته :

ــ سأراك ..

وجاءها فى اليوم التالى وقال وهو يمد لها يده بورقة :

ــ لقد فضلت أن أحمل لك الورقة بنفسى .. ورقة الطلاق .. وأتمنى أن ترديها إلى بنفسك لتمزقها سويا ..

وسكتت وعلى وجهها وجوم وعيناها تلمعان بدموع لا تنهمر .. وعاد يقول :

ــ لقد أبلغتهم فى مكتب المحاسبة أنك ستتولين الإشراف على كل شىء بنفسك ..

وقالت ساهمة :

ــ سأحاول ..

وتحدثا برهة فى شئون العمل بالمكتب ثم قام منصرفا دون أن يرى أحدا من أهلها ودون أن يقول إلا كلمته :

ــ سأراك ..

وأحست بعد أن ذهب كأن الدنيا كلها ذهبت .. كأن الناس كلهم ذهبوا .. وبدأت تحس بوحدة لم تكن تحسب حسابها .. وفراغ أقسى .. لقد كان انتظارها لمجدى يملأ كل فراغها .. وحتى فراشها أصبح فارغا وأكثر اتساعا .. تحس بوحدتها أكثر وهى فى فراشها .. لم يكن مجدى يملأ هذا الفراش بالليل ولكن الفراش كان ينبض بذكريات لقائه فى النهار .. إنها لا تستطيع أن تنسى أربع سنوات كاملة عاشتها مع مجدى .. لقد كانت تعيش معه حتى وهو غائب .. تعيش معه حتى وهو مع الزوجة الأخرى .. وأحست كأنها ستفقد قوتها التى استردتها .. بل أحست كأن كئوس الخمر عادت تلح عليها وهى تقاومها ..

وقد بقيت هى وابنها فى بيت أختها .. إنها تخاف أن تعود إلى بيتها فتضعف مقاومتها ..

ومجدى يتصل بها كل يوم بالتليفون .. ويفتعل حديثا عن شئون المكتب .. ولكن هى وهو يحسان أن هناك حديثا آخر يحرمان منه نفسيهما .. وكانت تحدد له موعدا للذهاب إلى المكتب ثم تعود وتلغيه وهى تفتعل أى حجة .. ولكنها تعلم أنها لم تصل بعد إلى الحالة التى تستطيع معها أن تبدأ العمل .. إلى أن اتصلت به بالتليفون وقالت وفى عينيها بريق التصميم :

ــ مجدى .. سأؤجل بداية العمل فى المكتب إلى أجل .. سأسافر لزيارة أخى كريم ..

وقال مجدى فى دهشة :

ــ أخوك الذى يقيم فى أمريكا ..

وقالت عدلية بسرعة :

ــ نعم .. إنى فى حاجة إلى لقائه ..

وقال من خلال دهشته :

ــ هل تسافرين وحدك ؟!

قالت فى حزم :

ــ نعم .. سأترك شريف هنا مع أختى ..

قال من خلال ابتسامة يائسة :

ــ وستتركينني ..

قالت وقد خفت حدتها :

ــ سأعود إليك بعد أيام .. وأراك ..

* * *

١٠

لم تكن عدلية فى حاجة إلى سماع رأى أخيها الأكبر كريم حتى تسافر إليه فهى تكاد تعرف رأيه مقدما .. وهى تذكر عندما أرسلت إليه أمها خطابا تروى له فيه كل تفاصيل زواجها من مجدى وتقول له بصراحة إنها تزوجت تحت تهديد أخيه حسام .. كانت أمها تتعمد أن تبلغه بكل تفاصيل حياة العائلة كأنها كانت مصممة على أن يعيش معهم حتى لو هاجر إلى أمريكا .. وتذكر أن كريم رد على خطاب أمها وكتب لها .. « ليس هذا من حق أخى حسام .. وإذا كان يعتبر نفسه ضابطا عسكريا فى الجيش فيجب أن يعرف أن ليس من حقه أن يكون ضابطا عسكريا فى العائلة .. وقد أطلعت أمها ابنها حسام على رأى أخيه فيه .. ولكن حسام لم يهتم .. إنه منذ ولد وهو يعيش فى دنيا أخرى غير التى يعيشها أخوه كريم .. كل منهما منفصل عن الآخر .. بل إن حسام يعتبر أخاه كريم خائنا لأنه ترك مصر وهاجر إلى أمريكا ولم يعد يراسله أو يهتم بأخباره .. إن عقليته لا يمكن أن تتسع لقبول الاقتناع بمبدأ الهجرة ولا لأى مبدأ من المبادىء التى تفرضها الحياة الحديثة ..

وكانت عدلية متأكدة أنها سترتاح إلى لقائها مع أخيها كريم وقد سافرت إليه هربا مما تعانيه أحاسيسها بعد أن طلقت .. كانت تريد أن تعيش ولو بضعة أيام حياة أخرى تلهيها عن معاناتها لعلها تسترد كل قوتها وكل شخصيتها لتواجه مستقبلها .. وكانت الرحلة بالطائرة طويلة ..

أكثر من اثنتى عشرة ساعة .. فأخوها يقيم فى غرب أمريكا .. ولاية كاليفورنيا .. فى بلدة اسمها كارميل .. ولكنها لم تحس بطول الرحلة .. كانت طول الوقت تائهة مع نفسها .. وسؤال يلح عليها .. هل هى لا تزال تحب مجدى .. وماذا تفعل بعد أن طلقته وهى تحبه .. أم أنها لم تعد تحبه .. أو على الأقل تستطيع أن تقاوم هذا الحب .. وماذا تفعل وهى تعيش بلا حب .. إنها تعودت على الحب .. فكيف تعيش بلاه .. وإذا قررت المقاومة فهل تقطع كل صلاتها بمجدى .. أن تبعده عن عينيها .. ولكنها إذا عملت فى مكتب المحاسبة فستكون فى حاجة إليه فكيف تقاومه وهو بجانبها وبين عينيها ..

واستقبلها كريم فى المطار .. لقد مضت أكثر من عشر سنوات دون أن تراه .. إنه تغير .. إن علامات السن تبدو عليه .. إنه الآن تعدى الأربعين من عمره .. ولكنه وسيم وأنيق .. أكثر وسامة وأناقة من أخيها حسام .. هكذا عرفته منذ صغره .. ولكنه يبدو جادا أكثر مما عرفته .. لقد قبلها قبلة سريعة واحدة كأن لا وقت عنده لتبادل القبلات .. قبلة واحدة تغنى عن مئات القبلات .. وكلماته دائما سريعة ومحددة .. إنه لا يقول أكثر مما يعبر به عما يريده باختصار ودون مبالغات .. وهو عملى .. يتحرك بها فى جوانب المطار بسرعة وجدية ويقوم بالإجراءات التى تحتاج إليها كأنه أصابع تضرب على الآلة الكاتبة وتعرف مكان كل حرف فيها .. لعل أمريكا هى التى جعلته هكذا .. هى التى أقامت له هذه الشخصية .. ولكنه لا يزال قريبا إلى القلب .. إن ابتسامته حلوة ولا تغيب عن شفتيه .. لعلها ابتسامة اكتسبها من أمريكا فكل من هناك فى حاجة إلى الابتسام ليسير العمل .. وكلماته رغم سرعتها إلا أنها كلها

كلمات مشبعة لسامعها .. مطمئنة .. تدعوك إلى الاتكال عليه والثقة فيه .. لقد أحست بعد أن رأته كأنها فخورة به .. كأنها تتباهى بأنها أخته .. وأحست بأنها كانت محرومة منه طوال هذه السنوات ..

وأخذها معه إلى سيارته وقادها حوالى الساعتين قبل أن يصل بها إلى البيت .. لقد تعودت فيما بعد على طول المسافات فى أمريكا .. إن المسافة التى تقطعها فى ساعتين بالسيارة تعتبر مسافة قريبة .. فركة كعب .. وطوال الطريق كانا يتحدثان عن مصر وعن العائلة .. وكان يسألها كأنه يقوم بعملية جمع معلومات .. ولكنه لا يسألها أبدا عما حدث لها .. ربما لم يعلم بعد أنها طلقت ..

ودخلت البيت .. إن كل شىء يطير بها من الفرحة .. إن البيت فيلا أنيقة لها حديقة صغيرة فى شارع هادىء نظيف .. أين تجد هذه النظافة فى مصر .. ليس فى مصر كلها مثل هذا الشارع الصغير حتى لو كان يسكنه رئيس مصر .. وكلما مرت بها الأيام وجدت فى البيت ما يفرحها أكثر .. إنهم هناك ليسوا فى حاجة إلى خدم .. إن الآلات تقوم مقام الخدم بالنسبة لست البيت .. آلات صغيرة تصنع بها ست البيت كل شىء بمجرد الضغط على زرار .. فما حاجتها إلى الخدم .. وقد أحست عندما التقت بست البيت كأنها تلتقى بأخيها نفسه فى صورة امرأة .. إنها صورة منه .. حتى قبلتها كقبلته .. قبلة واحدة تغنيها عن مئات القبلات .. وابتسامتها دائما على شفتيها .. وكلماتها سريعة مختصرة ككلماته .. وانفتح لها قلبها وأحبتها كما تحب أخاها .. وأولادهما .. محمد وأحمد وعائشة .. لعله تعمد أن يسميهم بأسماء إسلامية قحة حتى يحتفظ لهما بأصلهما .. وأصلهما الإسلامى .. وقد

وقفوا عند استقبالها ينظرون إليها كأنهم يتفرجون على شىء غريب جاء إليهم من مصر .. وقد قضت أياما طويلة حتى استطاعت أن تكسب ارتياح الأولاد إليها وتعلقهم بها .. لقد اكتشفت أنهم لا يقبلون معاملتهم كأطفال رغم أن أكبرهم لا يتعدى التاسعة من عمره .. إنهم لا يطيقون التدليل المائع ولا يطيقون القبلات .. إنهم لا يقبلون إلا على الألعاب التى تشغل عقولهم .. وقد وجدت لهم كثيرا من هذه الألعاب التى جعلتهم يتعلقون بها .. والبيت كله فى حركة دائمة .. لا أحد فيه يعيش لحظة فراغ ولو فى انتظار الآخر .. ليس بينهم من ينتظر الآخر .. الزوج يعمل .. والزوجة تعمل .. والأولاد فى المدارس .. وكل منهم يذهب ويعود وهو مطمئن أن ليس فى أيامه فراغ كالفراغ الذى كانت تعانيه وهى فى انتظار زوجها مجدى .. ولكن .. كيف ستقضى أيامها وسط هذه العائلة التى لا تجد فراغا لتقضى الساعات معها .. ولكن أخاها يحسب حساب كل شىء .. ومنذ اليوم الأول ملأ لها كل أيامها .. إنه يأخذها معه كل صباح وهو فى طريقه إلى مكتبه ويتركها فى بلدة قريبة فيها شىء جديد تتفرج عليه وحوانيت تعرض كل ما يمكن أن تحتاج إليه .. يتركها وحدها تفعل ما تريد .. ثم يعود إليها بعد أن ينتهى من مكتبه فى الساعة الخامسة مساء ليعود بها إلى البيت .. وفى يوم الأحد كان يصحبها مع بقية أفراد العائلة إلى رحلة بعيدة .. لقد صحبها إلى مدينة وولت ديزنى لتفرح هناك بعجائب الألعاب .. وصحبها إلى كثير من البلدان المجاورة .. وفى مساء السبت كان يدعو بعض أصدقائه من الأمريكان وأحيانا من المصريين ليعرفهم بها .. أو ليسليها بمعاشرة المجتمع الأمريكى .. وهو مجتمع ليس فيه أوقات فراغ تتسع لمتعة الصداقة

والتزاور إلا مساء السبت ونهاية الأحد .. إنها تتمنى أن تعيش هذا المجتمع حتى لا تعانى ما كانت تعانيه فى مصر .. إن المجتمع الأمريكى يشغل الإنسان عن متاعبه الذاتية .. عن حياته الشخصية .. لأن الشخص هناك لا يستطيع أن يعيش ذاته وإلا مات من الجوع ..

وفى الليلة الأولى التى وصلت فيها إلى بيت أخيها تركتها زوجته ودخلت حجرتها .. لعلها وجدت أن التخطيط الصحيح لأصول الضيافة هو أن تترك الأخت مع أخيها وحدهما لعلهما فى حاجة إلى كلام لا يهمها أو ليس من حقها أن تسمعه ..

وقالت عدلية لأخيها بعد أن ترددت برهة :

— هل سمعت بآخر أخبارى ..

وقال كريم بلا اهتمام :

— وصلنى خطاب ماما أول من أمس وعلمت منه أنك أصبحت مطلقة ..

وقالت عدلية فى دهشة :

— ولماذا لم تسألنى عما علمته منذ وصلت ؟

وقال من خلال ابتسامته :

— ربما لم تكونى على استعداد للحديث فى هذا الموضوع .. ولذلك انتظرت إلى أن تبدئ أنت الحديث .. على كل فإنى لم أفاجأ بخبر طلاقك .. لقد كنت أنتظر هذا الخبر منذ علمت بزواجك ..

وقالت عدلية غارقة فى الدهشة :

— لماذا .. ماذا جعلك تنتظر هذا الطلاق ..

وقال وهو ينظر إليها كأنها يواسيها :

— لأنى علمت أن هذا الزواج تم رغم إرادتك وإرادته ..

قالت كأنها تدافع عن نفسها :

— ولكننا قبلناه .. قبلنا الزواج وحاولنا الاستمرار به .. ولعلك تعلم أنى أحب مجدى وأنا متأكدة أنه يحبنى .. لذلك حاولنا ..

وقال كريم وهو لا يزال ينظر إليها هذه النظرة المشفقة :

— ما هو الحب .. إن أساس الحب هو الإرادة الحرة للمحبين .. والإرادة الحرة هى التى ترسم للحب صورته .. قد تقرر الإرادة الحرة أن تكون صورة الحب هى الزواج .. وقد تقرر أن يعيش الحب بلا زواج حتى مع استكمال كل مطالب الحب بين الرجل والمرأة .. وقد تقرر الإرادة الحرة للحب الفراق .. أو رفض هذا الحب .. لأن هناك مطالب أخرى أقوى من الحب تسيطر على الإرادة الحرة ..

وقالت عدلية وهى تتنهد كأنها تتذكر :

— لقد مرت أيام كنت سعيدة بهذا الزواج ..

وقال كريم فى هدوء :

— كنت أيامها تعيشين فى وهم .. إن السعادة لا تتحقق إلا إذا عاش الإنسان بإرادته الحرة .. حتى لو ارتكب أبشع الموبقات .. إن بين اللصوص تجدين لصا سعيدا مرحا فخورا بنفسه .. حتى لو قبض عليه ودخل السجن تجدينه وكأنه لم يفاجأ بما يؤثر فى سعادته .. لماذا هو سعيد .. لأنه اختار أن يكون لصا بإرادته الحرة .. إنه يسرق وهو مقتنع بأن هذا من حقه وأنه يقوم بعمل لا يعتبر جريمة ولا خطأ ويخرج من السجن ليستمر لصا .. وهناك لص آخر تجدينه تعيسا يعانى أزمات نفسية حادة حتى لو استطاع أن ينجح فى سرقاته .. لماذا .. لأنه لم يختر

لنفسه أن يكون لصا .. لقد فرض عليه أن يكون لصا رغم إرادته الحرة .. لقد سيطرت عليه عوامل سحبت منه إرادته الحرة .. سحبت حقه فى الاختيار وجعلته مضطرا لأن يكون لصا .. ربما كان فشله فى عمله الشريف .. أو كان الجهل والجوع هما اللذان فرضا عليه أن يكون لصا .. ومثل هذا اللص إذا قبض عليه وأدخل السجن كان أول ما يفكر فيه هو التفكير فى الانتحار .. كما بدأت أنت فى التفكير فى الانتحار ..

وقالت عدلية كأنها تدافع عن نفسها :

ـــ لقد فكرت فعلا فى الطلاق منذ اليوم الأول .. ولكن الوضع الذى فرض علينا كان وضعا شريفا وليس جريمة تعذبنى كجريمة اللص ..

وقال كريم وهو يقترب منها كأنه يرجوها أن تفهمه :

ـــ كله سواء .. الحرام والحلال .. مادام لم يتحقق بالإرادة الحرة .. ما الفرق بين المومس والعشيقة التى تحب عشيقها .. إن كلا منهما ترتكب خطأ واحداً يرفضه المجتمع المحافظ كالمجتمع فى مصر .. إن كلا منهما ترتكب جريمة الزنا .. ولكن هناك فارقاً كبيراً .. إن المومس امرأة تعيسة والحبيبة امرأة سعيدة .. لماذا .. لأن المومس اضطرت أن تكون مومسا رغم إرادتها الحرة .. ولكن الحبيبة اختارت أن تكون عشيقة بحكم إرادتها الحرة .. والمومس عندما تعطى جسدها لرجل تقاوم إحساسها بالعذاب والقرف والخسة وتحاول أن تقنع نفسها بأنها تاجرة .. تؤجر جسدها بالثمن الذى تحتاج إليه لتعيش .. أما العشيقة فهى تعطى جسدها لحبيبها وهى سعيدة وهائمة وتحس أنها تتمتع بنعمة الله عليها وربما تقوم وتصلى شكراً .. لأنها أعطت بإرادتها الحرة .. إرادة

الحب ..

وقالت عدلية وهى ساهمة كأنها نسيت أنها بجانب أخيها :

ـــ لقد كنت سعيدة فعلا قبل أن أتزوج مجدى .. كنت أحس فعلا بأنى أعيش معه متمتعة بنعمة الله .. ولو أنى ترددت سنوات طويلة قبل أن أستسلم لحبى .. ولكن أرجوك لا تشبهنى بالمومسات .. أعرف أنك لاتقصد ولكنك تجرحنى ..

وابتسم لها كأنه يخفف عنها وقال :

ـــ إن كل ما أريد أن أقوله هو أن طريق السعادة يتساوى فى الحرام والحلال .. هناك زوجة لا ينقصها شيء ولكنها زوجة تعيسة وتعيش تعيسة العمر كله حتى بعد أن تصبح أماً .. وتنعكس تعاستها على كل ما فى بيتها فلا تجدين فيه أبداً شيئاً كاملا يرمز إلى السعادة .. لماذا .. لأنها لم تتزوج بإرادتها الحرة ولكن فرض عليها الزواج من هذا الرجل وقبلته مضطرة .. وهناك زوجة أخرى ينقصها الكثير ولكنها سعيدة وتستطيع أن تجعل من بيتها جنة رغم كل ما ينقصها .. لماذا .. لأنها هي التى اختارت هذا الرجل وتزوجته بإرادتها الحرة .. والإرادة الحرة تتحرر حتى من إغراء الأموال والمراكز الاجتماعية التى يقدمها الزوج .. فالزوجة الأولى تعيسة رغم ثراء الزوج والزوجة الثانية سعيدة رغم أنها اختارت زوجها فقيراً .. والزوجة الأولى قد تقع فى الخيانة الزوجية وتتخذ لنفسها عشيقاً بجانب زوجها لأنها فى حاجة لأن تخفف عن نفسها ضيقها وإحساسها بأنها لا تعيش الحلال بإرادتها الحرة فاضطرت أن تعيش إرادتها الحرة فى الحرام .. والزوجة الثانية لا يخطر على بالها أبداً أن تخون زوجها وتتخذ لنفسها عشيقاً لأنها مستكملة إرادتها الحرة مع هذا

الزوج .. وقد كنت أنت سعيدة مع زوجك الأول مدحت و لم تفكرى فى خيانته رغم أن رجلا آخر كان يطرق قلبك .. لأنك أنت التى اخترت مدحت بإرادتك الحرة .. ثم إنك لم تستطيعى أن تعيشى الحياة الزوجية مع زوجك الثانى مجدى رغم الحب لأنك لم تختاريه زوجاً بإرادتك الحرة ..

وقالت عدلية فى صوت خفيض كأنها تحادث نفسها :

ـ إنى لم أتزوج مجدى لمجرد أن أخى حسام هددنا بالمسدس .. ولكن لأنى احسست بأنى يجب أن أرضى العائلة .. أردت أن أصون ما يسمونه شرف العائلة ..

وقال كريم فى سخط :

ـ هذه أحاسيس رجعية لم تعد تحتملها الحياة الحديثة .. إن العائلة مهما بلغ تماسكها يحتفظ كل فرد فيها بشخصيته وذاتيته الخاصة .. وهو حر التصرف فى حياته مادامت تصرفاته لا تمس باقى أفراد العائلة .. إن كل المجتمعات الحديثة تعطى الابن أو الابنة حق الانفصال عن العائلة بعد سن السادسة عشرة ويصبح مسئولا عن نفسه .. وقد ينفصل دون خلاف مع بقية أفراد العائلة إنما لمجرد أن يعيش حياته الخاصة التى تحددها إرداته الحرة .. ولا يصبح أحد من أفراد العائلة مسئولا عنه إلا فى الحدود التى يقبل فيها تطوعا حمل هذه المسئولية .. الفرد وحده هو المسئول لا العائلة .. الفرد هو المسئول عن نفسه أمام الله وأمام المجتمع وأمام القانون .. وأنا .. هل تركت العائلة لأنى أكره أفرادها .. هل تركت مصر لأنى قرفان من مصر .. أبداً .. تركتها لأن كل فرد من أفراد العائلة له شخصيته الذاتية المنفصلة عن شخصية الآخرين ومن حق كل فرد أن

يحدد مصيره وحده .. سواء كان المصير هو الارتباط بالعائلة أو الانفصال عنها .. والآن ليس بينى وبين العائلة سوى الخطابات التى ترسلها لى أمى تحت إلحاح غريزة الأمومة .. وبعد أمى فإنى واثق أنه لن تصلنى أى خطابات منكم وسينقطع كل ما بينى وبينكم .. ورغم ذلك فإنى أحبكم كلكم وأتحدث عنكم كثيراً مع أولادى حديث الذكريات وأفرح عندما أرى أحداً منكم ولكنى لا أعيش فى انتظار أحد ولا أعتقد أن أحدا من أفراد العائلة يعيش فى انتظارى .. كما أنى لا أحس بمسئوليتى عن العائلة ولا العائلة تحس بمسئوليتها عنى إلا إذا احتاج واحد منا إلى الآخر .. وكل العائلات فيها الفالح والفاشل .. فيها الطيب والدنىء .. فيها الشريف والمجرم .. دون أن يكون أحدهما مسئولا عن الآخر .. وما يسمونه شرف العائلة هو فى الواقع تعبير رمزى لتحليل أنانية رب العائلة، لتحليل سيطرة رجل العائلة على نساء العائلة .. إن أختك اعتماد هى من أفراد العائلة ورغم ذلك لم تكن تستطيع أن تفرض عليك الزواج من مجدى لأنها امرأة .. وأخى حسام لم يكن يستطيع أن يفرض إرادته على حتى لو اخترت أن أكون لصا لأنى رجل والرجال من أفراد العائلة لا يخضعون لما يفرضه تعبير شرف العائلة .. وهو شرف يحدد صورته وقيوده الرجل رب العائلة .. هناك عائلات يبيح شرفها .. الكثير من مظاهر الانحلال لأن رب العائلة هو الذى يقبل هذا الانحلال .. وكل ذلك فى حين أن الشرف هو شرف الفرد نفسه .. هو الذى يحدد معناه وهو الذى يختار التقيد به .. ومعنى الشرف يختلف بالنسبة لكل فرد من أفراد العائلة دون الخضوع لسيطرة الرجل رب العائلة أو حتى بتحديه .. إن المجتمعات الحديثة تركت الحرية لكل فرد من أفراد العائلة بحكم القانون حتى تحمى

كل فرد من طغيان رب العائلة وتنشل البنات من استعباد عصر حريم السلطان .. إنهم هنا لا يحللون الخطيئة ولكنهم يحملون مسئوليتها أمام القانون لا أمام رب العائلة ..

وقالت عدلية وهى فى دهشة مما تسمعه :

ــ إنك تقول كلاماً عجيباً أسمعه لأول مرة .. ولكن .. ما رأيك فى حالتى ..

وقال كريم وهو يبتسم لها مرفها :

ــ ماذا تقصدين بحالتك ؟

وقالت وهى فى لهفة لسماع رأيه :

ــ إنك تعلم أنى مازلت أحب مجدى .. فهل أعود إليه كزوجة أو ماذا أفعل .. كيف أعيش وأنا لا أستطيع أن أستغنى عنه كصديق .. ولا أستطيع أن احتمل صداقته دون أن أتركها تعيش الحب ..

وسكت كريم برهة ثم قال فى هدوء :

ــ إن رأيى لن ينفعك .. فإن العناصر التى تكون رأيى ليست هى العناصر التى تكون رأيك .. إن رأيك يتكون بدوافع الحب وأنا لا أشترك معك فى هذه الدوافع .. أنا لست فى حالة حب .. وقد يكون رأيى الذى يقوم على المبادىء العامة هو ألا تتزوجى مجدى وهو متزوج من أخرى .. أن تشترطى عليه أن يترك الأخرى ليكون كله لك .. هذا هو ما أنا مقتنع به وأتمناه لك .. ولكنك تحبينه .. وقد يدفعك الحب إلى أن تعودى إليه رغم حرصه على الاحتفاظ بالزوجة الأخرى .. وقد يدفعك إلى أن تعودى إليه تمارسين الحب بلا زواج .. وقد تجدى من القوة ما يعينك على مقاومة هذا الحب وتعيشين مكتفية بابنك وبالبحث

عن رجل آخر .. كل هذا يعتمد على إرادتك الحرة .. وهو فى حاجة إلى وقت طويل حتى تطمئنى إلى أنك وصلت إلى القرار الذى تريدينه .. وقد أخطأ أخى حسام لأنه لم يترك لك الوقت للتفكير فى الزواج من مجدى .. لقد قلت لى إنك ترددت سنوات طويلة قبل أن تستسلمى لحبك له وهذا التردد هو ما يحتاج إليه كل من يفكر .. بل إن التردد هو المقدمة الأساسية لكل خطوة ناجحة .. ربما لو كان أخى إنسانا عاقلا رحيما واكتفى بنصحك بالزواج ثم تركك تفكرين وترددين لما وصلت إلى هذا الحال .. وكان على أخى أن يقبل ما يصل إليه فكرك وترددك حتى لو رفضت الزواج وحتى لو تبرأ منك بعد ذلك كأخ لك وتركك مسئولة عن نفسك .. فعليك أنت دائماً أن تختارى ولن ينفعك رأيى فإن الحب يحتمل مالا يحتمله العقل المجرد ..

وقالت عدلية وهى تبتسم ابتسامة مسكينة :

ــ إنك رائع يا أخى .. إنى مقتنعة بكل ما قلته ولا شك أنها آراؤك اكتسبتها من حياتك فى أمريكا .. لو عشت فى مصر لما كانت لك مثل هذه الآراء .. حتى أنى أصبحت أتمنى أن أعيش أنا الأخرى فى أمريكا ..

واعتدل كريم فى جلسته كأنه انزعج وقال :

ــ هل تفكرين فعلا فى الإقامة هنا ؟

وقالت من خلال ابتسامتها :

ــ إنه خاطر من الخواطر التى تخطر لى ..

وقال فى لهجة بطيئة :

ــ لا شك أنى أكون سعيدا ببقائك معى .. ولكنى لا أرضى لك أن تقيمى معى أنت وابنك بلا عمل حتى لو جئت معك بكل ما تملكينه فى

مصر .. أنت نفسك لن تطيقى الحياة هنا بلا عمل ..

وقالت ساهمة :

ـــ إن كل ما أتمناه هو أن أعيش فى مجتمع يعطينى الحق فى حريتى .. مجتمع لا يثير فى نفسى ما أعانيه وأنا فى مصر .. هل أستطيع أن أجد عملا هنا ..

وقال ببرود :

ـــ ليس سهلا ..

قالت وقد فوجئت ببروده .. لعله يخشى أن يتحمل مسئوليتها ..

ـــ إنه مجرد خاطر خطر لى وأنا أبحث عن مصيرى ..

* * *

ومرت الأيام .. وعدلية تعيش كل يوم وفقا لخطة يضعها لها كريم ليشغل بها وقتها .. وقد بدأت تزهق وتعيش تفكيرها فى مجدى حتى وهى تطوف بين المشاهد الجديدة التى تمر بها .. وتهرب من تفكيرها فى مجدى وتحاول أن تحصر تفكيرها فى ابنها شريف ولكنها تعود وتفكر فى مجدى .. لعل الأفضل أن تعود إلى مصر لتعيش متاعبها فى مهبطها ..

ودق جرس التليفون فى البيت ..

إنه رجل يتحدث العربية ويريد السيدة عدلية ..

إنه مجدى ..

وطارت عدلية من الفرحة وهى تسمع صوته وصاحت :

ـــ متى وصلت ؟

وقال وصوته ينبض باللهفة :

ـــ منذ ساعات ودخلت الفندق منذ دقائق ..

قالت كأنها تزغرد :

ـــ وكيف عرفت البلدة والعنوان ونمرة التليفون .. إنى لم أترك لك شيئاً منها ..

قال كأنه يضحك :

ـــ من أختك اعتماد .. قلت لها إنى أريد أن أكتب لك بشأن أعمال المكتب .. متى وكيف أراك ..

والتفتت عدلية بسرعة إلى أخيها كريم وقالت وهى لا تزال صائحة :

ـــ هل يستطيع مجدى أن يزورنا ..

وقال كريم فى دهشة :

ـــ طبعا ..

وعادت سريعاً تصيح فى التليفون :

ـــ تعال إلينا .. هل تعرف العنوان ..

وقال مجدى بسرعة :

ـــ طبعا أعرفه .. سأراك بعد دقائق ..

ووضعت عدلية سماعة التليفون وهى تقفز كأنها عادت إلى كل صباها .. إلى هذا الحد يحبها ويريدها .. إلى حد أن يعبر المحيط لمجرد أن يراها ويبحث عن أمله فيها ..

وجاء مجدى فى سيارة أجرة .. ووقف كل منهما ينظر إلى الآخر فى فرحة .. وكل منهما يقاوم حتى لا يلقى بنفسه فى أحضان الآخر .. واستقبله أخوها كريم استقبالا عاديا لا يخلو من الترحيب ودون أن يبدو عليه إحساس بأن هذا الرجل هو طليق أخته .. إنه مجرد صديق لأخته جاء لزيارتها .. واستقبلته زوجة أخيها وهى تنظر إليه كأنها تحكم على

ذوق عدلية فى اختيار الرجل الذى تحبه .. وجلسوا جميعا جلسة عادية يتبادلون فيها أخبار مصر وأمريكا وآفاق العمل هنا وهناك بينما عدلية ومجدى يكتمان رغبتهما فى الانفراد معا ليتبادلا حديثا ينبض فى عروق كل منهما .. إلى أن استأذن أخوها وزوجته وتركاهما وحدهما .. إن كريم يعلم مقدما أن أخته فى حاجة إلى الانفراد بمجدى ..

وقالت عدلية وقد قفزت إلى وجهها كل صواريخ فرحتها :

ـ إنها أضخم مفاجأة تلقيتها فى حياتى . لم يخطر على بالى أبدا أنى يمكن أن أراك هنا ..

وقال من خلال ابتسامته :

ـ إنها أيضا مفاجأة فاجأت بها نفسى ..

وقالت كأنها تلومه :

ـ هل جئت صدفة ..

وقال وهو ينظر إلى شفتيها كأنه يتذكر قبلتها :

ـ ليس صدفة .. ولكنى وأنا فى مصر لم أكن قد قررت أن آتى إليك .. أن أعبر المحيط لأراك .. وقد اتصلت بأختك اعتماد وسألتها عن العنوان لأنى فعلا سأكتب إليك .. ولكنى سافرت إلى سويسرا فى عمل .. ومن جنيف ذهبت إلى لوزان وأنا أنوى إنهاء عقد إيجار بيتنا هناك .. ولكنى ما كدت أدخل البيت حتى وجدت نفسى لا أستطيع أن أتركه أو أشطبه من الوجود فى حياتنا .. حرام .. حرام أن نضحى بكل هذا الهناء الذى عشناه فى هذا البيت .. بل إنى وجدت نفسى أقضى الليل كله فى هذا البيت .. ولم أنم .. كأنى فى انتظارك ..

وقالت وهى هائمة فى ذكرياتها :

ـ لقد كنت أقضى أياماً طويلة فى هذا البيت وأنا فى انتظارك إلى أن تعود إلى بعد أن تتركنى ..

قال من خلال ابتسامته :

ـ ولكنى كنت أعود .. وقد أحسست أن العودة هى دائما مسئوليتى ربما لأنى لم أعد أستطيع العودة إليك فى جنيف أو فى لوزان فيجب أن أعود إليك فى أمريكا .. فى مدينة كارمل وفى الصباح ودون أن أبلغ أحداً أخذت تذكرة الطائرة وعدت إليك .. هل أجدك كما تعودت أن أجدك كلما عدت إليك ..

وسكتت عدلية وكأنها حائرة فيما تقول .. وعاد مجدى مستطردا :

ـ عدلية .. إننا لا نستطيع هذا البعاد .. لانستطيع أن نمزق حياتنا وتمزقينى وتمزقى نفسك .. يجب أن نعود ..

وظلت ساهمة برهة ثم قالت كأنها تتوسل إليه :

ـ مجدى .. دعنا لا نتحدث عما فات .. وكأننا نلتقى من جديد .. ودعنا نتخذ قراراتنا فى لحظتها .. إنى لا أدرى ماذا يمكن أن أقرر بعد دقيقتين أو بعد ساعتين أو بعد يومين .. دعنا نعيش لقاءنا بلا كلام عن النهاية .. ونترك اللحظات تفعل بنا ما تشاء ..

وقال وهو يتنهد كأنه مضطر للاستسلام :

ـ إنى لا أستطيع أن أبقى معك أكثر من يومين .. مضطر أن أتركك فى صباح اليوم الثالث ..

وابتسمت فى سعادة .. لقد تحمل هذا المشوار الطويل رغم أنه لا يستطيع أن يبقى سوى يومين .. تحمل من أجلها ..

وقالت فى مرح :

ـــ من يدرى ما يمكن أن يحدث فى يومين ..

ثم هزت رأسها كأنها أفاقت وقالت :

ـــ هل سمعت شيئاً عن ابنى شريف .. هل سألت عنه ..

وقال كأنه يتحسر وهو يدير عينيه عنها :

ـــ إن أختك اعتماد كانت تحدثنى بجفاء كلما اتصلت بها حتى لم أستطع أن أعطى لنفسى الحق فى السؤال عن شريف رغم أنى تعودت أن يكون لى كما هو لك ..

وسكتت كأنها تحادث نفسها .. لا يهم .. شريف ليس ابنه .. ورغم ذلك حاول .. وهى تعلم جفاء أختها اعتماد .. وقامت واقفة تشده من يده قائلة :

ـــ تعال أتمشى بك فى الشوارع المحيطة بنا .. إنها جنة ..

ثم جرت إلى غرفة أخيها وقالت وهى واقفة على الباب :

ـــ سأخرج مع مجدى ..

وقال أخوها فى لهجة طبيعية :

ـــ هل تعودين الليلة ؟

ودهشت عدلية لسؤال أخيها ولكنها ذكرت نفسها بأنها فى أمريكا .. إن أمريكا تقبل ما لا يباح فى مصر .. وقالت وهى تجرى مبتعدة :

ـــ طبعا :

وخرجت تطوف بمجدى فى الشوارع القريبة .. إنها لا تحس معه بأنها زوجة .. ولا تحس بأنها كانت زوجته .. بل إنها لا تحس بأنها تعود إلى الحب القديم .. إنها تحس كأنها تبدأ الحب من جديد .. والكلام

بينهما لا معنى له .. ولكنه كلام .. وكل منهم يعرف أن ليس هذا هو ما يريد أن يقوله .. وأوصلته إلى سيارة أجرة بعد أن اتفقت معه على أن تمر عليه فى صباح اليوم التالى لتجده فى انتظارها عند باب الفندق .. ومجدى ينظر إليها فى دهشة ولوم .. إنها تتركه كأنها غريبة عنه .. كأنه فعلا يلتقى بها اللقاء الأول ..

وأخذته فى اليوم التالى تطوف به المشاهد القريبة كأنه سائح وهى دليله السياحى .. وتناولا الغداء فى مطعم والعشاء فى مطعم آخر .. وإحساسها بأنها تعيش حبها الأول لا يتغير .. ومجدى يحاول دائما .. إنه يمسك بيدها ويضغط عليها فترتجف كأنها صبية تثور أنوثتها للمرة الأولى .. بل إنه حاول تقبيلها فاكتسى وجهها بحمرة الحياء وارتجفت عيناها وابتعدت عنه هامسة :

ـــ لا يا مجدى .. ليس هنا ..

وتركته وهو غارق فى دهشته ولومها ..

وفى اليوم التالى كانت قررت أن تبقى معه إلى أن يركب الطائرة ويطير عنها .. هذا أقل ما تعطيه له بعد كل ما تحمله من أجلها .. من أجل حبه لها .. وقالت لأخيها :

ـــ إن مجدى يسافر غدا .. ستقلع الطائرة فى الساعة السادسة صباحا .. وسأبقى معه إلى أن يسافر .. سآخذه اليوم إلى ديزنى لاند ..

وقال كريم فى بساطة :

ـــ كنت أتمنى أن يبقى حتى يوم السبت والأحد لأستطيع أن أدعوه .. إنه ليس صديقك فحسب ولكنه مصرى ويجب أن نرحب به ..

وقالت كأنها تعتذر نيابة عنه :

ــ لن يستطيع أن يبقى بل قد لا يستطيع أن يأتى إليكم ليودعكم ..

وقال كريم مبتسما ابتسامة واسعة :

ــ أبلغيه تحياتنا ..

وذهبت إليه ..

وركبت سيارة تحملها إلى ديزنى لاند .. إنها مسافة طويلة تستغرق أكثر من ثلاث ساعات بالسيارة .. ولكنها تعتبر فى أمريكا فركة كعب .. وعدلية بدأت تحس بأن مجدى سيتركها .. سيطير منها .. ستنتهى حلاوة اللقاء .. ولوعة الإحساس بالفراق تتركها تستسلم لحبها أكثر .. إنها تترك يدها فى يده .. وتتركه يعبث بأصابعه فى شعر رأسها .. ويخطف قبلات حتى وهما فى السيارة وراء ظهر السائق .. لا يهم .. إن القبلات فى أمريكا حرة يعترف بها كل الناس حتى لو تمت فى الطريق العام .. وخفف من لوعة الإحساس بالفراق مرحهما وانبهارهما وهما يتنقلان بين عجائب ديزنى لاند ..

وعادا بعد منتصف الليل إلى الفندق الذى يقيم فيه ..

وقالت لنفسها إنها يجب أن تصعد معه إلى غرفته حتى تساعده فى إعداد حقائبه .. وصعدت قبل أن يدعوها .. وخطواتها طبيعية كأنها ليست غريبة .. إنها فى طريقها إلى غرفة زوجها ..

وافتعلا إعداد الحقائب ولكن بعد لحظات كانت بين أحضانه مستسلمة لقبلته التى غابت عنها طويلا .. وقالت بعد أن طالت القبلة وهما يلهثان بمتعتها :

ــ أنى لا أحس بك كزوجة .. ولكنى أحس بأنى حبيبة ..

وقال وهو يمد ذراعيه إليها :

ــ لقد كنت دائما حبيبتى ..

قالت وهى تحتويه بعينيها فى حب :

ــ ولكنى أحس بفارق كبير بين أن أكون زوجتك أو حبيبتك .. حتى طعم القبلة ليس هو طعمها وأنا زوجتك ..

قال وذراعاه تقتربان منها أكثر :

ــ المهم أن نعيش فى قبلة ..

وهم أن يفك أزرار ثوبها .. وإذا بفكرها يأخذها بعيدا عنه .. ماذا قررت .. إنها يجب أن تتخذ القرار بإرادتها الحرة .. إنه ليس زوجها حتى يكون له حق أن يفرض إرادته عليها .. حبها هو الذى يفرض قراره .. ولكنها تحس بهذا الحب كأنه الآن لحظة ضعف ..

وابتعدت عنه قائلة كأنها تهم أن تبكى :

ــ لا أستطيع يا مجدى .. وسأتركك وأتخذ غرفة أخرى لنفسى وسأعود لأوقظك فى الرابعة والنصف حتى تلحق بالطائرة ..

وقال وقد صدمته الدهشة :

ــ ألم تتخذى قرارا بعد ..

وقالت وهى تخفى عنه عينيها كأنها لا تستطيع أن تتحمل خيبة أمله :

ــ لقد قلت لك أن نترك القرار للحظتها .. وأنا فى لحظة حب ولكنها لحظة لا تساعدنى على اتخاذ قرار .. وأدار لها ظهره وخبط على المائدة بقبضة يده كأنه مغلول منكوب .. وقال فى لهجة حادة كأنه يشخط فيها :

ــ ولماذا تريدين غرفة أخرى .. لم يبق إلا ساعتين على ذهابنا إلى

المطار .. لنقضيهما فى بهو الفندق أو فى الشارع .. وأمامى عشر ساعات أنامها فى الطائرة لو استطعت النوم .. لو كنت قد تفضلت واتخذت قرارا بأن تعطينى حقى فى أن أنام ..

وقالت فى صوت مسكين كأنها تستسمحه :

ــ كما تريد ..

وشدها من ذراعها بلا كلمة ونزل بها إلى بهو الفندق ثم قالت وهو يجلس بجانبها على أحد الآرائك :

ــ لقد قلت لك أكثر من مرة إنى لا أستسلم لحاجتى إليك إلا فى حدود حاجتك إلى ..

وقالت هامسة :

ــ أعلم ..

وطال بهما الصمت .. وكان التعب من اليوم الطويل قد هدها فمالت برأسها على كتفه ونامت ..

وابتسم وهو يحتضن بعينيه رأسها الراقد على كتفه .. وظل صامتا لا يتحرك .. وكان هو الذى أيقظها فى الساعة الرابعة والنصف ..

وفتحت عينيها وانتفضت واقفة وقالت وهى تلهث :

ــ آسفة .. لقد نمت دون أن أدرى ..

قال مبتسما :

ــ لقد نمت بجانبى .. وهذا يغفر لك ..

وقفزت تقبله قبلة سريعة على خده كأنها تشكره على احتماله لها .. تشكره على حبه لها .. وصعدت معه وعادا سريعا بالحقائب وركبا السيارة إلى المطار ..

وقال كلمته التى يكررها وهو يودعها وفى عينيه نظرة حائرة كأنها تتساءل هل يكون هذا هو الوداع الأخير .. قال :

سأراك ..

وقالت وبين شفتيها ابتسامة تكتم بها دموعها :

ــ سأراك ..

وطار ..

* * *

أرجوك أعطني هَذا الدواء

١

كانت فى طريقها إلى الطبيب النفسانى .. إنها المرة الأولى التى تلجأ فيها إلى طبيب ليداوى حالتها النفسية .. لينقذها من نفسها .. وقد مضت عليها سنوات وهى تتردد على الأطباء العاديين والأطباء المتخصصين .. كانت أحيانا تشعر بالآم فى معدتها فتذهب إلى طبيب المعدة .. وأحياناً تشعر بآلام فى صدرها وتضيق أنفاسها حتى تكاد تختنق فتذهب إلى طبيب متخصص فى الصدر .. وأحيانا يصيبها صداع يستمر أياما طويلة فتذهب إلى طبيب تسمع أنه متخصص فى الصداع .. وأحياناً يصيبها نزيف حاد فتجرى إلى طبيب الأمراض النسائية .. بل إنه مضت عليها فترة خيل إليها فيها أنها أصيبت بالسرطان .. ظهر ورم صغير على جانب ثديها فجرت مرتاعة إلى أشهر طبيب متخصص فى السرطان ..

ولكن لا شىء .. رغم عشرات المرات التى وضعت نفسها فيها تحت الأشعة .. ورغم عشرات التحاليل .. ورغم خبرة كل هؤلاء الأطباء .. لا شىء .. كلها سليمة .. كل قطعة من جسدها تتمتع بالصحة والعافية .. وهى تحسد على دقات قلبها وعلى مستوى ضغط الدم فى عروقها .. إن كل الكشوفات والأجهزة الطبية تؤكد أنها لا تزال فى عز شبابها الصحى رغم أنها جاوزت الأربعين ..

وكل الأطباء أجمعوا على أن السبب فى كل ما تعانيه ربما كان حالتها

النفسية .. إنها تعيش حالة نفسية معقدة تضغط أحيانا على أعصابها فتتقلص هذه الأعصاب وتسبب لها آلاما يخيل إليها معها أنها مريضة .. قد تتقلص الأعصاب المحيطة بالكبد فتشعر بأنها مريضة بالكبد .. أو تتقلص ناحية الصدر فتشعر أنها مريضة بالصدر .. وقد يؤدى هذا التقلص إلى ظواهر مرضية .. كأن يؤدى إلى نزيف .. أو إلى هذا الصداع الذى يداهمها .. ولكنه ليس مرضا .. إنه مجرد تقلص أعصاب ، بدليل أنها عندما تسكت فترة على آلامها تختفى هذه الآلام .. ويهدأ الكبد ، أو يضيع الصداع ، أو يختفى المرض بمجرد أن أعصابها عادت إلى هدوئها وإلى حالتها الطبيعية ..

وهى تصدق كل هذا الكلام ..

تصدق كلام الأطباء ..

إنها فعلا تعيش حالة نفسية معقدة ..

وكان يجب أن تبدأ بالالتجاء إلى طبيب نفسانى ربما استطاع أن يهديها إلى الطريق الذى تنقذ به نفسها من نفسها ، فتهدأ أعصابها وتشفى من هذه التقلصات التى تعانى منها هذه الآلام ..

ولكنها لا تريد أن تذهب إلى طبيب نفسانى ..

كل هذه السنوات مرت وهى ترفض أن تذهب إلى طبيب فى عالم النفس ..

إن عقدتها تنعكس فى داخلها انعكاس الرفض .. إنها ترفض أن تعترف بأنها مصابة بحالة نفسية .. بالعكس .. إنها تتعمد أن تبدو فى المجتمع وخاصة أمام صديقاتها كأنها أسعد النساء .. وأسعد الزوجات .. إنها جميلة .. وزوجها يحسدونها عليه .. إنه رجل ناجح ..

مشهور .. غنى .. وأولادها الأربعة كأنهم أربع تحف نادرة .. جميلة .. غالية .. فماذا ينقصها .. المجتمع كله يعرف أنه لا ينقصها شىء .. قد يعرفون أنها كثيرة المرض وكثيرة التردد على الأطباء ولكن هذا أمر عادى لا ذنب لها فيه وليس فيه شىء يمس غرورها بنفسها واعتزازها بأنها أجمل الزوجات ، وأشطر الأمهات ..

ولم يكن أحد يعرف أنها فى طريقها إلى طبيب نفسانى حتى ولا ابنتها .. إنها تكتم السر كأنها تدارى فضيحة أو تخفى عورة .. وقد أختارت أن تذهب إلى الدكتور على عبد الله لمجرد أنها سمعت عنه كثيرا .. وقد كانت تضحك عندما تسمع أن إحدى معارفها ذهبت إلى الدكتور على عبد الله .. هذه المجنونة .. أن الطب يمكن أن يعالج الجسد ولكن لا يمكن أن يعالج الروح .. أو يعالج النفس .. الروح تعالج روحها .. والنفس تعالج نفسها .. ولكنها كانت تعرف أنها كانت تفتعل هذه الضحكة حتى تدارى حاجتها هى إلى الدكتور النفسانى .. وإلى الدكتور على عبد الله الذى تسمع عنه كثيرا ..

إلى أن وجدت نفسها تتصل بعيادته بالتليفون وتحدد لنفسها موعدا .. ولم تذكر اسمها .. ولكنها قالت إنها مدام عبد الغفور ..

وهى تعرف ماذا سيحدث عندما تصل إليه .. سيتركها ترقد على أريكة ويطلب منها أن تتكلم .. أن تحكى حكايتها .. هكذا ترى ما يفعله الأطباء النفسانيون فى أفلام السينما وعلى شاشة التليفزيون ..

ماذا تحكى له ؟

ستكون صريحة .. ستقول كل شىء .. إنها مريضة بزوجها عزيز .. رغم كل هذا المظهر السعيد الذى تبدو به معه أمام الناس فإنه هو

مرضها .. إنه مصيبتها .. ويجب أن لا تنسى أن تخفى اسمه عن الطبيب .. إنه ليس عزيز .. إنه عبد الغفور ..

لقد تزوجت « عزيز » وهى لا تزال فى السادسة عشرة من عمرها .. تزوجته لأنه جاء وطرق باب بيتها ليتزوجها .. ووافق أهلها بسرعة لأنه رجل ناجح من عائلة محترمة .. وقبلته لأنها كأى بنت كانت تتسرع فرحتها بالزواج .. ولم تهتم لا هى ولا أهلها بأنه يكبرها بعشر سنوات .. لا يهم .. هذا هو الفارق الطبيعى بين طبيعة تكوين المرأة وتكوين الرجل .. هكذا يقول العلماء وهكذا قالوا لها :

ــ وقد استسلمت له منذ اليوم الأول لزواجهما .. استسلمت كلها بروحها وجسدها وعقلها .. استسلمت لشخصيته .. لم يكن هناك ما يمكن أن يبعدها عن هذه الشخصية .. لا شىء يشغلها بعيدا عنه .. حتى ارتباطها بأمها وأبيها لم يأخذها ولو لحظات بعيدا عنه .. لم يعد لها أم ولا أب ولا أهل ولا صديقات .. فقط عزيز .. وهى التى أرادت هذا .. لم ترده ولكنها وجدت نفسها هكذا .. لقد نقلها منذ اليوم الأول إلى عالم جديد .. عالم كامل .. كل شىء فيه .. لا شىء ينقصها .. حتى المتعة .. متعة الجسد .. ومتعة الإحساس بتكامل الحياة الزوجية .. وربما كان الشىء الغريب فى هذه المتعة هو أنها متعة صامتة .. فعزيز لا يتحدث إليها كثيرا .. ولا يعبر عن أحاسيسه ولا حتى عما يريده بالكلام .. إنه رجل عملى .. يحسب حساب كل شىء فى البيت ويؤديه كاملا .. تلقائيا .. أى دون مقدمات ودون تشاور ودون كلام .. وحتى عندما ينام معها على فراش الزوجية .. إنه يأخذها بلا مقدمات ولا كلام .. بل حتى فى ليلة الزفاف .. لقد أخذها بلا مقدمات وبلا تمهيد لما سيحدث

بينها وبينه .. بلا تمهيد للدنيا الجديدة والحالة الجديدة التى سينقلها إليها .. واستسلمت له وهى لا تدرى ماذا سيفعل بها .. ولكنها وجدت نفسها تتجاوب مستسلمة فى كل ما يفعل .. تتجاوب صامتة .. انتقلت من بكارتها إلى دنيا النساء وهى صامتة .. ولكنها راضية .. ولا تحس بأنها تريد أكثر .. أو تريد شيئا آخر .. ومر شهر العسل .. وهو فعلا عسل .. ولكنه عسل ذو مذاق عجيب .. عسل صامت ..

والأيام تمر .. والسنوات .. وبدأت تجد نفسها كأنها تكتشف فى زوجها أشياء جديدة لم تكن تعرفها .. إنه يتغيب كثيرا عن البيت .. وأحيانا يقضى الليل فى الخارج .. وكانت تصدقه عندما يقول لها إنه كان فى المكتب أو مدعوا إلى جلسة عمل .. ولكن تصديقها له بدأ يضعف .. بدأت تلاحظ أنه يعود أحيانا متعبا .. ليس تعبا نتيجة الإجهاد فى العمل .. إنه نوع آخر من التعب يدفعه إلى أن يدير ظهره لها بمجرد أن يرقد على الفراش وينام فورا نوما عميقا .. وقد غاب يوما عن البيت واتصلت بمكتبه بالتليفون فلم تجده وعندما عاد قال لها إنه كان فى المكتب .. ولم تكذبه .. ولم تقل له شيئا .. ثم إنه لم يعد يأخذها إلى أحضانه كما عودها .. لقد كان يأخذها كل ليلة وأحيانا خلال النهار .. وبدأت الفترات تتباعد عندما يأخذها .. كل يومين .. كل ثلاثة .. كل أسبوع .. بل إنه أصبحت تقرأ بإحساسها وهى تتطلع إلى وجهه وإلى بريق عينيه إذا كان سيأخذها هذه الليلة أولا .. وجرس التليفون يدق فإذا رفعت السماعة لا يرد أحد .. ويدق جرس التليفون مرة ثانية ويرفع زوجها عزيز السماعة ثم يجر التليفون إلى الغرفة الأخرى ويتكلم طويلا ، ويعود ليقول لها إنه كان يتحدث حديث عمل .. كاذب .. ولكنها لا

تكذبه .. تسكت ..

ستقول للطبيب كل التفاصيل التى أكدت لها أن زوجها يعاشر غيرها من النساء .. إنه مدمن نساء .. ولكن لماذا سكتت كل هذه السنوات .. لماذا لم تقلب دنياه ليكون لها وحدها .. لا تدرى لماذا تسكت حتى اليوم .. ربما كانت هذه طبيعتها .. وربما كانت شخصيته تفرض عليها ألا تصارحه بحقيقته .. وقد كانت هذه الشخصية تحيرها كثيرا .. هذه الشخصية الجادة الصامتة التى تعيش معها على أساس علم الحساب .. وعلى أساس الموازنة بين الحقوق والواجبات .. كيف يمكن لهذه الشخصية أن تتعامل مع النساء الغريبات عنها .. هل يأخذ المرأة الغريبة إلى أحضانه جادا صامتا كما يأخذها .. لا .. لا يمكن .. ربما كانت له شخصيتان .. شخصية يخصها بها .. وشخصية أخرى منطلقة مرحة يطلقها على النساء الغريبات حتى يوقعهن فى شباكه ويغريهن بالاستسلام لشهواته .. وقد كانت أحيانا تتمنى أن يعطيها هذه الشخصية الأخرى .. أن تجرب كيف يأخذ النساء الأخريات وكيف يمارس معهن شهواته .. لا .. ربما كان كل هذا مجرد خيال .. المهم أنها كانت دائما واثقة من أنه ليس مرتبطا بامرأة بالذات .. امرأة يمكن أن تأخذه كله وتتزوجه وتهدم بيتها .. إن إحساسها يؤكد لها أنه مدمن نساء .. كمدمن السجائر .. كل مرة سيجارة أخرى بعد أن ينتهى من السيجارة التى سبقتها .. إنها واثقة أن بيتها سيبقى دائما لها .. سليما ..

ثم إنها كانت تقاوم جروحها النفسية بأولادها .. كانت تهرب من أفكارها ومن أحاسيسها بالتفرغ لأولادها .. لقد أنجبت ولدا .. ثم بنتا .. ثم تعمدت أن تحمل مرة ثالثة .. إنها تريد أن تشغل نفسها بالحمل

بعيدا عن أفكارها .. إنهم يقولون إن الرجل يتعمد أن يبقى زوجته فى حالة حمل وإنجاب ليشغلها عن متابعته .. وليطمئن إلى سلوكها وأخلاقها وتصرفاتها .. إن الزوجة الحامل لا تجد فى نفسها القدرة على عرض جمالها أو على إغراء الرجال .. ولا يخطر على بالها أن تخون زوجها .. ولكن ليس زوجها هو الذى يريدها أن تكون حاملا .. إنه ليس فى حاجة ليشغلها عنه وعن متابعته .. إن شخصيته تكفيه .. شخصيته التى تعودت الاستسلام لها .. ولكنها هى التى تريد إن تشغل نفسها عن زوجها .. هى التى تريد الحمل .. وقد أنجبت ابنها الثالث .. ثم تعمدت أن تحمل مرة رابعة .. وتذكرت قصة كانت قد قرأتها مترجمة للكاتب الفرنسى جى دى موبا سان .. إنها قصة زوجة جميلة كان زوجها يغار عليها من جمالها .. يريد أن يحرمها من التمتع بعرض هذا الجمال .. فكان يتعمد أن يجعلها حاملا دائما .. إلى أن أنجبت تسعة من الأولاد والبنات .. ثم اكتشفت حقيقة زوجها .. اكتشفت أنه لا يريدها حاملا حبا فى الأولاد ولكن ليحرمها من جمالها .. وقررت أن تنتقم منه .. وانتقمت بأن صارحته بأن أحد هؤلاء الأولاد التسعة ليس ابنه .. كانت تكذب .. ولكن الزوج صدقها .. وسألها .. أى ولد من الأولاد ليس ابنه .. أى منهم ابن حرام .. ولكنها رفضت أن تجيبه .. إنه واحد منهم .. وأخذ الزوج يحلق فى كل ابن .. هذا الابن فيه شبه من صديقه فلان .. وهذا يشبه علان .. و .. و .. وجن الزوج دون أن يستطيع أن يحدد أى ابن من الأولاد ليس ابنه .. هكذا انتقمت الزوجة ..

وابتسمت ماجدة وهى حامل فى ابنها الرابع .. ربما قررت يوما أن تنتقم من زوجها عزيز نفس الانتقام .. ولكن لا .. إنها لا تريد أن

تنتقم .. تريد فقط أن تتغلب على ضيقها النفسى .. وأنجبت بنتا .. وكانت تتمنى لو حملت للمرة الخامسة .. ولكنها لم تعد تستطيع .. الأطباء قرروا أنها لن تحمل بعد ذلك أبدا ..

وكان أولادها يشغلونها فعلا عن تركيز فكرها فى خيانات زوجها مدمن النساء .. كانت تستطيع بأولادها أن تهرب بسرعة من فكرها .. ولكن الفكر أحيانا يكون أقوى منها فتشعر بهذه التقلصات العصبية التى تؤلم نواحى من جسدها .. ولكن كان هذا يحدث فى فترات متباعدة لا تقلقها ولا تهتم بها .. إلى أن كبر الأولاد .. وكلما كبروا خفت مسئوليتها عنهم وبدأت تجد نفسها وحيدة مع أفكارها .. وبدأت التقلصات تزداد وتؤلمها ويشتد الألم حتى بدأت تتعود على عرض نفسها على الأطباء .. مختلف أنواع الأطباء .. تعرض مرة كليتها .. ومرة كبدها .. ومرة صدرها .. و .. و ..

ولكنها فى الوقت نفسه كانت تحاول أن تشغل وقتها بما يمكن أن يبعدها عن أفكارها بعد أن أصبح أولادها عاجزين عن هذا الإبعاد .. كانت تحاول أن تشغل نفسها بالمجتمع .. أصبحت تتعمد أن تدعو وتدعى إلى الحفلات واللقاءات .. وأصبحت تتعمد أن تحرج زوجها ليكون معها عندما تدعو أو عندما تدعى .. وكانت كأنها تقوم بتمثيلية أمام المجتمع خلال هذه الدعوات .. تمثيلية السعادة الزوجية .. فكانت دائما تتعمد أن تلتصق بزوجها أمام الناس .. وتعلق ابتسامة كبيرة على شفتيها .. وتقول أحلى كلام .. حتى تقنع الناس بسعادتها الزوجية .. ولكنها كانت تعرف أن المجتمع يعرف أن زوجها مدمن نساء .. زير نساء .. فلاتى .. وكانت تحس بأن المجتمع يقدرها ويشيد بها لا لصفاتها

الخاصة ولكن لمجرد أنها تستطيع أن تحتمل هذا الزوج وتحتفظ بـه وببيتها .. بل كانت تحس أن الناس تتدح فيها قذفا فى زوجها .. لا يقولون له إنه سافل .. ولكنهم يريدون أن يقولوا له كيف تستطيع زوجة أن تحتمل هذا السافل .. إن زوجتك ملاك يا عزيز .. إن زوجتك ست الستات .. إن زوجتك أعقل وأروع الزوجات .. إن زوجتك يحسدك عليها كل الأزواج .. و .. و .. وكان عزيز نفسه لا يطيق هـذا الكلام .. كان يعرف أنهم يقذفون فيه من خلال مديحهم فى زوجته ..

ورغم ذلك فالفراغ لا يرحمها .. وأفكارها تستبد بها .. وشخصية زوجها لا تزال مسيطرة عليها .. والصمت يجمعهما داخل البيت .. لا تستطيع أن تصارحه بما تعانيه .. لا تستطيع أن تعلنه بأنها مريضة به .. وهى تعرف أنها ستقضى العمر كله دون أن تشفى .. لقد مضى على زواجها الآن أربعة وعشرون عاما .. وقد أصبحت فى الأربعين من عمرها .. وبقى ما بقى من العمر تقضيه فى هذا العذاب الصامت .. عذاب يشتد لأن زوجها كلما كبر فى العمر كلما ازداد إدمانا .. إدمان النساء .. ولكنه لا يتغير .. إنه لا يزال يحسب حساب كل شىء ويدفع الحساب تلقائيا .. بلا كلمة .. والتقلصات العصبية تزداد وتشتد .. يجب أن تعترف ..

يجب أن تلجأ إلى طبيب النفس لينقذها من نفسها ..

وجلست أمام الدكتور على عبد الله وهى تنظر إليه كأنها تنظر إلى زجاجة دواء لم تجربه بعد .. إنه ليس صغيرا فى العمر .. يبدو أنه تعدى الخمسين .. ربما اقترب من الستين .. ووجهه وقور وهـادىء .. وجسمه ممتلىء يتصدره كرش منتفخ انتفاخة صغيرة .. وقد شعرت

وهى تواجهه بالحرج .. إنها لن تستطيع أن تقول له كل شىء .. إنها تشعر أمامه بنوع من الخفر والاحترام كأنه صديق العائلة .. كأنه عمها أو خالها .. كيف تستطيع أن تقول كل شىء لعمها أو خالها ..

وقد استقبلها وبين شفتيه ابتسامة مريحة .. وحاولت أن تغرق نفسها فى هذه الابتسامة حتى ترتاح .. وأشار لها فجلست على المقعد المواجه لمكتبه .. وقالت فورا :

ـــ إنى متعبة يا دكتور ..

واتسعت الابتسامة المريحة بين شفتى الدكتور وقال :

ـــ قولى لى أولا .. هل هذا هو اسمك .. مدام عبد الغفور ..

ورفعت إليه عينيها فى دهشة المفاجأة ثم عادت وأرختهما فى خفر وقالت فى حياء :

ـــ لا .. ليس هذا هو اسمى .. ولكنى لا أريد أن أذكر اسمى ..

وقال الدكتور فى صوت هادىء من خلال ابتسامته المريحة ..

ـــ خسارة .. إن كثيرا من المرضى يفضلون ألا يذكروا أسماءهم الحقيقية .. وقد يكتفى الطبيب بالأسماء الكاذبة .. ولكن النتيجة ليست فى صالح المريض .. العلاج لا يكون كاملا أبدا فى هذه الحالة ..

وقالت ماجدة فى حدة وكأنها بدأت تثور على حياتها وتدافع عن نفسها :

ـــ لماذا تريد أن تعرف اسمى .. إنك ستعرف حكايتى .. وهذا يكفى ..

وقال الدكتور على هادئا مبتسما :

ـــ أنا لا أريد أن أعرف اسمك .. ولا يهمنى أن أعرفه .. ولكن ما

أريده وما يهمنى هو أن نبدأ بتبادل الثقة .. إن العنصر الأساسى فى العلاج النفسى هو تبادل الثقة بين المريض والطبيب .. والثقة تبدأ بالمصارحة .. والمصارحة تبدأ بتقديم الاسم الصحيح ..

وسكتت ماجدة فترة ثم قالت دون أن تنظر إليه :

ـــ اسمى ماجدة .. ماجدة مرتضى .. ولن أقول لك اسم زوجى .. لا أريد أن أقوله ..

وقال الدكتور على فى صوته الهادىء ..

ـــ على قدر ما أكسب ثقتك ستقولين وتتكلمين ..

والتفتت ماجدة إلى الأريكة الطويلة الممددة فى جانب الغرفة كأنها تتعجله أن يرقدها عليها لتحكى حكايتها .. ولكنه بقى جالسا فى مكانه وبدأ يتحدث إليها حديثا يحاول أن يكون عاديا .. ويضع أسئلته خلال الحديث كأنها ليست أسئلة إنما هما صديقان يتبادلان الذكريات .. جرها إلى حديث عن طفولتها .. وعن عائلتها .. وعن حياتها العامة .. ووجدت نفسها تتحدث فعلا فى بساطة كأنها فى زيارة عادية .. كأنها ليست هنا لأنها مريضة .. ثم قال الدكتور على وهو يقوم مبتسما من على مقعده :

ـــ لقد نسينا العلاج .. تعالى .. لنبدأ ..

وجذبها فى رفق وأرقدها على الأريكة .. ثم جلس خلف رأسها قائلا :

ـــ تكلمى عن أى شىء ..

وسكتت برهة كأنها نسيت حكايتها .. ثم وجدت نفسها تحكى عن أمراضها .. وماذا قال لها طبيب الصدر .. وماذا قال طبيب الكبد ..

وماذا قال طبيب العظام .. ثم بدأت تحكى حكايتها مع زوجها .. ودون أن تدرى وجدت نفسها تذكر اسمه .. عزيز .. والدكتور على صامت .. لا يقول إلا كلمات عابرة متباعدة كلما تعبت من الكلام إلى أن قال وهو يقوم إلى مكتبه :

ـــ يكفى هذا اليوم .. إننا فى حاجة إلى جلسات أخرى حتى أستطيع أن أكتشفك ..

قالت وهى تلقى نفسها على المقعد :

ـــ لا أدرى ماذا قلت .. يخيل إلى أنى مهما قلت فلن تستطيع أن تكتشفنى .. إنى لا أعرف ما بى حتى تكتشفه ..

وقال وهو يشملها بابتسامته المريحة :

ـــ إنك أقدر منى على تحليل نفسك .. وصدقينى .. إنى أستطيع الآن أن أقول لك ما بك .. ولكنى أفضل أن أنتظر .. حتى تتكلمى أكثر لعلى أستطيع أن أصل إلى أبعد .. وسأكتفى اليوم بأن أكتب لك نوعا من الدواء . إنها مجرد حبوب مهدئة .. تريحك ..

وتركته على موعد الزيارة القادمة ..

* * *

ووجدت ماجدة نفسها بعد أن عادت إلى البيت وكأنها تلوم نفسها .. لماذ ذهبت إلى هذا الطبيب .. ولماذا تكلمت كل هذا الكلام .. إنه كلام تقوله لنفسها فما حاجتها لأن تقوله لغريب حتى ولو كان طبيبا .. وبالعكس .. إنها لم تقل كل الكلام الذى كانت قد قررت أن تقوله .. لقد كانت تحس دائما أنها كانت جالسة مع رجل غريب وكان هذا الإحساس يمنعها تلقائيا من أن تقول كل شىء .. إن الطبيب

لا يستطيع أن يفتح بطن المريض إلا بعد أن يخدره .. بعد أن يضعه تحت البنج .. فلماذا لا يخدر الأطباء النفسانيون مرضاهم قبل أن يفتحوا نفوسهم .. حتى يستطيعوا أن يكتشفوا كل ما فى هذه النفوس كما يكتشف الجراح كل ما فى الجسد ..

ورفعت ماجدة زجاجة الدواء بين يديها ..

إنها أقراص مهدئة ..

إنها مخدر ..

لا .. لا يمكن .. لن تتناول هذه الأقراص .. إنه منتهى الضعف أن تخدر نفسها .. ونظرت إلى الزجاجة بعينين مرتاعتين وهى تتخيل أن ما فيها من أقراص ستنقض عليها لتلتهمها .. الأقراص هى التى تلتهمها وليست هى التى تلتهم الأقراص .. لو تناولت قرصا واحدا فستدمن الأقراص .. ستصبح عبدة لها لا تستطيع أن تنام إلا وهى تحت تأثيرها .. كأنها ستدمن الخمر .. أو تدمن الحشيش .. لا .. إن الأطباء مغفلون عندما يضعون مرضاهم تحت تأثير إدمان المخدرات .. إنهم مجرمون .. إنهم تجار مخدرات .. وفتحت درجا بعيدا من أدراج دولابها وألقت فيه بزجاجة الأقراص ..

ولكنها وجدت نفسها بعد أيام فى عيادة الدكتور على عبد الله ..

ودخلت إليه ووقفت أمامه وهى تنظر إليه نظرات فيها غل وسخط كأنها تكرهه لأنها اضطرت أن تعود إليه ، وقالت وهى تتجاهل وتهرب من ابتسامته المريحة :

ــ هل أرقد ؟

ونظر إليها فى دهشة ثم قال فى بساطة وابتسامته تتسع :

ــ تفضلى ..

وقالت وهى تلقى بجسدها على الأريكة الممددة :

ــ إنى أشعر بحاجتى إلى الكلام أكثر من حاجتى إلى الاستماع إليك ..

وقال وهو يجلس على المقعد خلف رأسها وهو يضحك ضحكة سريعة خافتة :

ــ وأنا أريد الاستماع قبل أن أبدأ فى الكلام ..

ومضت فترة وهى راقدة لا تتكلم وصدرها يعلو ويهبط كأنها تلتقط أنفاسها .. إلى أن بدأت تتكلم .. تكلمت بصراحة أكثر مما تكلمت فى المرة السابقة .. ولكنها لم تكن تشعر أنها فى كلامها تحكى حكاية ولكنها تنتقل من موضوع إلى موضوع دون أن تربط بين كل موضوع وآخر .. إنها تتحدث عن زوجها عزيز ثم تنتقل فجأة إلى التحدث عن أمها وأبيها ، ثم تقفز إلى الحديث عن علاقتها بإحدى صديقاتها ، ثم تجد نفسها تتحدث عن أولادها ، ثم تعود وتتحدث عن حكايتها مع زوجها عزيز ..

ومضت أكثر من ربع الساعة وهى تتحدث والطبيب جالس خلف رأسها يدون ملاحظاته فى صمت .. ثم فجأة انتفضت جالسة فوق الأريكة وقالت وهى تتنهد كأنه استراحت من أزمتها :

ــ كفى يا دكتور .. لعلى دوشتك بكلامى ..

قال مبتسما وهو ينتقل ليجلس خلف مكتبه :

ــ أبدا .. لقد عرفتك أكثر من كلامك .. تعالى .. هل أستطيع الآن أن أتكلم أنا .. وهل تشعرين أنك تستطيعين أن تفهمى كلامى

وتحتملينه ..

قالت ضاحكة وهى تجلس أمامه وتلقى نفسها فى ابتسامته المريحة :

ــ لعلى أستطيع أن أحتمل كلامك كما احتملت كلامى ..

قال فى هدوء من خلال ابتسامته :

ــ لقد كنت تتحدثين عن نفسك وأنا أيضا سأحدثك عن نفسك .. اسمعى .. إن كل ما يستطيع الطبيب النفسى أن يصل إليه هو مجرد استنتاج قائم على تحليل افتراضى .. أى أنى لن أستطيع أن أكتب لك علاجا محددا وأنا واثق أنك به ستغلبين على حالتك .. ولكنى كأنى أطلب منك أن تجربى محاولة قد تنجح أو لا تنجح فنبحث عن محاولة غيرها ..

قالت تقاطعه وهى تتنهد :

ــ لقد حاولت كثيرا يا دكتور .. جربت مئات المحاولات ..

قال وكأنه لم يسمعها :

ــ إن العقدة التى تعانين منها كما أتصورها قائمة على استسلامك لشخصية زوجك .. والعلاج الوحيد هو أن تنفصلى بشخصيتك عن شخصيته .. أن تفكرى لنفسك .. وتقررى لنفسك .. وتتحملى مسئولية نفسك .. ولا يربطك به إلا الواقع المشترك بينكما .. كمسئولية البيت والأولاد .. وخارج هذه المسئولية تتركيه هو أيضا كشخصية منفصلة .. إنه حر خارج مسئوليته عن البيت والأولاد .. وبحيث لا يعتدى بحريته عليك ولا تعتدين عليه بحريتك ..

وصاحت ماجدة فى حدة :

ــ كيف تكون لى شخصية مستقلة عنه وأنا زوجته وهو زوجى ..

وقال الطبيب فى هدوء :

ــ إن الحياة الزوجية مع استمرارها تتطور .. إنه يقال إن الزوج والزوجة يصبح كل منهما أكثر حرية عن الآخر بعد أن يدوم الزواج عمرا طويلا .. والواقع أنها ليست الحرية .. ولكنه استقلال الشخصية أى أن شخصية الزوج تصبح أكثر استكمالا لذاتها وكذلك شخصية الزوجة .. بحيث يعيش كل منهما دون أن يشعر بأنه مستسلم للآخر حتى مع ارتباطه به ..

وقالت ماجدة وهى حائرة لا تستطيع أن تستوعب كلام الطبيب :

ــ وكيف أستطيع أن أستقل بشخصيتى ؟

وقال الطبيب بسرعة :

ــ بأن تعتمدى أربعا وعشرين ساعة من اليوم على نفسك .. أن تبحثى لنفسك عن هواية تستغرقين فيها .. أو تبحثى عن عمل إذا كنت تتحملين العمل فى شركة أو فى مكتب أو فى بوتيك للأزياء .. أو انضمى إلى جمعية النور والأمل أو تحسين الصحة أو أى جمعية تجعلك تشغلين نفسك بهموم المرضى والفقراء .. واملئى حياتك الاجتماعية بالأصدقاء والصديقات .. لا تتركى فى حياتك فراغا .. إن الفراغ هو أقسى عدو لك .. إنه مرضك .. وصدقينى لولا الفراغ لما جئت إلى ولوجدت علاجا أجدى من أى علاج يمكن أن أصفه لك ..

وكانت ماجدة تستمع إليه وهى ساهمة كأنها غير مقتنعة بما يقوله ، ثم قالت :

ــ لقد قلت إن من حق الزوج أن يحتفظ بحريته دون أن يعتدى على حرية زوجته .. ألا يعتبر معاشرة زوجى للنساء اعتداء على ..

وقال الطبيب من خلال ابتسامته المريحة الهائمة :

ـــ إنى أتكلم على أساس أن حالة زوجك حالة ميئوس منها .. لا يمكن بعد هذا العمر الطويل أن تغيرى من طبيعته أو من شخصيته .. ولا يمكن أيضا بعد هذا العمر أن تفكرى فى الطلاق وفى هدم بيتك .. إنى أتحدث عن علاج حالتك مع بقاء زوجك على حالته ومع بقاء البيت سليما .

وقالت وهى غارقة فى اليأس :

ـــ سأحاول ..

ورفع الدكتور على عبد الله قلمه وهم أن يكتب فوق أوراقه وقالت ماجدة بسرعة :

ـــ أحب أن أقول لك إنى لم أتعاط الأقراص التى أعطيتها لى فى المرة السابقة .. إنى لا أحب أن أشعر بأنى أعتمد على المخدرات .. لو كنت أريد المخدرات لأدمنت الويسكى أو غيره بدلا من أن ألجأ إليك ..

وقال الطبيب فى هدوء :

ـــ هذا نوع من أنواع العلاج .. أن أضع أمامك الدواء وأتركك حرة أمامه .. ورفضك تعاطى الدواء وهو أمامك علاج أقوى من أن تتعاطيه .. إنه يرفع من شخصيتك حتى تصبح شخصية أقوى من الدواء .. وسأكتب لك عن أقراص أخرى .. إنها أقوى مفعولا .. ضعيها أمامك ولا تلجئى إليها إلا عندما تشتد بك الأزمة وحاولى أن تهربى بها من آلامك .. ومن الفراغ ..

وسكتت ماجدة ..

ومدت يدها وأخذت روشتة الدواء ثم قامت واقفة ، وعاجلها

الطبيب قائلا وهو يغمرها بابتسامته المريحة :

ـــ هل تقبلين نصيحة أخرى ..

وقالت بلا اهتمام :

ـــ تفضل ..

وقال وهو لا يزال جالسا على مقعده :

ـــ إذا حاول زوجك أن ينام معك فاعتذرى .. ارفضى ..

وقالت فى دهشة :

ـــ لماذا ؟

وقال من خلال ابتسامته :

ـــ لقد فهمت من كلامك أنك لم ترفضيه أبدا .. وهذه قمة حالة الاستسلام .. حاولى أن ترفضيه مرة لتفرضى عليه شخصيتك .. لتثبتى استقلال شخصيتك .. ثم حاولى بعد ذلك أن تحددى أنت متى يأخذك .. أى أن تبدئى به بدل أن يبدأ بك .. ستكون حالة جديدة فى حياتك الزوجية قد تؤدى إلى تغيير الحالة لصالحك ..

وقالت وهو يقوم ويودعها :

ـــ سأحاول ..

وخرجت دون أن تطلب تحديد موعد آخر ومرت على الصيدلية واشترت الأقراص القوية المفعول .. وعادت إلى بيتها وهى ساهمة .. ماذا قال لها الطبيب ؟

لم يقل شيئا يمكن أن يبدل حياتها .. إنها لا تعيش فى فراغ .. وهى تتعمد أن تملأ يومها كله منذ أن تفتح عينيها حتى تغمضهما .. وهى تهوى الحياكة وتعطى ساعات طويلة لهوايتها .. إنها لا تزال تحيك ملابسها الخاصة وملابس زوجها وملابس أولادها .. وهى منذ سنوات

طويلة وهى تتعمد أن تملأ أيامها بالصديقات والزيارات والحفلات .. وقد مرت فترة انضمت فيها إلى الجمعية الخيرية النسائية ولكنها لم تمكث فيها طويلا .. لم تجد شيئا تفعله هناك للمرضى ولا للفقراء .. كان كل المطلوب منها أن تجلس مع رئيسة الجمعية .. وتنافق رئيسة الجمعية .. وتكسب رضاء رئيسة الجمعية .. وتجمع الأموال لتعطيها لرئيسة الجمعية .. إن الجمعية ليست لخدمة المرضى الفقراء ولكنها لخدمة رئيسة الجمعية .. ولم تستطع أن تتحمل النفاق ولا أن تكون من شلة رئيسة الجمعية .. فابتعدت .. ونسيت الجمعية ونسيتها الجمعية .. ولا شيء جديدا عليها قاله لها الطبيب .. إن كل ما عاد عليها من زيارتها لهذا الطبيب أنها أصبحت تعترف لنفسها بأنها مريضة نفسيا .. لقد نقلها إلى حالة أقرب إلى حالة الجنون .. كانت قبل أن تذهب إليه تنكر على نفسها هذه الحالة .. ترفض أن تعترف بأنها مجنونة .. وكان ذلك يساعدها على الهرب من نفسها .. يساعدها على المقاومة ..

ورفعت زجاجة الدواء وألقت بها فى الدرج البعيد من دولابها .. إنهم ليسوا أطباء .. إنهم تجار مخدرات ..

ثم حدث فى ليلة أن هم زوجها أن ينام معها .. كما هى العادة .. صامت .. يقوم بواجباته ويؤدى مسئولياته .. وقد نصحها الطبيب أن ترفض .. هل ترفض .. وهى راقدة .. ساهمة .. تفكر هل ترفض ؟ أم لا ترفض .. لماذا ترفض .. لماذا تخسر لحظة من لحظات المتعة بحجة أنها تريد أن تثبت شخصيتها .. إن زوجها جزء من شخصيتها فكيف ترفض جزءا منها .. وماذا لو رفضت .. إنه سيدير ظهره لها فورا وربما يحمد الله على أنها أعفته من مسئولياته ووفرت قوته وحيويته لامرأة أخرى ..

وتركته يأخذها وهى مستسلمة لا تزال ساهمة تسائل نفسها هل

ترفض أم لا ترفض ..

وبعد أن ابتعد عنها زوجها أحست فجأة بتقلصات عنيفة فى أمعائها .. وقفزت من الفراش وقامت تجرى إلى الحمام وتقايأت كأنها تلفظ كل أمعائها ..

واستمرت آلامها فى اليوم التالى .. هل تذهب إلى طبيب الأمعاء .. لا .. لقد أصبحت مقتنعة بأنها ليست مريضة جسديا ولكنها مريضة نفسيا .. وربما كان ما أصابها هو نتيجة لنصيحة الطبيب النفسى بأن ترفض زوجها عندما يريدها .. إن تفكيرها فى هذه النصيحة هو الذى أدى إلى تقلص أمعائها وإلى هذه الآلام .. وستبقى أياما إلى أن تنسى وتهدأ معها أمعاؤها ..

والأيام تمر ..

وحالتها كما هى ..

هل تعود إلى الدكتور على عبد الله .. لا .. لقد قال لها إن ما يدفعها إليه هو أوقات الفراغ .. فلتملأ فراغها .. لتذهب إلى زيارة أو تذهب إلى السينما بدلا من أن تذهب إلى الطبيب ..

ولكنها بدأت تسمع عن طبيب نفسى آخر ..

إنهم يقولون إنه طبيب تعلم فى أمريكا .. ومارس الطب النفسى هناك حتى أصبح من أشهر الأطباء الأمريكان ، ثم عاد إلى مصر لأنه لم يستطع أن يتخلى عن بلده ولم يهن عليه أن يحرم أهله من علمه .. وهو عجيب .. غريب .. إنه ساحر .. إن لمسة من يده تحيل أجن المجانين إلى أعقل العقلاء .. هكذا يقولون ..

هل تذهب إليه ؟؟

لتجرب ..

٢

وقفت ماجدة أمام الدكتور مصطفى الميسورى وهى تكاد تضحك ، وتقاوم ضحكتها بابتسامة تنطلق على شفتيها .. لم تكن تتصور أن الطبيب الذى تعلم فى أمريكا وعاش واشتهر هناك يمكن أن يكون بهذا الشكل أو بهذه الشخصية التى تثير الضحك .. ولعل أغرب ما فوجئت به كانت ذقنه .. إنه يطلق ذقنا طويلة كثيفة تكاد تغطى عنقه .. سوداء .. غارقة فى السواد . وهى ليست ذقنا مشعثة كالتى يطلقها بعض الفنانين.. وليست ذقنا مسترخية فى هدوء كالذقون التى يطلقها رجال الدين ..

إنها ذقن مقصوصة من أول شاربه قصا هندسيا منظما متعمدا وتبدو فى شكل مستطيل مستقيم الأضلاع وكأنه يعلق فوق عنقه تابوتا أسود يحمل فيه أسرار مرضاه .. وفى الوقت نفسه يطلق فوق رأسه شعرا مشعثا يتدلى هائشا فوق قفاه ويسقط على وجنتيه حتى يكاد يغطيهما .. كأنه لا يستعمل المقص إلا لخدمة ذقنه ويحرمه على شعر رأسه .. وبين شعر رأسه وذقنه تكاد لا تبدو إلا عيناه .. عيناه واسعتان منطلقتان تختلط فيهما الألوان بين الأسود والعسلى .. ولا شك أن فى هاتين العينين قوة جذب .. إنها تحس أنهما تجذبانها .. ولكنها لا تدرى هل تجذبانها لتضحك أم لتخاف .. وهو يبدو أصغر مما تصورته .. لعله فى الأربعين أو أكثر بعام أو عامين .. فى مثل سنها .. وقوامه فاره ممشوق ولكنه

غريب فى الزى الذى يرتديه .. إنه خليط بين الزى العادى المحافظ والزى الحر المنطلق الذى نشاهده على الرجال فى أفلام السينما .. يضع رباط عنق وفى الوقت نفسه فيه شىء من زى رعاة البقرة ..

وظلت معلقة بعينيه وبين شفتيها الابتسامة التى تكتم بها ضحكتها ..

واستقبلها بابتسامة لا تكاد تبدو من خلال شعرات ذقنه الكثيفة ..

وأشار لها صامتا يدعوها إلى الجلوس على المقعد .. ثم أدار لها ظهره ووقف برهة ينظر من الشباك .. ثم فجأة استدار وألقى نفسه على مقعده خلف مكتبه وهو ينظر إليها بكل عينيه :

ـــ والآن لنبدأ .. من أنت ؟

وقالت وهى تنظر إليه فى تعجب وابتسامتها لا تزال بين شفتيها :

ـــ أنا ماجدة مرتضى ..

وقال وهو يتنهد كأنه يسخر من جهلها :

ـــ لا يهمنى اسمك .. إن مساعدى الذى استقبلك قبل أن أراك سجل اسمك وكل ما يخصك من معلومات عامة .. وعندما أسألك من أنت .. فإنى لا أسألك عن اسمك ولا عن سنك .. أسألك أن تحدثينى عن شخصيتك ..

وقالت كأنها تتحداه :

ـــ أعتقد أن اكتشاف الشخصية هو من مسئولية الطبيب النفسى ..

وقال فى حدة :

ـــ بالعكس .. إن كل فرد مسئول عن اكتشاف شخصية نفسه .. وأسباب الأمراض أن الفرد المريض يخطىء فى اكتشاف شخصيته .. وسأستمع إليك وأنت تحللين شخصية نفسك وفى الوقت نفسه سأكون

أنا الآخر أحلل هذه الشخصية .. وقد نتفق فى التحليل وقد نختلف ..

وصمتت برهة كأنها تقنع نفسها بكلامه ثم أرخت عينيها وقالت كأنها تحادث نفسها :

ـ إنى لم أحاول أن أبحث عن شخصيتى إلا بعد أن تزوجت .. قبل ذلك كنت صغيرة و لم أكن أعرف عن نفسى إلا أنى جميلة .. كلهم يقولون إنى جميلة وأنا متباهية بأنى جميلة .. وبعد أن تزوجت و ..

وقاطعها الدكتور مصطفى قائلا فى هدوء :

ـ كيف تزوجت ؟

وأجابته ساخرة :

ـ ما يسمونه زواج العقل .. ليس عقلى .. ولكن عقل أهلى .. وقد فرحت أيامها بهذا الزواج ..

وقال الطبيب بسرعة :

ـ ألم تعرفيه قبل أن يتقدم إليك ..

وقالت بسرعة :

ـ لا .. أنه أكبر منى بعشر سنوات ..

وقال الطبيب كأنه يتعمد أن يوجهها إلى الطريق الذى تتحدث منه ..

ـ وبعد أن تزوجت .. متى بدأت تبحثين عن نفسك ؟

وقالت وهى سارحة :

ـ لقد مرت شهور طويلة وأنا مستسلمة .. مستسلمة فى سعادة صامتة .. كنت أعتقد أن هذه هى الحياة الزوجية .. وهذا هو الرجل .. كل رجل .. إلى أن ...

وقطعت كلامها ورفعت إليه عينيها وقالت وكأنها ترجوه :

ـ هل أستطيع أن أرقد على الأريكة حتى أحكى وأنا مرتاحة أكثر ..

وقال الدكتور مصطفى فى امتعاض :

ـ إن الأريكة موجودة أمامك . وهى الطريقة التقليدية القديمة لدى الأطباء النفسانيين .. أن يتمدد المريض على الأريكة كأنه ممدد على منضدة العمليات لدى طبيب جراح .. أنا لا أتمسك بهذه التقاليد .. تستطيعين أن تحكى وأنت جالسة فى مكانك .. أو تحكى وأنت واقفة على قدميك تنظرين من الشباك .. أو وأنت تروحين وتجيئين على قدميك فى طول الغرفة .. أو ترقدين على الأريكة لو أردت .. المهم أن تنسى أننى موجود معك .. وأنك تتحدثين إلى طبيب .. تحدثى إلى نفسك .. لا تحادثينى أنا .. حادثى نفسك ..

وأدار المقعد الذى يجلس عليه حتى أصبح ظهره فى مواجهتها كأنه يساعدها على أن تنسى وجوده .. وابتسمت مستسلمة لهذا الطبيب وبدأت تحكى وهى جالسة على مقعدها تنظر فى الهواء .. ثم بعد فترة قامت واقفة وأخذت تروح وتغدو فى الغرفة وهى تتكلم .. تحكى .. ثم بعد فترة ألقت بنفسها ومددت جسدها على الأريكة .. ثم اعتدلت وأصبحت جالسة على الأريكة .. ثم عادت ومددت جسدها .. وهى تحكى.. وأحست أنها حكت أكثر مما حكت للطبيب الأول .. وكانت أجرأ فى سرد التفاصيل .. تفاصيل ما يحدث بينها وبين زوجها حتى فى الفراش .. وكانت بين الحين والحين ترفع عينيها إلى الطبيب .. إنه بقى جالسا على مقعده وظهره لها وقلمه وأوراقه بين يديه .. حتى عندما

تمددت على الأريكة لم يترك مقعده ويجلس خلف رأسها كما كان يفعل الدكتور على عبد الله وكما تعود الأطباء النفسانيون ..

وشعرت كأنها بدأت تفيق .. كأنها قالت كل شىء وارتاحت .. وتركت الأريكة وعادت إلى المقعد بجوار مكتبه وهى تقول :

ــ أظن أنى قلت كل شىء ..

واستدار لها وابتسامة ضيقة تطل من خلال شعرات ذقنه الطويلة التى تبدو وكأنها تابوت الأسرار .. ثم نظر إلى ساعته قائلا :

ــ بقيت لك عشر دقائق .. أستطيع خلالها أن أتكلم أنا ..

ثم شد ورقة وهم أن يكتب عليها ، وخيل إليها أنه سيكتب لها عن نوع من الدواء .. أقراص مهدئة أو منومة كما تعودت .. فعاجلته قائلة :

ــ ألم أقل لك إنى كنت أتردد على طبيب نفسى آخر أوصانى بكثير من الأدوية ..

ورفع إليها عينيه الواسعتين وقال فى برود :

ــ هل هو طبيب مصرى ..

وقالت بسرعة :

ــ نعم .. هل تريد أن تعرف اسمه ..

وقال فى برود :

ــ لا يهم .. إنى أعرف ماذا قال وبماذا أوصاك من أدوية ..

وقالت فى دهشة وهى مغتاظة من غروره :

ــ ماذا قال لى .

قال وابتسامة ساخرة تلمع من خلال شعر ذقنه :

ــ ألقى عليك درسا فى مكارم الأخلاق ونصحك بأن تشغلى وقتك

بهواية أو بعمل أو بالمجتمع حتى تستقلى بشخصيتك وتنسى شخصية زوجك ..

قالت وكأنها تتحداه :

ــ وماذا تقول أنت ..

ونظر إليها من خلال عينيه الواسعتين كأنه يشفق عليها من نفسها ، ثم ألقى بقلمه واستراح على مقعده ورفع أصابعه وغرزها فى شعر ذقنه وقال فى هدوء :

ــ إن حالتك حالة عادية تنطبق على نسبة كبيرة من الزوجات والأزواج .. إنها حالة تعارض وتناقض الشخصية بين الزوج والزوجة .. والحل الوحيد هو أن تتطور إحدى الشخصيتين بحيث تقترب من الأخرى .. وشخصية زوجك تبيح له حق المعاشرة الجنسية مع أى امرأة .. بل إنها تعتبر أن هذا الحق هو حق طبيعى لا يمكن أن يعتبر شذوذا أو مرضا أو ضعفا إنما هو مجرد استكمال لمطالب الإنسان .. وعلى الأخص مطالب الرجل .. فى حين أن شخصيتك أنت تفرض عليك ما تسمينه بالإخلاص الجنسى أو التعفف الجنسى .. فالمرأة تكون لرجل واحد وخاصة إذا كان هذا الرجل هو الزوج .. وأنت أيضا تعتبرين أن هذا الفرض هو فرض طبيعى يكفى احتياج المرأة .. وهذا هو التناقض فى الشخصية بينك وبين زوجك إذ اقتنعت بأن شخصية الرجل تتوازن موازنة كاملة مع شخصية المرأة أى تتساوى معها خصوصا فى احتياجات طبيعة كل منهم .. والحل كما قلت لك هو أن تتطور إحدى الشخصيتين بحيث تتقارب من الأخرى .. وشخصية زوجك من الصعب أو لا يمكن أن تتطور لأنها تجمدت على الوضع الذى تعيشه منذ عشرات السنين ثم

إنه لا يحس بحاجته للتطور وليس هناك ما يلح عليه حتى يحاول أن يتطور .. أما أنت .. فإنك فى حاجة إلى تطوير شخصيتك ».

قالت وأنفاسها تتهدج فى عصبية :

ـــ كيف ؟

قال فى هدوء وأصابعه تلعب بشعرات ذقنه الطويلة :

ـــ هناك أولا العنصر الأساسى الذى يكون شخصيتك .. وهو العنصر القائم على إحساسك بأنك امرأة جميلة .. منذ طفولتك وأنت تعيشين هذا الإحساس ، ولكن تصرفات زوجك وإدمانه لغيرك من النساء جعل هذا العنصر يهتز .. جعلك تفقدين ثقتك فى شخصيتك واعتمادك على هذه الشخصية .. كيف تكونين جميلة وأنت لا تكفين هذا الرجل أى زوجك .. وعندما فقدت ثقتك فى شخصيتك أصبحت ضعيفة أمامه مستسلمة لشخصيته .. معنى هذا أنه لكى تستردى شخصيتك يجب أن تستردى ثقتك فى جمالك .. وحتى تستردى هذه الثقة يجب أن تشعرى بأن جمالك مرغوب .. أى مرغوبة من الرجال .. وأن تمارسى التحكم فى هذه الرغبة .. أن تشعرى بأنك سلطانة تمنح من تريد وتحرم من تريد .. فإذا وصلت إلى هذا فإنك فى الوقت نفسه وصلت إلى حد الموازنة والمساواة بين شخصيتك وشخصية زوجك ..

وصرخت وهى مذهولة مما تسمعه :

ـــ هل تريدنى أن أكون لغير زوجى من الرجال .. مستحيل ..

وقال وابتسامة صغيرة تلمع من خلال ذقنه كأنه يريد تهدئتها :

ـــ إنى أعرف أن شخصيتك تخضع لكثير من التقاليد المتحفظة .. ولكن .. لو حدث هذا ومارست العلاقة مع رجل آخر فإنك تصلين إلى

إحدى نهايتين كلتيهما فى صالحك .. إما أن تندمى على ما فعلت وتعيشى وأنت تلومين نفسك وفى هذه الحالة فإن الندم واللوم سيجعلانك تنسين مشكلتك مع زوجك وتقتربين منه أكثر .. وإما أن تعتادى هذه العلاقة مع الرجل الآخر فتصبح لك حياة خاصة بجانب الحياة الزوجية كما أن لزوجك حياته الخاصة بجانب حياته معك .. وبذلك تتساويان فى الشخصية وتستقر حالتك النفسية ..

وبقيت برهة صامتة وعيناها معلقتان بعينيه الواسعتين وذقنه الطويلة ثم وضعت على شفتيها ابتسامة حاولت أن تكون ابتسامة ساخرة ثم قالت :

ـــ هل هذا ما يفعله النساء فى أمريكا ؟

وقال وهو يقوم من على مقعده ويتجه إلى الشباك كأنه انتهى من مهمته :

ـــ إن المجتمع الأمريكى مجتمع واقعى .. كما أنه واقعى ماديا فهو أيضا مجتمع واقعى نفسيا .. وقالت وهى تجرى بعينيها وراءه :

ـــ إنه مجتمع ينسى أن هناك فارقا بين الرجل والمرأة ..

والتفت إليها وقال فى قرف كأنه قرفان من جهلها :

ـــ إنه فارق فسيولوجى وليس فارقا نفسيا ..

ثم مال على مكتبه والتقط ورقة سبق أن كتب عليها ، ومد لها يده بها قائلا :

ـــ لا تكثرى من تناول هذه الأقراص .. قرص واحد فى اليوم .. إذا شعرت بأنك فى حاجة إليها ..

وقالت وهى تتناول الورقة ساخرة :

ــ وما جدوى هذه الأقراص ؟!

وقال من خلال ابتسامته الضيقة التى تطل من خلال شعرات ذقنه :

ــ لن أقول لك جدواها .. ولا أحتم عليك تناولها إنما أتركك تحددين أنت حاجتك إليها .. وهى حاجة تقوم على الثقة فى أنا .. فإذا كنت قد اقتنعت بى وأحسست أنك فى حاجة إلى أن تجربى هذه الأقراص فجربيها .. لن يكون لها مفعول أو جدوى إلا على أساس مدى ثقتك فى .. إن الثقة هى الدواء الأساسى الذى يعتمد عليه الطبيب النفسى ..

وقالت وهى دهشة من كلامه وعيناها تطوفان بشعر رأسه المشعث وذقنه المقصوصة قصا هندسيا كأنه تابوت أسود يحفظ فيه أسرار مرضاه :

ــ ومتى أعود إليك ..

قال فى بساطة :

ــ أفضل أن تعتمدى على نفسك .. سأراك بعد عام حتى أطمئن عليك ..

وقالت فى دهشة :

ــ عام كامل ؟!

وقال بنفس البساطة :

ــ لو حددنا اليوم موعدا لجلسة قادمة فستبقين معتمدة على انتظار هذه الجلسة وأنا أفضل أن تعتمدى على نفسك .. هذا أفضل لك ..

ومدت يدها تلتقط حقيبتها .. ربما كان هذا هو الأسلوب الحديث فى العلاج النفسى .. ورفعت إليه عينيها وعاودها الإحساس بأن تهم أن

تضحك .. وأخفت ضحكتها خلف ابتسامتها .. وتركت الدكتور مصطفى ..

* * *

وخرجت ماجدة إلى الشارع وابتسامتها لا تسقط عن شفتيها .. ومرت على الصيدلية واشترت زجاجة الدواء وأسقطتها فى حقيبتها دون أن تنظر إليها أو تقرأ ما هو مكتوب فوقها وعادت إلى بيتها وخيالها كله معلق بهذه الذقن الطويلة السوداء وهاتين العينين الواسعتين التى كانت مشدودة إليهما .. ربما كان الدكتور مصطفى على حق .. لا شك أن هذا هو ما يحدث فى أمريكا .. أن يكون للزوجة رجل آخر مادام الزوج قد أعطى لنفسه الحق فى أن تكون له امرأة أخرى .. ولكن أمريكا دنيا أخرى .. ومجتمع آخر غير مجتمعنا .. إن الجنس هناك ليس مشكلة .. إنه مجرد طبيعة إنسانية أو حيوانية كالأكل والشرب .. ولم يعد هناك فرق بين الرجل والمرأة خصوصا بعد اكتشاف وسائل منع الحمل .. حبة واحدة تتناولها المرأة فتحقق المساواة الجنسية بينها وبين الرجل .. وهم هناك يتجاهلون كل شىء فى سبيل الاستسلام لهذا الواقع .. الواقع النفسى كما يقول الدكتور مصطفى .. يتجاهلون حتى تعاليم الدين .. إن الدين المسيحى أيضا يحرم هذه الحرية أو هذه الفوضى ولكنهم يتجاهلونه .. وقد سمعت قصصا كثيرة عما يحدث فى أمريكا .. إنهم يدرسون أسرار الجنس فى المدارس .. وتبدأ الدراسة بمدارس الأطفال .. وهم يتحدثون عنه فى الإذاعة وفى التليفزيون .. وقد قالت لها صديقتها مديحة التى عادت أخيرا من أمريكا إنها كانت تجلس أمام التليفزيون الأمريكى هى وابنتها تشاهدان برنامجا خاصا بالمراهقين والمراهقات ..

وكان فعلا يعرض برنامجا هاما عن حياة المراهقين .. ولكن بدأ البرنامج يعرض قصة قصيرة سريعة وإذا بها تفاجأ فى السادسة عشرة من عمرها وهى بطلة هذه القصة تقول لأمها إنها قررت أن تتحرر من بكارتها .. سئمت أن تكون بكرا .. ولكنها حائرة .. هل تذهب إلى طبيب أو تعتمد على صديقها ابن الجيران .. وما كادت مديحة تسمع هى وابنتها هذا الكلام حتى أطفأت التليفزيون وقررت أن تعود بابنتها إلى مصر .. وابنتها دهشت .. ثائرة .. لا تدرى لماذا أطفأت أمها التليفزيون ولماذا تعود بها إلى مصر ..

وقد عاشت مديحة فى أمريكا أكثر من خمسة عشر عاما ، وقد روت حكاية غريبة حدثت لها وهى فى عامها الأول هناك ..

لقد أصبحت صديقة لجارتها .. وهى زوجة فى مثل عمرها .. والصداقة هناك ليست كالصداقة عندما .. إنها أقرب إلى ما نسميه معرفة .. أى مجرد تعارف بين الناس .. وهو تعارف أو صداقة تقوم وتستمر مع تبادل الاحتياجات وتبقى منسية طوال أيام الأسبوع إلى أن تنطلق فى سهرة يوم السبت .. ليلة الأحد يوم الأجازة .. وهى تنطلق إلى آخرها فى هذه الليلة .. يضحكون ويرقصون ويسكرون ويتبادلون كل ما يخطر على بال كل منهم من كلام ..

وقد دعتها صديقتها هى وزوجها إلى العشاء فى يوم من أيام السبت .. وكانوا أربع زوجات وأربعة أزواج .. وأكلوا وشربوا ورقصوا وضحكوا .. وقبل نهاية السهرة إذا بزوج صديقتها يجمع ثمانى ورقات من أوراق الكوتشينة .. ويرصها على المائدة كل أربع ورقات على حدة .. وسألت مديحة .. ما هذا .. وقال الزوج صاحب السهرة

ضاحكا .. ألا تعرفين .. إنها لعبة الحظ .. من منا من نصيب الآخر هذه الليلة .. وهذه الأوراق تضم أربع أوراق متشابهة .. أى ورقتين من الشايب .. وورقتين من البنت .. وورقتين من الولد .. وورقتين من العشرة .. وكل أمرأة تسحب ورقة وكل رجل يسحب ورقة .. واللذان يسحبان ورقتين متشابهتين يكونان لبعضهما هذه الليلة .. والتعيس الحظ هو الذى يسحب ورقة مشابهة لورقة زوجته ..

وفهمت مديحة .. إنها لعبة تبادل الأزواج والزوجات ..

ونظرت إلى زوجها متسائلة فى فزع .. وابتسم زوجها ثم اعتذر ضاحكا عن عدم الاشتراك فى هذه اللعبة وأخذ زوجته عائدا إلى بيتهما ..

وفى اليوم التالى .. مساء يوم الأحد ذهبت مديحة إلى صديقتها الأمريكية لبعض احتياجاتها فوجدتها جالسة مع زوجها يتضاحكان وكل منهما يروى للآخر ما حدث له ليلتها مع الزوجة الأخرى ومع الزوج الآخر ..

واستعادت ماجدة كل هذه القصص وهى تتساءل :

ـــ هل يريد الدكتور مصطفى أن يقلب المجتمع المصرى إلى مجتمع أمريكى .. وهل سبق أن اشترك هو نفسه وزوجته فى لعبة تبادل الزوجات ؟

ولكن ما لها ومال المجتمع المصرى أو الأمريكى ..

إن الدكتور مصطفى لم يكن يعالج المجتمع .. إنه يعالجها هى .. إنها حالة مرضية شخصية ..

وربما كان على حق فى العلاج الذى وصفه لها .. إنها إما أن تنتهى إلى لوم

ويثير اهتمامها به .. وعندما يقوم ويراقصها فى المرات القليلة التى قبلت دعوته تحس بتردده فى أن يضمها إليه بأكثر مما يتطلبه الرقص .. يتردد لأنه كبقية الناس يعلم أنها متيمة بزوجها عزيز .. مخلصة .. شريفة .. وهى حريصة على أن تبقيه كما هو ولا تشجعه على أن يتحرر من تردده .. ورغم ذلك فهو لا يفقد الأمل .. إنه يوجه إليها كثيرا من الدعوات .. دعوات على العشاء .. ودعوات لقضاء يوم الجمعة فى الحدائق التى يملكها بالفيوم .. والدعوة لها ولزوجها ولكنها تحس أنها دعوة لها وحدها .. هى التى يريدها .. وهى التى يدعوها .. وربما كان زوجها قد فهمه واكتشف نياته .. إن كليهما يشتركان فى هواية واحدة .. هواية صيد النساء .. ويعرفان كيف يستعملان السنانير .. لذلك فهو لا يحب فؤاد ويتعمد الاعتذار عن كثير من دعواته .. وتستسلم لاعتذاره وهى فرحة .. فرحة بغيرته عليها .. ولو أنها غيرة صامتة لا يفصح عنها .. وفؤاد لا ييأس .. إنه أكثر من مرة يتصل بتليفون البيت وهو يعلم قطعا أن زوجها لا يمكن أن يكون فى البيت فى هذا الوقت .. وإذا ردت عليه الخادمة وقالت له إن السيد غير موجود طلب أن يحادث السيدة .. وتحادثه وهى تعلم نياته فتتعمد أن يكون حديثها أقرب إلى البلاغات الرسمية .. حديث سريع جاف .. حتى تتركه فى يأسه ..

والآن ..

لماذا لا تجرب فؤاد ..

إنها تعرف كيف تبدأ ..

ستنتظر إلى أن يتحدث فى التليفون وتلين فى حديثها معه حتى تشجعه أن يتحدث مرة ثانية .. وفى المرة الثانية ستشجعه ليتحدث مرة ثالثة ..

وفى المرة الثالثة ستقول له إنها مشغولة وتطلب منه رقم تليفونه الخاص الذى تستطيع أن تتصل به إليه .. وبهذا يبدأ تبادل التليفونات بينهما .. ويجب أن تستمر مرحلة التليفونات طويلا .. أسابيع .. لا شىء أكثر من التليفونات .. إلى أن تدعى أنها لم تعد تستطيع المقاومة وتقبل دعوته إلى لقاء .. أين .. إنها لا تدرى .. لا تعرف كيف ولا أين تلتقى الزوجة برجل آخر .. لا يمكن أن تلتقى به فى حديقة .. أو فى مقهى .. أو فى السيارة .. إنها ليست مجرد فتاة أو امرأة حرة .. إنها زوجة .. ربما كان أضمن لقاء هو لقاء فى بيت إحدى صديقاتها .. ولكن ليس لها صديقة يمكن أن تبادلها مثل هذه الحياة .. أو مثل هذه الأسرار .. ولكن لماذا تشغل نفسها بمكان اللقاء .. لتتركه هو يعرض وهى تقرر ..

وفجأة أفاقت ماجدة من خيالها ولوت شفتيها فى قرف .. قرفانة من خيالها ومن نفسها .. لا .. لا يمكن أن تبدأ بفؤاد .. إنه زوج صديقتها .. وما لبثت أن ارتفعت إلى شفتيها ابتسامة ساخرة .. إن زوجته ليست صديقتها .. إنها لم تعرف فؤاد عن طريق زوجته .. لقد عرفته منذ كان يشترك مع زوجها فى إحدى العمليات وهو الذى قدم زوجته إليها .. وحتى لو كانت صديقتها .. إنها تسمع عن كثير من الصديقات كل منهن على علاقة بزوج صديقتها .. ربما كان المجتمع العربى كالمجتمع الأمريكى يعترف بتبادل الأزواج والزوجات ولكنه يختلف عن المجتمع الأمريكى فى أن عمليات التبادل تتم تحت الستارة الشرقية .. تحت العباءة .. تتم فى السر .. فى الخفاء .. وفى وقار الشرق الذى يكتفى بإطلاق لحية الرجل ووضع البرقع على وجه المرأة ..

ولكن لا .. لا يمكن .. إن ابن فؤاد زميل لابنتها نيفين فى الجامعة ..

ماذا يمكن أن يحدث لو اكتشفت ابنتها أن لها علاقة بفؤاد .. ربما قررت أن تقلدها فتصبح هى الأخرى على علاقة بابن فؤاد .. البنت لأمها .. وحتى إذا لم تحاول أن تقلدها .. ماذا تكون نظرة ابن فؤاد لها إذا علم أن أباه على علاقة بأمها .. إنها ابنة عشيقة أبيه .. لابد أنه سينظر إليها على أنها هى الأخرى يمكن أن تكون عشيقة .. عشيقته أو عشيقة غيره .. إن قيمة البنت فى نظر الناس ترتبط بقيمة أمها .. إن ابنة الراقصة تبقى فى نظر الناس ابنة راقصة حتى لو نالت الدكتوراه من جامعة الأزهر .. وستبقى نيفين دائما ابنة عشيقة فؤاد .. ولكن من أين ستكتشف نيفين علاقتها بفؤاد إذا حدثت .. إنها ستكون حريصة على أن لا تعلم نيفين شيئا ولا تشك فى شىء .. وفؤاد أيضا .. لابد أنه سيحرص على أن تبقى علاقتهما سرا على المجتمع كله .. وابتسمت ماجدة ابتسامة حزينة .. إنها لا يمكن أن تخفى شيئا عن ابنتيها .. لا عن ابنتها نيفين ولا عن ابنتها سلوى .. إن البنات يعشن فى داخل أمهاتهن ويفهمن ويتجاوبن معهن حتى بلا كلام .. بعكس الأولاد .. إنها تخفى الكثير عن ابنيها ولكنها لا تستطيع أن تخفى شيئا عن ابنتيها .. بل إنها واثقة أنهما تعلمان بترددها على الطبيب النفسى رغم أنها لم تقل لهما حتى اليوم .. بل إنهما لا شك تعلمان بسر الأقراص المنومة التى تلقيها فى الدرج البعيد من دولابها ..

لا ..

فؤاد لا يصلح لتبدأ به ..

لماذا تحصر تفكيرها داخل المجتمع الضيق الذى تعيش فيه .. لماذا لا تكون مثل صديقتها زوزو .. إن زوزو تعيش حياة خاصة واسعة تخفف عنها متاعب حياتها الزوجية .. ولكنها وضعت لهذه الحياة الخاصة مبدأ

ثابتا .. وهو أن تتمتع بالرجال دون أن ترتبط بواحد منهم .. إن الارتباط ينتهى إلى الحب .. فإذا أحبت رجلا آخر لم تعد تطيق زوجها .. لن تستطيع أن تجمع بين الحبيب والزوج .. ولكنها تستطيع أن تجمع بين رجل آخر وزوجها بلا حب .. لمجرد المتعة .. والتسلية .. والتخفيف من نكد الحياة .. وتذهب إلى الرجل وكأنها تذهب لمشاهدة فيلم سينمائى .. أو كأنها تفتح كتابا لتقرأ قصة .. حتى لو جعلت من نفسها بطلة هذا الفيلم أو هذه القصة ..

إن زوزو تعيش فى سلسلة من المغامرات .. مغامرات مثيرة لاكتشاف المجهول .. وهى تختار أبطال مغامراتها من الشخصيات العامة التى تعرض أمامها فى التليفزيون أو على شاشة السينما أو ترى صورهم وتقرأ عنهم أو لهم فى الصحف والمجلات .. قد تكون جالسة أمام التليفزيون وتبدو أمامها شخصية تجذبها وتشد الابتسامة إلى شفتيها .. ابتسامة صغيرة كأنها بدأت تشم رائحة المغامرة .. رائحة مثيرة .. وتتسع الابتسامة عندما ترى نفس الشخصية على شاشة التليفزيون مرة ثانية .. ثم تتسع أكثر فى المرة الثالثة .. إلى أن تتمكن منها روح المغامرة .. فتبدأ فى البحث عن رقم التليفون .. إنها تستطيع دائما أن تجد الرقم الذى تريده .. والتليفون هو الذى يحدد لها إما أن تستمر فى المغامرة أو تعدل عنها .. قد يكون حديثه فى التليفون مغريا .. مشوقا .. مثيرا .. وينتهى بتحديد موعد .. وقد يكون حديثا باردا .. سخيفا .. يصد النفس .. فلا تستمر فى ملاحقته .. وإذا حددت موعدا فإنها لا تندفع فى أكثر من لقاء واحد .. أو لقاءين .. أو ثلاثة على الأكثر .. وبعدها تقطع كل ما بينهما .. تختفى .. مهما كان الحد الذى وصلت إليه وهى

لا تدرى ماذا سيأخذ منها ولا ماذا ستعطيه .. إنها تتفرج .. وتستسلم لكل ما تتفرج عليه .. كيف يستقبلها .. كيف يتحدث إليها ويغازلها .. نظرات عينيه .. لمسات يده .. و .. و .. وهى دائما مستسلمة تتفرج .. حتى إحساسها لا يتعدى إحساس المتفرج ..

ولكن .. إن كل الرجال الذين غامرت معهم زوزو كانوا متزوجين .. لا يهم .. إنها فى مثل سنها لن تجد رجلا يدفعها إلى المغامرات إلا وهو متزوج .. إنها لا تعرض نفسها لمغامرات مع شبان لم يتزوجوا بعد .. ثم إن الرجل المتزوج يكون أكثر أمانا لها .. إنه يحسب حساب زوجته كما أنها تحسب حساب زوجها .. إنه لا يريد أكثر وهى لا تريد أن تعطى أكثر .. وكل رجل متزوج يجد دائما مكان اللقاء .. هكذا تأكدت زوزو مع كل مغامرة أقدمت عليها .. وليس معنى ذلك أن حياة زوزو كلها مغامرات .. إنها فى خلال عشرة أو خمسة عشر عاما لم تقدم إلا على أربع مغامرات ربما خمس .. كل مغامرة لا تستمر سوى أسابيع ثم تقطعها وتعيش على ذكراها .. تضحك بينها وبين نفسها وهى تتذكر .. أو تعيش فى ذكرى الدهشة مما رأته .. أو تسخر وهى ترى هذا الرجل بعد انتهاء المغامرة على شاشة التليفزيون أو تقرأ له حديثا وقورا على صفحات الصحف .. أو تتسلى وهى تحكى الحكاية لأعز صديقاتها .. إلى أن تتمكن منها روح المغامرة من جديد .. وتبدأ مع رجل آخر ..

لماذا لا تجرب ماجدة مغامرات زوزو ..

ربما كان هذا ما يريده الدكتور مصطفى الميسورى .. مغامرات تلهيها عن عقدتها النفسية أو تساعدها على صيانة حياتها الزوجية ..

تساعدها على احتمال زوجها عزيز ..

وبدأت تكثر من التردد على صديقتها زوزو وتجلس معها طويلا يتضاحكان وهى تروى لها عن مغامراتها .. وهى فى الوقت نفسه تفكر فيمن تبدأ معه ..

ومرت أيام طويلة وهى تستعرض فى خيالها الشخصيات العامة التى يمكن أن تجذبها .. وتجلس طويلا أمام التليفزيون وهى تنظر إلى الوجوه أمامها كأنها تختار .. وتقلب صفحات الصحف والمجلات كأنها تبحث عن رجل ..

وأخيرا قررت ..

ستبدأ المغامرة مع الممثل محمود برعى .. إنه نجمها المفضل .. وهو ليس شابا بل ربما كان فى سن زوجها .. وفى شخصيته هيبة وجدية تسحر جميع النساء .. ولكنه يبدو على الشاشة دائما فى شخصية وقورة حتى إنها لا تعتقد أنه يرحب بمثل ما تريده من مغامرات .. ولم تسمع عن مغامرات نسائية له رغم كثرة المغامرات التى تسمعها عن باقى نجوم السينما والتليفزيون .. ثم إنه متزوج .. ويقال إنه مخلص وهيمان بزوجته .. ولكن ..

إن كل ما تعرفه عنه هو الشخصية التى يمثلها على الشاشة .. شخصية تمثيلية وليست شخصيته الواقعية .. ربما كان فى شخصيته الواقعية يرحب بالمغامرات .. وربما كان يتعمد إشاعة إخلاصه لزوجته كما تتعمد هى أن تظهر فى المجتمعات وهى فى حالة حب مع زوجها عزيز .. إن شخصية الممثل لا يعرفها الناس ولكنهم فقط يعرفون الشخصية التى يمثلها .. ليست شخصيته .. لا أحد يعرف حقيقة شخصية يوسف

وهبى أو عماد حمدى أو فريد شوقى .. أو .. أو .. لا يعرفها إلا الذين يعرفونهم خارج الشاشة وخارج المسرح .. بعيدا عن التمثيل .. بعيدا عن الشخصيات الكاذبة التى يلبسونها أمام الناس ..

فلتجرب محمود برعى ..

وبدأت تحس بنوع من الخجل والخفر لمجرد تفكيرها فى التجربة .. الخجل من نفسها .. ولكن يجب أن تقاوم هذا الخجل ..

وبدأت فعلا تبحث عن رقم التليفون الأستاذ محمود برعى .. ولكنها تباطأ وتلكأ فى البحث .. كان يكفيها أن تتصل بصديقتها زوزو وتطلب منها رقم التليفون .. إن زوزو خبيرة فى اصطياد أرقام التليفون .. ولكنها لم تتصل بها .. وأخذت تلف وتدور فى تلكأ إلى أن وجدت الرقم أخيرا ..

والتليفون أمامها ..

ولكنها تنظر إليه صامتة .. مترددة .. إنها لا تدرى ماذا تقول فى التليفون ..

ستقول له إنها معجبة .. وتسرد عليه آخر فيلم رأته له .. وتتمنى لقاءه ..

ورفعت سماعة التليفون .. وأدارت رقم .. والرقم الثانى .. ثم عادت وألقت من يدها سماعة التليفون ..

إنها لا تستطيع .. هذا جنون ..

وكانت فى هذه الأيام قد بدأت تشعر بأن حالتها تسوء أكثر .. إنها تحس بتيار نفسى جديد يعصف بها .. تيار كأنه تيار من الغيظ .. إنها مغتاظة من نفسها .. ومن زوجها .. بل ومن أولادها .. وهذا الغيظ

يدفعها إلى الإحساس بالكراهية .. أصبحت تكره الدنيا كلها .. وتكره زوجها عزيز أكثر .. إنه السبب فى كل عذابها .. إنه مرضها ..

ثم بدأ ينتابها نوع عجيب من الكحة .. إنها كحة خافتة تنطلق من داخل حلقها فى فترات متباعدة .. إنها أقرب إلى الكحة التى كانت تنتاب حلق عبد الوهاب وهو يغنى .. وهى تعلم أن هذه الكحة ليست مرضا .. إنها حالة عصبية .. وهى ليست فى حاجة إلى أن تذهب إلى طبيب أخصائى فى الكحة .. سيقول إنها حالة عصبية .. وحالتها العصبية هى نتيجة حالتها النفسية .. فلتذهب إلى طبيب الأمراض النفسية ..

ورفعت سماعة التليفون وطلبت عيادة الدكتور مصطفى الميسورى ..

وسألها التمورجى قبل أن يحدد لها الموعد :

ــ هل هى حالة عاجلة ؟.

وقالت كأنها تصرخ :

ــ عاجلة جدا ..

وحدد لها التمورجى موعدا فى نفس اليوم ..

ووضعت سماعة التليفون وهى تحس براحة .. وقفزت إلى شفتيها ابتسامة هادئة وصورة الدكتور مصطفى تملأ خيالها .. عيناه الملونتان الواسعتان .. وشعره المنكوش فوق رأسه .. وذقنه السوداء الطويلة المستطيلة التى تغطى عنقه كأنها تابوت أسود يجمع فيه أسرار مرضاه ..

وقامت تقف أمام المرآة وترتدى ثوبها دون أن تشعر بأنها تتعمد أن تبذل مجهودا أكبر فى تصفيف شعرها وفى تلوين وجهها ، وفى اختيار ثوبها ..

• • •

٤

وقفت ماجدة أمام الدكتور مصطفى الميسورى وهى تنظر إليه بكل عينيها وبلا كلفة ولا خفر كأنها تعرفه من زمان طويل وكأنها فى شوق إليه .. وتعلقت عيناها بذقنه السوداء الطويلة وأحست بهذه الرغبة فى الضحكة التى تكتمها وتنعكس ابتسامة بين شفتيها ..

وقبل أن تقول كلمة واحدة اتجهت إلى الأريكة الموضوعة فى ركن من غرفة العيادة وألقت بنفسها راقدة عليها وجسمها ممدود حتى آخره .. لقد سبق أن قال إنه يريدها أن تكون أمامه حرة وألا تحس به كطبيب معالج وأن تتكلم وهى فى أى وضع تريده .. وهى الآن تريد أن تتكلم وهى راقدة على هذه الأريكة التقليدية المخصصة لرقاد المرضى النفسانيين ..

وتركها الطبيب ترقد .. ولم يجلس خلف رأسها وفى يده الورق والقلم كما هى عادة الأطباء النفسانيين ، إنما بقى مكانه جالسا إلى مكتبة وأدار مقعده قليلا بحيث أصبح وجهه مطلا على الشباك وعيناه بعيدتين عنها .. وأصابع يده مغروسة فى شعر ذقنه ..

وبدأت تتكلم كأنها تحادث نفسها ..

قالت إنها حاولت أن تجرب نصيحته وأن تقيم لنفسها حياة خاصة بجانب حياتها الزوجية .. أن يكون لها رجل آخر بجانب زوجها .. أن يكون لها عشيق .. ولكنها لم تستطع أن تختار هذا الرجل الذى تبدأ به

التجربة وتشجعه على نفسها وتشجع نفسها عليه .. لقد قضت أياما طويلة وهى تستعرض فى خيالها كل الرجال الذين تعرفهم والذين تلتقى بهم فى المجتمعات دون أن تستقر على واحد منهم .. ومرت أيام قررت فيها أن تبدأ بأحد أصدقاء العائلة .. إنه صديق زوجها وزوجته صديقة لها .. وهو يحاول معها منذ زمن طويل .. وكان من السهل عليها أن تأخذه وأن تعطيه نفسها .. كلمة واحدة فى التليفون ويبدأ كل شىء .. ولكنها لم تستطع .. لا تدرى لماذا .. ربما لأنها لم تتعود هذه الحياة .. بل إنه نوع من الحياة لم يخطر على بالها أبدا .. أو ربما لأنها تعودت الاعتزاز بنفسها والاعتزاز بكرامتها .. وتعودت التعالى على كل الرجال .. أو ربما لأنها تحسب دائما حساب أولادها .. إن إحساسها بأولادها يسيطر عليها ويتحكم فيها قبل إحساسها بزوجها .. وهى تحس أنها عندما ترتكب الخطيئة فهى لا تخون زوجها ولا تتعدى على حقه وكرامته بل تخون أولادها وتتعدى على حقوقهم وكرامتهم .. أو ربما كان كل ما هناك أنها جبانة .. خيبة .. لا تستطيع أن تقدم على اصطياد رجل ولا تستطيع أن تترك رجلا يصطادها ..

وسكتت ماجدة ونطرت جسدها من رقدتها وجلست برهة على حافة الأريكة دون أن تنظر إلى الطبيب .. وهو قد أحال عينيه إليها ينظر إليها صامتا كأنه ينظر إلى أن يتأكد من أنها انتهت من كلامها ..

وفجأة عادت ومددت جسدها على الأريكة كأنها تذكرت شيئا لم تقله .. وبدأت تتحدث من جديد .. لقد حاولت أن تجرب المغامرات كما تفعل صديقتها زوزو .. مغامرات مع الشخصيات العامة التى تعجب بها وهى تراهم على شاشة السينما أو التليفزيون أو وهى ترى صورهم

وتقرأ عنهم أو لهم فى الصحف .. لقد اقتنعت أن مثل هذه المغامرات يمكن أن تكون علاجا لحالتها .. يمكن أن ترفع حالتها النفسية فوق متاعبها .. وذلك دون أن ترتبط بعلاقة دائمة يمكن أن تؤثر فى حياتها الزوجية .. وقضت أياما طويلة تفكر إلى أن قررت أن تبدأ بالممثل محمود برعى .. إنه نجمها المفضل .. ولن تراه إلا مرة أو مرتين .. ثم تنتهى المغامرة دون أن يعرف عنها شيئا حتى ولا اسمها .. إن صديقتها تستعمل دائما اسما كاذبا فى مغامراتها .. وقد عاشت أياما طويلة وهى تقاوم ترددها .. ووصلت إلى أن عرفت رقم تليفونه .. وأدارت القرص مرة ومرتين .. ولكنها لم تستطع أبدا .. لم تستطع أن تبدأ معه بكلمة واحدة ..

وقد ساءت حالتها .. إنها تحس بأعصابها تتمزق تحت جلدها .. وتحس بكل قطعة من جسدها تتألم .. وقد أصيبت بهذه الكحة الخافتة التى لا تكف عنها ولا ترحمها .. إنها تحس بأنها تخطو سريعا إلى الجنون .. ولكنها أخيرا وجدت الحل .. الحل الذى يمكن أن ينقذها ..

وسكتت وهى راقدة على الأريكة دون أن تنظر إلى الطبيب ..

وطال سكوتها .. وقام الدكتور مصطفى من وراء مكتبه واقترب منها وقال وهو واقف وجسدها ممدد أمامه فوق الأريكة ، وبين شفتيه ابتسامة هادئة تطل من خلال شعرات ذقنه الطويل :

— وما هو الحل ؟

وقالت فى صوت ناعم وجفونها تنسدل فوق عينيها فى خفر :

— الحل هو أنت ..

قال فى دهشة وعيناه تمسحان جسدها الممدد أمامه :

— ماذا أستطيع أن أقدم أنا ..

قالت كأنها تهمس وهى تدير رأسها إلى الناحية الأخرى وتخفى وجهها بين يديها :

— تستطيع أن تكون تجربتى الأولى ..

وقفزت إلى عينيه نظرة رثاء كأنه اكتشف أمامه حالة خطيرة وابتعد عنها وعاد يجلس إلى مكتبه وهو يقول بلهجته التى ترن فيها لكنه أمريكية من طول ما عاش هناك :

— لا .. لا .. لا يمكن ..

ونطرت جسدها جالسة على حافة الأريكة وقالت وعيناها متسعتان فى تحد كأنها تتحدى الصدمة التى قذفها بها :

— لماذا لا يمكن ..

وقال فى فتور :

— لماذا أنا ..

وقالت فى حدة :

— لأنك أنت الذى تدفعنى إلى هذا الطريق .. ولا أريد أن أكشف طريقى أمام رجل آخر .. إنى أريد أن تكون حياتى كلها سرا بين يديك ولا أستطيع أن أكشف سرى أمام غريب ..

قال فى هدوء :

— إن الاعتماد على لن يحقق النتيجة التى نصحتك بها ..

وقاطعته وهى تقوم فى عصبية وتجلس على المقعد بجوار المكتب :

— إن النتيجة التى تريد أن تصل بى إليها هى إما أن أشعر بالندم على ما فعلته وإما أن أعتاد هذه الحياة الجديدة .. وفى كلتا الحالتين سأستطيع

أن أتغلب على عقدتى النفسية التى تمزقنى نتيجة مصائب زوجى .. وأنا إلى هذه اللحظة لا أدرى ما يمكن أن أصل إليه معك .. هل أصل إلى الندم أم أعتاد عليك .. ولكنى مطمئنة إلى أن كل ما يحدث سيبقى سرا يحمينى من الفضيحة ويحمينى من نفسى ومنك ..

وقال وهو يركز عليها نظرات عينيه الواسعتين الملونتين :

ـ يا سيدتى اسمعينى جيدا .. حاولى أن تفهمينى .. إنى بالنسبة لك لست رجلا ولكنى طبيب .. وكل ما يمكن أن أقدمه لك حتى لو بدأنا الآن بتبادل القبلات لن يكون له أثر إلا كأثر الدواء الذى يصفه الطبيب .. أقرب إلى الدواء المخدر .. وأنا لا أريد من علاجك أن تعتمدى على الأدوية المخدرة ولكنى أريد أن أصل بك إلى تغيير شخصيتك تغييرا كاملا حتى تصلى بهذه الشخصية إلى نوع من التوازن مع شخصية زوجك .. وتغيير الشخصية لا يعتمد على الأدوية ولكنه يعتمد على الإرادة الذاتية .. ويجب أن تصلى بإرادتك إلى أن تقررى اختيار رجل تقيمين معه حياة خاصة .. رجل يقيم لك شخصية جديدة .. لا طبيب لا يستطيع أن يقدم إلا العلاج والدواء ..

وقالت ماجدة وقد بدأت تضعف أمام عينيه الواسعتين :

ـ إنى أفضل أن أحس بأنى مريضة وأن ما أفعله هو ما يفرضه على العلاج والدواء .. إن هذا يخفف عنى الإحساس بالخطيئة .. ويخفف عنى إحساسى بأنى أخطىء فى حق أولادى ..

قال الطبيب بلكنته الأمريكية ..

ـ افصلى شخصيتك عن شخصية أولادك .. إن الأولاد بعد أن يصلوا إلى سن الوعى بعد السادسة عشرة تصبح لهم شخصية منفصلة انفصالا تاما عن شخصية الأب والأم .. لهم عالم آخر .. فلا تقيدى

نفسك بعالم ليس عالمك ..

وقالت ساخرة :

ـ هذا ما يحدث فى أمريكا كما سمعت .. إن الأولاد يتركون بيوت الآباء والأمهات فى سن السادسة عشرة ..

وقال فى هدوء :

ـ إن المجتمع الأمريكى كما قلت لك يعيش الواقع .. الواقع المادى والواقع النفسى ..

وقام من جلسته كأنه يعلن انتهاء الجلسة .. وعاجلته قائلة :

ـ ماذا أفعل الآن .. إنى متعبة ..

وقال وهو يقترب منها مبتسما :

ـ استمرى فى المحاولة .. إن مجرد الاستمرار يساعدك على بناء شخصيتك الجديدة ..

وقالت وهى تقف منصرفة :

ـ ربما كان ما دفعنى إلى ما طلبته منك هو ما أسمعه عما يجرى فى عيادات الأطباء ..

وقال وهو يقترب منها وذقنه يهب على وجنتيها :

ـ صدقينى .. لو لم تكونى مريضتى ولولا أنى حريص على علاجك العلاج الصحيح .. لتمنيتك كرجل ونسيت أنى طبيب ..

ورفعت إليه عينيها كأنها تهم أن تغرق نفسها فى ذقنه .. ثم كأنها عدلت عما كانت تهم به وأدارت ظهرها له .. وانصرفت بلا تحية .. وهو معها يغلق الباب وراءها ..

* * *

لماذا تستسلم لهذا الطبيب المجنون الذى لا يزال يعيش وكأنه فى مجتمع أمريكا ويفكر لكل مرضاه وكأنهم أمريكان .. لا .. إنها ستكفر بهذا الطبيب .. إن الدكتور مصطفى الميسورى ليس إلا خدعة كبرى .. ليس طبيبا نفسيا ولكنه نصاب نفسانى يقوم بعمليات النصب مختبئا وراء الشهادات والألقاب التى يقول إنه حصل عليها من أمريكا .. وقفزت ابتسامة ساخرة إلى شفتى ماجدة وعادت تكرر .. أمريكا .. أمريكا .. إن أمريكا أصبحت موضة هذه الأيام .. سحر هذه الأيام كل شىء أصبح أمريكيا حتى الطبيب والدواء .. لا .. ستهرب من أمريكا .. لن تتبع تعليمات الدكتور مصطفى ولن تذهب إليه أبدا .. وإذا احتاجت إلى طبيب النفس فلتعد إلى الدكتور على عبد الله .. إنه طبيب مصرى .. يعيش المجتمع المصرى .. ويفهم مشاكل النفس المصرية .. إنه لم يحرضها أبدا على الخطيئة .. لم يحاول أن يفصلها عن زوجها وأولادها ويأخذها إلى عالم بعيد بحجة البحث عن شخصية جديدة لها ..

ولكن .. إن الدكتور مصطفى الميسورى رفضها .. رفض دعوتها الصريحة له بأن يأخذها .. رفض أن يأخذ هذا الجسد ويشبع بـه شهوته .. شهوة كل رجل سواء كان طبيبا أو حلاقا .. لماذا .. لماذا رفضها .. ربما لم يعد فيها ما يمكن أن يغرى الرجال .. هل فقدت جمالها .. هل بردت أنوثتها .. هل كبر بها العمر وأصبحت عجوزا رغم أنها لا تزال فى السنوات الأولى بعد الأربعين .. لقد قال لها الدكتور مصطفى إن العنصر الأساسى فى شخصيتها هو اعتزازها بأنها امرأة جميلة .. وسر عقدتها أن زوجها لم يكتف بهذا الجمال ولم يشبع به ودار يشبع نفسه مع الأخريات .. يجب أن تظل معتزة بجمالها .. وأنوثتها

وإغرائها .. إغراء المرأة .. إغراء الأنثى .. حتى تظل محتفظة بقـوة شخصيتها ولكن كيف تحتفظ بهذه الشخصية وهى لم تستطع أن تغرى بجمالها الدكتور مصطفى .. إنه مجنون ..

لا بد أنه هو نفسه معقد نفسيا حتى يرفض النعمة التى تمن عليه بها .. أو ربما كانت عقدته تجعله يخاف النساء ويعجز عن ممارسة رجولته معهن ..

وستثبت لنفسها أنه مجنون ومعقد .. وأنه هو نفسه مريض نفسيا وفى حاجة إلى طبيب .. ستثبت لنفسها أنها المرأة الجميلة .. المغرية .. التى لا يمكن أن يرفضها رجل ..

ستعود وتبحث عن رجل تختاره .. مغامرة كمغامرات صديقتها زوزو ..

وعادت تبحلق فى شاشة التليفزيون وتقلب فى صفحات الصحف .. لا .. لن تختار نجمها المفضل الأستاذ محمود برعى .. إن نجوم الشاشة أصبحوا كالأطعمة الشعبية .. كالفول والطعمية .. نهبا لكل النساء .. ستختار شخصية صعبة .. الأستاذ عبد السلام سلام .. إنـه كاتبها المفضل .. وهى تقرأ له كل صباح العامود اليومى الذى ينشره فى الصحف .. وتقرأ له كل ما يكتبه من مقالات وتحقيقات .. ودائما تقتنع بما تقرأه له بل تحس أنه يعبّر عن آرائها .. ولا يمكن أن يكون الأستاذ عبد السلام شخصية سهلة لمغامرات النساء فهو على الأقل لا يكتب القصص التى يمكن أن تغرى النساء .. إنه كاتب جاد .. وشخصية جادة ..

وقضت أياما طويلة وهى تحاول أن تقنع نفسها بأن تتصل بالأستاذ عبد السلام سلام .. أحيانا تقضى اليوم وهى تعد الكلمات التى ستقولها

له .. وأحيانا تعدل عن قرارها .. لا تكونى مجنونة .. لا تستسلمى لعلاج الدكتور مصطفى .. ثم تعود وتفتح الصحيفة وتقرأ ما كتبه الأستاذ عبد السلام وتحاول أن تحفظه .. لا بد أن تكرر له وهى تحادثه بعض ما قرأته له حتى تثبت له أنها معجبة به ..

وأخيرا ألقت نفسها على التليفون كأنها تلقى نفسها فى الغيب .. فى المجهول .. واتصلت بالأستاذ عبد السلام فى الجريدة التى يعمل بها وقالت بسرعة :

— أنا معجبة ..

ورد فى صوت منطلق مرح :

— أهلا بمعجبة هانم ..

وصدمت بمرحه وهو يرد عليها .. لقد كانت تتصوره أكثر جدية .. وقورا .. وتماسكت وعادت تقول :

— إنى مقتنعة بما كتبته اليوم .. والواقع أنى أقتنع بكل ما تكتبه .. ولا أنسى ما قلته عن أزمة الصابون .. إنى معجبة إلى حد أنى أتمنى أن نلتقى . لنتحدث .. لأسمع منك أكثر مما تكتبه .. وقال وفرحته تصرخ :

— أهلا .. إنى فى انتظار لقائك ..

قالت وهى تضغط على صوتها كأنها تتعمد أن تبدو طبيعية :

— كيف .. وأين ؟

وقال فى بساطة كأنه تعود على مثل هذا الحديث :

— هنا فى مكتبى بالجريدة .. فى أى وقت ..

قالت فى تردد وقد بدأت تحتار كيف تستمر فى مغامرتها :

— ألا يمكن أن ألقاك فى مكان آخر .. أخشى أن ألتقى فى الجريدة بمن يعرفنى ..

قال وفى صوته رنة إلحاح مرحة :

— سيكون لقاؤنا الأول هنا .. وبعدها نقرر أين نلتقى .. لا تهتمى بمن يراك أو يعرفك .. هنا مكان عام كسوق الخضار أو كمحلات عمر أفندى لا أحد يهتم بالآخر ..

وسكتت برهة تقاوم ترددها ثم قالت كأنها تصرخ :

— غدا .. فى الحادية عشرة .. سأكون عندك ..

وقال بصوته المرح :

— فى انتظارك يا معجبة هانم .. هل لك اسم تقولينه للسكرتيرة ..

وقالت بسرعة وكأنها تنطلق بلا وعى :

— سأقول إنى مدام مصطفى ..

وقال ضاحكا :

— أهلا مدام مصطفى ..

وألقت سماعة التليفون بيد مرتعشة دون أن ترد عليه .. وأحست كأن الأستاذ عبد السلام خيب أملها .. إنه يبدو كأنه رجل عادى يرضى غروره أن تحادثه امرأة معجبة .. وهو فى انطلاقه ورنة الفرح فى صوته يذكرها بفؤاد صديق العائلة الذى يطاردها ويغازلها منذ سنوات .. ولماذا حدد لها موعد اللقاء فى الجريدة .. ربما كان يريد أن يكشف عليها .. يستعرضها .. فإذا كانت جميلة مثيرة كان الموعد الثانى فى مكان يستطيع فيه أن يمتع نفسه بها .. أن يشبع نهمه .. أن يأكلها .. له حق .. إن الرجل لا يستطيع أن يلتقى فى مكان خاص بامرأة لا يعرفها

ولم يرها .. ولكن .. من يدرى .. ربما كانت مكاتب الكتاب كعيادات الأطباء .. كل شيء يمكن أن يتم بين جدرانها .. ورغم ذلك ستذهب إليه .. يجب أن تتخلص من ترددها .. من حيرتها .. من مرضها .. من عقدتها .. وهى تعلم ما يمكن أن يحدث .. إنه بمجرد أن يراها سينهار أمامها .. أمام جمالها .. وأمام إغراء أنوثتها .. وسيبدأ المحاولة بعد النظرة الأولى .. وستتركه يحاول .. ستتفرج عليه .. إنها فرحة مسلية تأخذها من كل عقدتها .. الأستاذ الكبير يتلوى أمامها ويسجد لكل قطعة منها .. يا فرحتى .. إنها متأكدة أنها جميلة .. مثيرة .. لا يستطيع أن يقاومها رجل حتى لو كان هذا الأستاذ الكبير .. وحتى لو كان جمالها لا يشبع زوجها عزيز ..

ولكن لماذا اختارت أن تسمى نفسها مدام مصطفى .. ربما كانت تقصد الدكتور مصطفى الميسورى .. إنه هو المسئول عنها .. وكل ما يمكن أن تفعله هو ما يريده لها .. وما يريده منها .. إنها تذهب إلى هذا الكاتب الكبير لا باعتبارها مدام عزيز .. فزوجها عزيز لا يريدها أن تذهب ولا يقبل لزوجته أن تذهب .. ولكن التى تذهب هى مدام مصطفى والدكتور مصطفى يقبل أن تذهب .. ومن يدرى ربما لو كانت زوجته لما تغير شيء .. هذا ما يقبله الواقع النفسى للمجتمع الأمريكى .. وكما أنه طبيب أمريكى فلا شك أنه لو كان زوجها لكان أيضا زوجا أمريكيا ..

وقضت يومها وليلها وهى لا تستطيع أن تستقر .. وكحتها الخافتة تتسارع فى حلقها حتى تكاد تخنقها .. ولكنها مصممة .. لن تعدل عن قرارها .. لن تهرب من مغامرتها الأولى ..

وفى صباح اليوم التالى وجدت نفسها كأنها مسلوبة الإرادة .. تتحرك كأنها نائمة .. ولم تبذل جهدا فى تجميل نفسها .. لم تتعمد اختيار الثوب الذى ترتديه .. وخرجت ساهمة ونادت سيارة أجرة .. إلى الجريدة .. وما كادت السيارة تتحرك حتى أحست بأعصابها تنقبض كأنها تلف حول بعضها .. وأنفاسها تتلاحق فى عنف .. وعيناها تتسعان كأنها تقاوم الظلال .. وصاحت فى السائق :

— لا يا أسطى .. إلى شارع طلعت حرب ..

ونزلت من السيارة أمام عيادة الدكتور مصطفى الميسورى ..

وما كاد التومرجى يفتح لها الباب حتى صرخت فى وجهه :

— أريد أن أرى الدكتور حالا ..

ونظر إليها التومرجى نظرة فاحصة . إنها ليست فى حالة طبيعية .. ربما كانت حالتها خطرة .. ربما كانت تجتاز مرحلة الوصول إلى الجنون .. وقال وهو يحاول أن يكون بابتسامته عنصرا مهدئا :

— دقيقة واحدة لو سمحت ..

وجذبها فى رفق ليجلسها على أحد المقاعد .. ولكنها رفضت أن تجلس .. وعادت تصرخ :

— لن أحتمل ولا دقيقة واحدة ..

وجرى التومرجى من أمامها .. ودخل غرفة الكشف ليبلغ الطبيب وعاد إليها مسرعا ، ثم جذبها برفق وأدخلها غرفة المكتب الملحقة بغرفة الكشف وهو يقول من خلال ابتسامة :

— الدكتور مع أحد المرضى وسينتهى حالا .. أرجوك .. حاولى الانتظار دقيقة أو دقيقتين على الأكثر ..

وظلت واقفة وهى تنظر إلى التومرجى بعينيها المتسعتين كأنها تنظر بهما فى ظلام .. وكأن التومرجى أراد أن يشغلها عن نفسها فقدم لها فاتورة بحساب الكشف .. الدفع مقدما .. والتقطت الورقة وقد علت شفتيها ابتسامة ساخرة تقطر بالمرارة .. وفتحت حقيبتها وأخرجت خمسة جنيهات أعطتها له .. وفى نفس اللحظة رن جرس ..

إن الطبيب يطلب المريض التالى ..

وفتح التومرجى باب غرفة المكتب المؤدى إلى غرفة الكشف وهو يقول فى هدوء :

ـــ تفضلى ..

وخطت إلى الداخل وما كادت ترى الدكتور مصطفى أمامها حتى صرخت بعلو صوتها :

ـــ أنت المسئول .. يجب أن تتحمل المسئولية كلها ..

وقبل أن تتم كلامها تساقطت الدموع على خديها .. دموع عصبية من خلال تنهدات حادة .. ونظر الطبيب إليها من خلال عينيه الملونتين ومن تحت شعره المبعثر فوق رأسه ثم قال للتومرجى :

ـــ أجل الكشف التالى ربع ساعة ..

وخرج التومرجى وأغلق الباب وراءه .. واقترب الدكتور مصطفى من ماجدة وبين شفتيه ابتسامة لا معنى لها ، ثم مد ذراعيه إليها وضمها إلى صدره .. ووجدت وجهها غارقا فى ذقنه السوداء الطويلة ..

غارقا فى تابوت الأسرار ..

* * *

وخرجت ماجدة من عيادة الطبيب وهى ساهمة .. مذهولة .. ثوبها

مفركش فوق قوامها .. وخطاها تتعثر فى مشيتها .. وقبل أن تخرج من الباب لحق بها التومرجى .. وقدم لها فاتورة حساب أخرى .. ونظرت إليه من خلال ذهولها كأنها لا تفهم شيئا .. ثم فتحت حقيبتها وأعطته عشرة جنيهات كما تطلب منها فاتورة الحساب ..

ووصلت البيت وهى فى ذهولها ..

ماذا فعلت ..

لا شىء .. لقد كانت مريضة كانت عند الطبيب وكانت تعالج .. أخذت الدواء .. أجريت لها عملية جراحية .. حتى تشفى .. حتى تعيش شخصية جديدة .. عالم جديد .. ليس فى هذا شىء .. لم ترتكب خطيئة .. إنها تستطيع أن تقول كل شىء لزوجها .. لأولادها .. إنها لم تخطىء .. ليست زوجة خائنة .. ولا أما آثمة ..

وأعصابها تتلوى ..

والكحة الخافتة تشتد بها ..

ولكنها تحس بضربات قلبها تضطرب .. ضربات سريعة مؤلمة ..

وهى تعلم أنها ليست مريضة وليست فى حاجة لأن تستدعى طبيبا إخصائيا لينقذها من ضربات قلبها ..

إنها تعلم أن كل ما تعانيه حالة عصبية نتيجة اضطراب نفسى .. ربما كان من الأفضل لها أن تتناول الأقراص المهدئة التى كتبها لها الأطباء .. الأقراص التى كانت تسميها مخدرات .. إنها فى حاجة الآن إلى مخدرات ..

وقامت وفتحت الدرج البعيد من دولابها .. وأخرجت الزجاجات الثلاث المملوءة بالأقراص .. ورفعت أول زجاجة .. إنها الأقراص التى

كتبها لها الدكتور مصطفى الميسورى .. وابتلعت قرصا .. لا يكفى .. قرصين .. ثلاثة أقراص .. وابتلعت كل أقراص الزجاجة .. ولكن .. ربما لم تكن أقراص الدكتور مصطفى كافية .. فلتجرب معها أقراص الدكتور على عبد الله . وابتلعت قرصا .. وقرصين .. وابتلعت الزجاجة كلها .. وهى تحس بكل ما فيها ينام .. ولكنها لا تزال واعية .. وفتحت الزجاجة الثالثة وابتلعت كل ما فيها دفعة واحدة ..

إن كل ما فيها قد نام ..

وهى تريد أن تغمض عينيها ..

ولكنها تجد صعوبة فى إغماض عينيها .. إن جفنيها ثقيلان إلى حد لا تقوى على خفضهما فوق عينيها .. ولكنها تحاول ..

وأغمضت عينيها ..

ولا أحد يدرى متى تصحو ..

• • •

الأستاذ احسـان عبـد القـدوس

- صانع الحب وبائع الحب
- أنا حـرة
- الطـريق المسـدود
- أين عمـرى
- النظـارة السـوداء
- فى بيتنـا رجـل
- لا أنام
- منتهى الحب
- لا تطفىء الشمس (جزء اول)
- لا تطفىء الشمس (جزء ثان)
- شىء فى صـدرى
- زوجـة أحمـد
- البنـات والصـيف
- لا شىء يهـم
- أنف وثلاث عيون (جزء أول)
- أنف وثلاث عيون (جزء ثان)
- شـفتاه
- لا .. ليس جسـدك
- عقلى وقلبى
- بئر الحرمان
- علبة من صـفيح
- ثقوب فى الثوب الأسود

- بنت السلطان
- سيدة فى خدمتك
- نساء لهن أسنان بيضاء
- لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص
- الوسادة الخالية
- دمى ودموعى وابتسامتى
- الراقصة والسياسى
- حتى لا يطير الدخان
- العذراء والشعر الأبيض
- ونسيت أنى امرأة
- الهزيمة كان اسمها فاطمة
- لا تتركونى هنا وحدى
- الحياة فوق الضباب
- آسف لم أعد أستطيع
- وتاهت بعد العمر الطويل
- لم يكن أبدا لها
- خيوط فى مسرح العرائس
- أرجوك خذنى من هذا البرميل
- وعاشت بين أصابعه
- الرصاصة لا تزال فى جيبى
- زوجات ضائعات